الدكتور حسين نصار

ظافر الحداد

شاعر مصري من العصر الفاطمي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

ما زالت الدواوين التى حققناها ونشرناها من الأدب المصرى قليلة ، لا تروى غليلنا أو تعفينا من واجبنا نحوه . وما زالت الدراسات التى أصدرناها عن شعرائنا الأولين أقل من الدواوين التى بين أيدينا . وهذا أمر غريب .

وما أقدمه للقارئ اليوم دراسة لواحد من أقدم شعرائنا الكبار ، واحد من شعراء العصر الفاطمى . دفعنى إلى دراسته وترك مجموعة سبقته من الشعراء وقعت دواوينهم بين أيدينا مثل تميم بن المعز ، والشريف العقيلى ، أننى أعجبت به منذ عهد بعيد طالعت فيه بعض مقطوعاته ؛ وأن القدر السعيد وضع بين يدى مجموعة من نسخ ديوانه المفقود ، جاهدت أن أحققها وأخرجها لمحبى الأدب العربى عامة ، والأدب العربى فى مصر خاصة . فوفقت فى التغلب على كثير من العراقيل التى واجهتنى ، والمسائل المشكلة التى تمتلىء بها النسخ جميعا . فرأيت — بعد أن بلغ الديوان ما بلغ من الاستواء — أن يكون لى حق ارتياده ، وأن أكتب عنه دراسة موجزة . ولكن ظافرا أبى إلا التمام . فقد مد لى حباله ، وبسط أمامى رياضه ، وأغرانى على السير معه ، حتى صرت لا أستطيع من أسره فكاكا .

والأخبار التى قدمها لى الكاتبون عن ظافر قليلة . ولذلك رأيت أن أعتمد على ظافر نفسه . فقادنى هذا إلى النهج الذى اتبعته فى هذه الدراسة . فقد عولت على أن أؤرخ لظافر من شعره : أن أتخذ من الشعر العين التى ترينى

حياة الشاعر ، وحياة عصره . فجعلت الشعر منطلقى إلى فهم كل ما اتصل بالرجل، لأن ذلك يعطينى نظرة الرجل إلى ما أحاط به من أمور . حقا قد تتفق هذه النظرة مع واقع هذه الأمور ، وقد تختلف . وقد أبنت اتفاقها واختلافها ، على الرغم من إيمانى بعدم جدوى ذلك ، لأن المؤثر الأول فى الشاعر وشعره هو نظرته إلى الواقع حوله لا الواقع نفسه : فكى ينتقل الواقع إلى وعى الشاعر به، لابد أن يراه ، فتلتقط منه عينه ما تلتقط ، وتترك ما تترك ، ولا بد أن يحس به وجدانه ، فيعطيه لونه وإيحاءه . وإذن فنحن حين نترجم لشاعر لانؤرخ لعصره ، وإنما نؤرخ لرؤيته لعصره وإحساسه . وكلما أحسنا هذا اللون من التأريخ كان منهجنا أقرب إلى دراستنا الأدبية ، وأدنى إلى إصابة الهدف الذى نريده . وهذا ما حاولته فى هذه الدراسة : حاولت التعرف على حياة الرجل، وطباعه ، وثقافته ، ومجتمعه ، والرجال الذين اتصل بهم ، والنساء اللائى أحبهن ، والمشاهد التى وقع عليها بصره، حاولت التعرف على كل شىء ، كما تصوره هو ، فظهرت آثار تصوره فى شعره . ولست أدعى أنى حققت كل ما كنت أرجوه ، أو نفذت كل ما يقتضيه المنهج الذى ارتضيته . ولكننى أدعى أننى أقدم للقارئ محاولة جديدة ، لم أبخل عليها بوقت ولاجهد ، محاولة صادقة ترجو أن تكتمل لها أسباب الحياة وعوامل النماء . والله أسأل التوفيق والعون .

القاهرة فى ١ شعبان ١٣٩٥
٨ اغسطس ١٩٧٥

حسين نصار

محتويات الكتاب

الباب الأول

عامل من هذه الأمة

الفصل الأول

قبيلة من اليمن

يتفق الباحثون الآن على أن الهجرات العربية إلى البلاد الخصيبة التى حول شبه الجزيرة لم تنقطع ، قبل الإسلام ولا بعده ، وإن من هذه الهجرات الضخم ، أو ما اتصل ببعض الأحداث الكبيرة ، أو كان له أثره ، فالتفت إليه المؤرخون وسجلوه ، ومنها مالم يلق هذا الحظ فمردون التفات ، وإن من هذه الهجرات المسجلة الموغل فى القدم حتى أنه يلاحق شعوب هذه المنطقة فى أقدم أحداثها ، ويجرى فى الحقب التى اصطلح العلماء على تسميتها « عصور ما قبل التاريخ » .

ويتفقون على أن هذه الهجرات لم تصدر عن الجزء الشمالى الفقير من شبه الجزيرة وحده، بل منه ومن الجزء الجنوبى الثرى . فإذا كان الجدب وانقطاع المطر سبب هجرة الشماليين ، فإن كثرة السكان ، واضطراب الأحوال ، وإهمال وسائل الرى سبب الهجرة من الجنوب .

ويلفت النظر فى هذه الهجرات — وخاصة ما وقع منها قبيل الإسلام، وفى أثناء الفتوح الإسلامية — أن القبائل الشمالية التى عرفت فى التاريخ العربى باسم العدنانية كانت أكثر هجراتها إلى الشرق : منطقة الخليج العربى والعراق ، وأن أكثر هجرات القبائل الجنوبية — أو القحطانية — كانت إلى الشمال والغرب : منطقة الشام ومصر .

وقبل الإسلام بما يقرب من قرنين خرج من اليمن قبيلتان أختان : هما لخم وجذام . فالنسابون يرون أن هذين لقبان لمالك وعامر — أو عمرو — ابني عدى بن الحارث بن مرة(١) . خرجت القبيلتان مهاجرتين إلى الشمال ، فلما بلغتاه وضعتا الرحال . واتخذتا من المنطقة التي تمتد من شمال الحجاز إلى جنوب الشام إلى شرق مصر موطنا لهما . بل توغل بعضهم في مصر حتى وصل إلى الفرما وما بعدها .

واشتغلت جذام بإرشاد القوافل التجارية التي تخترق المنطقة حاملة البضائع المختلفة بائعة ومشترية . واتصلت لخم بسكان مصر من القبط ، وتعلمت شيئاً من لغتهم(٢) . وكان طبيعياً — بعد هذا الاختلاط بين القبيلتين وأهل مصر والشام — أن تنتشر المسيحية بينهم ، فيحتضنهم الرومان ويتخذون منهم حلفاء عند الضرورة . وقد شعروا بها ملحة قاسية ، عندما أخذ العرب يوقعون بهم مرة بعدمرة في زحفهم الإسلامي العظيم . ولكن القبيلتين سرعان ما أزاحتا غشاوة الوهم والزيف عن عيونهما ، وعادتا إلى عروبتهما الأصيلة النقية ، وشاركتا ركب المنتصرين الرائع .

ولما انفصل عمرو بن العاص بجيشه الصغير عن فلسطين ، واتخذ طريقه إلى مصر غازيا ، كان لابد أن يخترق المنطقة التي تقيم فيها القبيلتان ، وكان لابد من اللقاء : وما أسرع ما آتى هذا اللقاء ثمرته . فقد عرضت أعداد كبيرة من رجال القبيلتين على عمرو أن ينضموا إليه . فرحب بهم القائد المحنك لما لمسه فيهم من معرفة بالبلاد ومسالكها ، واتصال بأهلها وإلمام بلغتهم ييسر لهم التفاهم معهم .

وانتهى القتال بما أحب العرب .

وشرعت القبائل العربية تستقر في البلاد الجديدة . فحافظت لخم وجذام على ما بينهما من صلات المودة . فنزلتا منزلا واحدا بالفسطاط ، بالرغم

(١) المقريزي : البيان والاعراب ١١ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٥٩ .

من أن لخما كانت من الكثرة بحيث خصص لها ثلاث خطط . وارتبعتا فى مرابع واحدة فى الفيوم وطرابية وقربيط من الحوف الشرقى . وعندما تفرقت بهم السبل ، وتناثروا فى أرجاء مصر ، حافظوا على هذا الاتحاد . فنزلت طائفة من القبيلتين بصان وأبليل وطرابية من الشرقية ، وأخرى فى الإسكندرية ، وثالثة فى برقة .

وارتبط تاريخ القبيلتين فى مصر ارتباطا وثيقا ، فإذا ماأرخت لإحداهما كان ذلك منك تأريخا للأخرى ، حتى أن بعض الكاتبين كان يستنتج اشتراك إحدى القبيلتين فى حدث ما ، إذا ما وجد اسم القبيلة الأخرى على صلة بذلك الحدث . وأقوى الأدلة على هذا الترابط ماكان من القبيلتين فى الثورات المصرية . فقد اتفقتا تحت زعامة الأكدر بن حمام اللخمى على مؤازرة الزبيريين و مقاومة المروانيين فى سنة ٦٥هـ. ولما ثار ابن نعيم الجذامى فى فلسطين على مروان بن محمد فى سنة ١٢٧ آزره الجذاميون واللخميون فى مصر ، تحت زعامة أيوب بن برغوث اللخمى . ولما خرج عبدالعزيز بن الوزير الجروى الجذامى على العباسيين (١٩١ — ٢٠٥) وابنه على بعده (٢٠٥ ـ ٢١٦) ، وسيطرا على الساحل المصرى الشمالى كله ، كان سندهما الأكبر من جذام ولخم . ولما أسقط المعتصم العرب من ديوان العطاء ، وغضب لذلك يحيى بن الوزير الجروى فى سنة ٢١٨ هـ لم يؤيده فى ثورته غير جماعة من جذام ولخم .

وكانت الإسكندرية مسرحا لكثير من أحداث تاريخ القبيلتين . فقد كانتا من القبائل التى شاركت فى فتحها ، ثم عادت إلى الفسطاط عندما أبى عليهم عمر بن الخطاب الإقامة فيها . وكانت مجموعة منهما مع المجموعة التى لحقت بعمرو بن حمالة الأزدى الذى بعثه عمرو بن العاص ليتحقق من نبأ قصد الأسطول البيزنطى الإسكندرية . فلما رآهم ابن حمالة أعجب بهم وقال : « تالله ، مارأيت قوما قد سدوا الأفق مثلكم ، وإنكم لكما قال سبحانه : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ فأطلق عليهم اسم اللفيف .

ثم توافد اللخميون والجذاميون على الإسكندرية أفرادا وجماعات، فى تواريخ غير مدونة ، حتى صاروا فى أواخر القرن الثانى أعز العرب بها ، واستولوا عليها فى ثورة عبدالعزيز بن الوزير الجروى ، واستطاعوا أن يجلوا الأندلسيين عنها عندما عاثوا فيها فسادا فى سنة ٢٠٠ ه، فصارت خالصة لهم .

وشرعت القبائل العربية التى استوطنت مصر تألف الحياة المصرية ، وتشارك فيها شيئا فشيئا . فبعد أن كان العربى البدوى يأنف العمل اليدوى من فلاحة وصناعة ، أخذ العربى المصرى لايشعر بغضاضة أو حقارة فى العمل . وأدى ذلك إلى اندماج العرب المستقرين فى الحياة المصرية : من كان منهم فى الريف اشتغل بالأعمال الريفية من زراعة ونحوها ، ومن كان منهم فى المدن احترف الأعمال المدنية من تجارة وصناعة وما إليهما .

الوالدان

من سلالة هاتين القبيلتين المستقرة بالإسكندرية ، والعاملة فيها كان رجل عنى به التاريخ ، التاريخ الأدبى خاصة .

فقد عاش فى إحدى حوارى الظاهرية من ضواحى الإسكندرية رجل من بنى جرّى ، أحد بطون جذام ، أرجح أنه اتخذ الحدادة مهنة ، يكتسب منها ما يقيم عيشه ، ذلك الرجل هو القاسم بن منصور بن عبدالله بن خلف بن عبدالغنى : ولما بلغ هذا العامل سن الزواج اختار لنفسه ، أو اختار أهله له فتاة من بنى فهم ، أحد بطون لخم(١) .

على الجانب الإسكندرى سلام	يكرره منى عليه دوام
ذكرت زمانى فيه، والعيش أخضر	وإذ أنا طفل ، والزمان غلام
ففى الجانب الغربى منه مدافن	وفيهن أجداث على كرام
سقتها دموع الغيث بدءا وعودة	ففيها عظام قد بلين ، عظام
عظام لها أصلان ، فرعهما أنا	وحسبك فهم منهما وجذام

(١) القصيدة رقم ٢٣١ .

الولد

ولسنا ندرى كم ولدا خلف هذا الزواج ، ولكن الذى نعجب له ونعنى به أنه أنجب ولدا ، سمى « ظافرا » ، تفاؤلا بالظفر والفلاح . ولسنا ندرى متى كان هذا الزواج ، ولامتى كان هذا الميلاد[1] . ولكن الشىء الذى أعتقده أنه كان فى خلافة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧) ، ويغلب على ظنى أنه كان فى النصف الثانى من القرن الخامس .

وطبيعى أن ينشأ الابن نشأة أبيه فيشتغل بالحدادة . وقد كان ذلك . ولكن كان معه شىء آخر ، يبدو أنه لم يكن فى الأب ، وإنما هو من صنع الابن وحده . فقد كان ذلك الحداد الصغير مشغوفا بالأدب ، محبا للأدباء يشدو بين وقت وآخر بأبيات من الشعر .

(١) انفرد المقريزى بنسبة ظافر إلى برقة عندما تعرض له فى المقفى ، فقد قال : « البرقى الاسكندرانى » . ولسنا ندرى — على وجه اليقين — أأراد أن يقول إن مولد الشاعر كان ببرقة أم أراد أن أصله منها . وقد مر بنا أن جماعات من جذام ولخم انتشرت بين الاسكندرية وبرقة وأقامت فيهما ، فلا مانع أن تكون أسرته قد اضطرت فى مبدأ أمرها إلى شىء من التنقل بين المنطقتين بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، ثم استقرت فى الاسكندرية . ولم يذكر ظافر برقة أبدا ، بل ذكر صراحة أن قومه الأحياء والأموات فى الاسكندرية ، وأنه كان طفلا بالاسكندرية .

الفصل الثانى

الثغر

كانت الإسكندرية — فى أيام ظافر — رابعة الولايات المصرية من الناحية الإدارية . فقد كانت مصر تنقسم — بعد القاهرة والفسطاط — إلى ولايات أربع : أولاها وأكبرها القوصية التى تضم الصعيد كله ، وثانيتها الشرقية ، وثالثتها الغربية ، ثم الإسكندرية وتشمل البحيرة أيضا(١) .

ولكنها فى الحياة الثقافية كانت تتقدم أختيها الشرقية والغربية ، وتنافس القوصية أوتكاد . فقد كانت الولاية الصعيدية من أكبر مراكز الإشعاع الثقافى فى ذلك الوقت . ونستطيع أن نتمثل ذلك من كتاب « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » لأبى الفضل الأدفوى .

وكانت الإسكندرية تلى القوصية فى العناية الثقافية ، والارتقاء الفكرى والازدهار الأدبى . زارها الرحالة الأندلسى المعروف ابن جبير — بعد الزمن الذى نتحدث عنه بقليل — فأعجب بها وقال عنها(٢) : « ومن مناقب هذا البلد ، ومفاخره . . المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد . يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراء يقوم به فى

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر ١٢٢ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٢٨٩ .

(٢) رحلته ١٠ — ١٢ .

جميع أحواله . . . وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل . فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد، والمقل ما دون ذلك » .

ولما كانت المساجد فى ذلك العهد مدارس للتعليم ، فإن كثرتها تدل على مدى انتشار التعليم فى الإسكندرية . كذلك أدى موقع البلدة إلى أن تكون الموطن الذى لابد أن يمر به — وقد يقيم فيه — كل وافد إلى مصر من الغرب فزخرت بالعلماء من أبنائها ، ومن الوافدين عليها، والمارين بها ، من أمثال أبى النجا بن سند الساعاتى المهندس ، أحد الفلكيين الذين اشتركوا فى إقامة الأرصاد المصرية ،وأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ، أحدالمشتغلين بالفلسفة ، وعلى بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع الصقلى ، ومحمد ابن أبى الفرج الكنانى المعروف بالذكى ، وأبى بكر محمد بن يحيى بن مزاحم الخزرجى ، وعبد الله بن أبى سعيد الأندلسى ، ومحمد بن حميد بن الأرقط الحسينى ، من علماء اللغة والنحو ؛ وأبى طاهر السلفى وأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى الأندلسى ، وأبى الحجاج يوسف بن عبدالعزيز الميورقى ،وأبى عبد الله محمد بن أحمد الرازى المعروف بابن الحطاب (٥٢٥ ﻫ) ، وأبى القاسم بن الفحام الصقلى (٥١٦ ﻫ)، وأبى الحسن القيروانى الحسن بن عبدالله (٥١٤ ﻫ) وأبى محمد عبد المعطى بن مسافر الرشيدى، وأبى الحسين يحيى اللخمى قاضى الإسكندرية ، من المشتغلين بالدراسات الدينية .

وحوت الإسكندرية من الشعراء عددا وفيرا من أبنائها والوافدين عليها أمثال على بن عياد ، ومحمود بن ناصر (٥٢٥ ﻫ) وأبى عبد الله محمد ابن الحمشى (حدود ٥٠٠ﻫ)، وأبى طاهر إسماعيل بن محمد الذى عرف بابن مكنسة (٥١٠) وسليمان بن فياض (٥١٦ ﻫ) وأبى الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى (٥٢٨ ﻫ) وأبى الحسن على بن سعيد المعروف بابن كاتب أسلم (٥١٨ ﻫ) ، وأبى العباس أحمد بن مفرج ، ومجبر بن محمد الصقلى ، وعبد الحميد بن حميد ، وخالد بن سنان ،

وعبد المحسن بن الرقيق ، وأبي الفضل يوسف بن سلمان القرشي ، وأبي الحسن على بن المؤمل المعروف بابن غسان (٥١٥ هـ) ،وأبي الفتح منصور بن إبراهيم بن قتادة المعدل .

وقد أثنى أبو الصلت فى رسالته المصرية على ابن مكنسة ثناء جما ، قال (١) : « وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » .

وقال العماد الأصفهانى عن ابن فياض (٢) : « ذو علم فياض ، وذيل فى العلوم فضفاض ، وشعر كزمان الربيع فى الاعتدال ، ونظم أرق من الشمول والشمال » . وقال عن ابن عياد (٣) : « شاعرا مجيدا طريف الشعر مشهورا » .

وشأن محبى الأدب ، جعل ظافر بن القاسم يتتبع أخبار الأدباء ، ويتحرى مجالسهم ويختلط بهم . فيتبسط معه بعضهم ، ويستمع له ، وينقده مقوما ، ويصده بعضهم نافرا أن يجتمع الشعر والحدادة فى رجل ، وآبيا أن يضم الشاعر والحداد مجلس .

ولم يكن ظافر الشاب الذى تثبط همته سخرية الساخرين أو صدود الصادين . فقد كان حب الشعر يمتلك عليه حواسه جميعا ولا يترك له مجالا لإحساس آخر يزاحم الشعر ويزحزحه . وكان بعيد الهمة ، طموح النفس (٤) :

ولى همة تبغى النجوم ، وحالة	تصحف ما تبغيه ، فهى لها ضد
إذا رفعتنى تلك تخفض هذه	فكل تناهى فى إرادته الجد
فما حال شخص بين هاو وصاعد	وليس له عن واحد منهما بد
توالتنى الأرزاء حتى كأنما	فؤادى لكنى كل لاطمة خد

(١) ٤٣ .
(٢) الخريدة ٢ : ٢٠٠ .
(٣) الخريدة : ٢ : ٤٥ .
(٤) المقطوعة رقم ١٤٣ .

ولم يكن ظافر رجل الأوهام ولا الأحلام ، بل كان يقرن طموحه بعزم راسخ ، وسعي دائب ، وجد صارم ، لتحقيق ما تهفو إليه نفسه[1] :

سأتبع عزمي حيث أم ، وأنتحى وجوه المنايا فى ظهور المخاوف
عسى عزة تنجى من الذل ، أوغنى من الفقر ، أوألقى الردى غير آسف

وآتى هذا الاصرار من ظافر ثمرته ، بعد أن شهدت الأحداث الكثيرة على سرعة بديهته ، وصلاحية شعره المرتجل لظرفه ، وما يتحلى به من دلائل الجودة . فأخذت مجالس الإسكندرية الأدبية تغض النظر عن صناعته ، وتفسح له مكانا بين روادها ، وتطلبه حين يغيب .

روى جامع ديوانه أنه خرج ذات يوم مع جماعة من الأدباء إلى منارة الإسكندرية ، وباتوا هناك ، فأعجبهم منظر المنارة ، وفانوسها المشتعل ، مع منظر القمر ، فقال ظافر[2] :

وليلة من حسان الدهر بت بها بساحل الثغر فى أعلى مناظره

والرجل الذى أمكن التعرف عليه من رواد حلقات الإسكندرية الأدبية ، وأصدقاء ظافر ، هو أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت (٤٧٠–٥٢٨) فقد جمع بينهما حب الأدب ، الذى لم يكن حرفة أحدهما ، فظافر كان يمتهن الحدادة ، وأمية الفلسفة . وألف بينهما الشعور بالغربة فى مجالس الإسكندرية : الغربة النابعة من صناعة أولهما ، ومن نزوح الآخر عن موطنه . فالتقيا على صداقة صادقة ، جمعت بين الرجلين فى مجالس الإسكندرية والقاهرة . وغالبت الأزمة التى تعرض لها أمية وسجن من أجلها ثلاثة أعوام . ولم توهنها عودته إلى المغرب ، فبقيا يتبادلان الرسائل مدة طويلة ، لعلها امتدت إلى وفاتهما . بعث إليه فى واحدة منها يصور ما تمتعا به فى الإسكندرية ويتشوق إليه[3] :

---

(١) ١٧٣ .
(٢) ١١٥ .
(٣) ١٨٠ .

لئن بعدت ما بيننا شقة النوى ... ومطرد طامى الغوارب خفاق
وبيد إذا كلفتها العيس قصرت ... طلائح أنضاها ذميل وإعنـــاق
فعندى لك الود الملازم مثلما ... تلازم أعناق الحمائم أطـــواق
ألا هل لأيامى بك الغر عـــودة ... كعهدى وثغر الثغر أشنب براق

ومنحنا الشاعر اسم صديق آخر ، لم يمكن التعرف عليه ، ولكن ما قاله ظافر يدل على وداد صادق من الطرفين ، وحياة حلوة مارساها معا ، قال لمن سماه أبا الفضل بن محمد(١) :

ولى فى سويدا قلبك الرحب فضلة ... من الود تبقى حين تفنى الودائع
لك الحسنات الغر عندى كأنهـــا ... جواهر فى جيد الزمان لوامـــع
فلا تخش منى عن ودادك نبوة ... فحبك أوفى ما حوته الأضالع
فحمدى لما أوليت يابن محمد ... مقيم على طول المدى متتابع
أبا الفضل ، أنت الفضل ذاتا فإن تكن ... معانى شتى فهى منك طبائع

وأعطانا ظافر كنية صديق آخر فى أبيات بعثها إليه من الفسطاط ، يتشوق فيها إلى الإسكندرية ومنازهها : (٢) :

أبا حسن ، إن فرق الدهر بيننا ... فمن طبعه تفريق ما كان يجمع
ولكننى أطوى الضلوع على الأسى ... ويغلبنى فيض الدموع فيدفع
وقد كنت لا أرضى سوى الوصل دائما ... فها أنا أرضى بالخيال وأقنع

وبعد ما اعترفت مجالس الأدب فى الإسكندرية بظافر ، أخذ اسمه فى الذيوع ، وشعره فى الانتشار ، وشخصه فى الدخول إلى القصور . فاتصل بالكبراء والأعيان فى بلدته ومن وفد عليها من كبراء البلدان الأخرى ، وخاصة العاصمة .

---

(١) ١٥٥ .
(٢) ١٥٣

الفصل الثالث

العاصمة

نشأ ظافر فى الإسكندرية ، وشدا بالشعر حتى صار شاعرا مرموقا ، يعرفه كبار رجال الإسكندرية ، ويحرصون على لقائه وإرضائه . وقد سر فى بادئ أمره بهذا الاعتراف الذى حصل عليه من رجالات بلدته ، ثم مالبث أن شعر أنها ضاقت على موهبته ، وأنه استنفد ما فيها دون أن يستنفد طاقته الشعرية ، وأنها لاتقدم له كل مايطمع فيه ، وأن عليه أن يذهب إلى الفسطاط والقاهرة ليقرع الباب ، ويسعى وراء آمال أخرى . وأخذت هذه النية تتأكد حتى صارت عزما يتلمس الفرص للتحقق . وأخيرا قام ظافر برحلته المأمولة إلى العاصمة . ولكن متى كان ذلك ؟.

لم يتعرض أحد من المؤرخين لذلك التاريخ ولكن الشاعر نفسه أعلن أنه رأى الفسطاط ، واتخذ فيها الأصدقاء ، فى شبابه الغض ، قال(1) :

بمنازل الفسطاط حل فؤادى	فاربع على عرصاتهن وناد
يامصر ، هل عرضت لغصن فوقه	قمر بربعك أوبة لمعاد ؟
واها على تلك الرسوم فإنها	آثار أحبابى وأهل ودادى
فلقد أحن لها ولسن منازلى	وأودها شغفا ولسن بلادى
دمن ليست بها الشباب ، ولمتى	سوداء ترفل فى ثياب حداد
والعيش غض والديار قريبة	وأبيت من أملى على ميعاد

(1) ٦٤ .

ولم يأت ظافر وحده إلى الفسطاط ، بل كان معه فيها صديقه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي . فقد خرجا معا إلى الأهرام ، وراعهما ما رأياه منها . فأنشد هو أبياته التي لقيت إعجابا طائلا (١) :

تأمل هيئة الهرمين وانظر ... وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيـل ... بمحبوبين بينهمـا رقيب
ومـاء النيل تحتهما دموع ... وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب ... تخلف فهو محـزون كئيب

وقال أبو الصلت (٢) :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا ... على طول ما أبصرت من هرمي مصر ؟
أنافا عنانا للسماء وأشرفـا ... على الجو إشراف السماك أو النسر
وقد وافيا نشزا من الأرض عاليا ... كأنهما نهدان قاما على صدر

ولم يستقر ظافر في الفسطاط ويتخذها مقاما له منذ رحلته الأولى لها ، وإنما بقي فيها مدة ثم عاد إلى بلدته الإسكندرية . فهو صريح في أن مجيئه للفسطاط للزيارة المؤقتة وليس للإقامة (٣) :

ياساكني مصر ، أما من رحمة ... لمتيم ذهب الغرام بلبه ؟
أمن المروءة أن يزور بلادكم ... مثلي ، ويرجع معدما من قلبه ؟

ونستبين من شعره أنه لم يذهب إلى الفسطاط مرة واحدة بل كان دائم التردد بين الإسكندرية والفسطاط ، فارتبط قلبه بالمدينتين كلتيهما ، وشعر بالحنين إلى كل منهما كلما بعد عنها (٤) :

---

(١) ٤ .

(٢) أبو الصلت : الرسالة المصرية ٢٦ . ابن ظافر : بدائع البدائه ١٣٦ . المقريزي : الخطط ٢ : ١٩١ . .

(٣) ١٠ .

(٤) ٣٥ . وانظر رقمي ٦٤ ، ١١٩ أيضا .

أحن إلى الفسطاط مالم أكن به حنين طليح الركب بعد ذهابه
وتهفو بقلبي زفرة لو تلبست بصم الصفا لانت متون صلابه
وأسمو لروضى النسيم لعلنى أصادف منه نفحة من ترابه
وأستقبل الركبان من كل وجهة لعل بمصر ذاكرا فى خطابه
وأهجر عذب الماء مع طول غلة إذا لم ينلنى النيل برد شرابه
وتسود فى عينى البلاد تذكرا لخضرة شطيه وبيض قبابه

وتغنى بعودته إلى الفسطاط ، تلك العودة التى اعتدها من حسنات الدهر إليه ، قال :

ولما حبانى الدهر منه بعودة وراجع حظى بعد طول اجتنابه
وهبت لقرب سرنى بنعيمه جناية بعد ساءنى بعقابه

وبعد مدة ، وجد الشاعر أنه لايستطيع أن يقضى عمره كله متنقلا بين الإسكندرية والفسطاط ، وخاصة بعد ماتوطدت مصالحه فى البلدة الأخيرة واتسعت ، وتيقن أنها تقتضى بقاءه فيها . ولم يكن القرار هينا . فقد كان يحب بلدته حبا عميقا لايماثله حب . فكان يداور نفسه ويخاتلها لترضى بهذا العزم(١) :

لا تكل لذة إلى التسويف وانتهزها بالفعل قبل الصروف
فزمان الشباب أشرف من أن ينقضى فى الغموم والتكليف
لا تهن نفسك النفيسة بالبخـ ـل بهون من تالد وطريف
حبذا مصر والجزيرة للمر ء قرارا فى مربع ومصيف
سيما فى زمان دولة شاهنـ ـشاه فى ظل عدله المألوف
والعطايا من فيض كفيه قد عمـ ـمت جميع الأنام بالمعروف [ ]

وأخيرا استقر بالفسطاط . ويمنحنا هو لاغيره أسباب هذا القرار

(١) ٢٧٩ .

النهاني ، الذى كان له أبعد الآثار فى حياته وشعره . فنفى أن يكون السبب كراهية بلدته أو حبه للفسطاط (١):

والله،ما اخترت مصرا عنك عن مقة	وإن غدا العيش لى فيها كما يجب
ولو جرى نيلها لى فضة ، وغدا	سفح المقطم منها وهو لى ذهب
ما اخترتها عوضا ممن نشأت بها	ولا شفى لى منها غلة أرب
جار الزمان على شملى ولا عجب	من ذلك الجور بل إنصافه عجب

وأعلن أن الضرورة هى التى أرغمته عليه(٢):

وسكناى بالفسطاط عز ، وإنما	محل فؤادى فيه أسنى وأشرف
صحبت به عيش الشبيبة خالعا	عذارى، ولم أحفل بلاح يعنف
وأهل وإخوان وبشر وغبطة	وأمن ومحبوب وجاه ومسعف
تخلفت عن تلك الديار ضرورة	وبالرغم منى دونهن التخلف

ولعل العامل الحاسم الذى أخمد الصراع الثائر فى نفسه ، وجاء بقرار الإقامة فى الفسطاط صريحا وأكيدا ، هو ما وقع بينه وبين بعض أهل بلدته ، مما سلبه — برهة — حبه لأهل بلدته ، وأنطقه بما لم ينطق به ثانية عنهم(٣) :

لهفى على الإسكندريـ	ـة كيف يسكنها اللئام
بلد عدمت بها السرو	ر كما بها عدم الكرام
حسنت وقبح أهلها	فضياؤها بهم ظلام

وبالرغم من ذلك لم يخمد الصراع فى نفسه إلا مدة قصيرة ثم ثار أقسى ما تكون الثورة ، واستبد بمشاعره أعم ما يكون الاستبداد . فقال (٤):

إن كانت الإسكندرية قد	شطت فأولتنى نوى قذفا
وسكنت بالفسطاط مغتربا	فلقد كسبت بغربتى شرفا

(١) ٢٩ .
(٢) ٢٧٨ .
(٣) ٢٣٩ .
(٤) ١٦٤ .

ورقيت من مدح الملوك بها　　رتبا أنافت فى العلا كنفا
وكسبت مالا لو يوفره　　جدواى لم أعرف له طرفا
لكن ينازعنى إلى وطنى　　شوق إذا استمهلته عسفا
وأعاف مصر وعيشها رغد　　ويشوقنى وطنى ولو عجفا

وفى واحدة من ثوراته الانفعالية ، أفلت لسان ظافر ، فصرح بالسبب الحق الذى انتقل به من الإسكندرية ، وجلب عليه ما يحس به من شقاء وبؤس[1] :

ومن فارق الأوطان فى طلب الغنى　　فقد نال—لو حاز الغنى— أنكد الفقر

وأبى أن يعقد مقارنة خاسرة بين الفسطاط والإسكندرية ، وأعلن أن المجال مجال مشاعر وانفعالات ، وأن الإقبال والإعراض إنما يكونان لروابط انفعالية تنعقد بين النفس ومناط مشاعرها[2] :

وما الشوق للأوطان من أجل طيبها　　ولا شرف فيها وفضل مقام
ولكنه فى النفس طبع لأجله　　تجادل فى تفضيلها وتحامى
كذا الطفل يبغى الأم مع سوء شخصها　　ويشنا سواها وهى ذات وسام
ومن غربة يبكى الجنين إذا بدا　　وقد كان فى ضيق وفرط ظلام

ولكن متى استقر ظافر فى الفسطاط ؟

إنه هو الذى يؤرخ لنا هذا الحدث . لكنه لم يفعل ذلك فى شعره بل فى نثره . فقد كتب رسالة إلى صديقه أبى الصلت الأندلسى قال فيها[3] : « ولى منذ انتقلت عن الإسكندرية سنتان ، واستقر سكنى بمصر » ؛ وإذن فقد فعل ذلك بعد سفر أبى الصلت . فمتى كان هذا السفر . ذكر ابن خلكان[4] أن أمية وفد على مصر فى سنة ٤٨٩هـ وغادرها فى سنة ٥٠٦هـ. ولكن ابن أبى أصيبعة[5] ذكر أن مجيئه إلى مصر كان فى حدود سنة ٥١٠هـ.

---

(١) ١١١ .
(٢) ٢٣٤ .
(٣) ٢٩٣ .
(٤) وفيات الأعيان ١ : ٨٠ .
(٥) طبقات الأطباء ٢ : ٥٣ ، ٥٦ . .

ولكن مدح أمية للأفضل فى سنة ٤٩٢هـ(١) يدحض قول ابن أبى أصيبعة ، ويدعم قول ابن خلكان . ونخرج من هذا بأن ظافرا استقر فى الفسطاط بعد سنة ٥٠٦هـ . وإذا تذكرنا أنه قال فى رسالته انقضى على ذلك سنتان كان لنا أن نستنبط أنه اتخذ من الفسطاط دارا بعد سنة ٥٠٨ هـ .

نضيف إلى ذلك أن الحافظ أبا طاهر السلفى ورد إلى الإسكندرية فى سنة ٥١١هـ(٢) ولم يغادرها — إلا إلى الفسطاط — إلى أن مات . وقد أعلن أبوطاهر أنه التقى بظافر وأخذ عنه بعض شعره فى الإسكندرية والفسطاط ، قال : «أنشدنى أبى المنصور . . بمصر لنفسه . . وقد كتب لى من شعره غير قصيدة ، وكتبت أنا عنه أيضا بخطى بمصر ، وقبل ذلك بالإسكندرية مقطعات وقصائد » . فإذا كان كلام أبى طاهر يعنى أنه أخذ ما أخذ من شعر ظافر بالإسكندرية قبل استيطانه الفسطاط كانت النتيجة الطبيعية أن ذلك الاستيطان كان بعد مجىء أبى طاهر إلى الثغر ، أى بعد سنة ٥١١هـ .

---

(١) د . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ٢٢٩ .
(٢) ابن خلكان : الوفيات ١ : ٣١ .

الفصل الرابع

بين الحدادة والثغر

استدللنا من خبر القاضى أبى عبد الله الآمدى والأمير السعيد أن ظافرا كان فى صباه يشتغل بالحدادة فى الإسكندرية، وأن الحداد لقبه هو . وقد حاول بعض الكتاب أن يربط بين هذه الصناعة وبعض الظواهر التى تجلت فى شعر ظافر ، ذاهبا إلى أنها من الرواسب التى خلفتها صنعته فى مخيلته .

قال عبد العليم القبانى (١) : « والحق أن شاعرنا كانت تستهويه أدوات صناعته ، فيجد فيها المجال الخصيب لشاعريته المتفتحة تطوف بها، وتستخرج منها كثيرا من الصور الأخاذة التى كان قد كلف بإبرازها . إننا نرى الكانون فى كل وقت ، وبخاصة فى أيام الشتاء، ونراه كذلك عند الحدادين فى المدينة والقرية ، فهل ترى أثار فينا ما أثاره عند ظافر حين يتأنق فى وصفه فيقول(٢) :

كأن سواد الفحم من فوق جمره ... وقد جمعا فاستحسن الضد بالضد
غدائر خود فرقتها وقد غدت ... على خفر من تحتها حمرة الخد
فلما تناهى صبغه خلت أنه ... فصوص عقيق أو جنى زهر الورد
إلى أن حكى بعد الخمود رماده ... غبارا من الكافور فى قطع الند

---

(١) مع الشعراء أصحاب الحرف ١٧ .
(٢) ٦٦ .

وهكذا ظل ظافر يتغنى بأدوات صناعته ، سارحا بخياله فى الصور التى يولدها من تفاعل حركاتها » ..

وبالرغم من وجاهة هذا الكلام ، تبقى وجاهة نظرية ، لأننا نجد كثيرا من شعراء هذا العصر وما بعده ، ممن لم يكونوا حدادين أو أصحاب حرف ، يتحدثون عن الكوانين وأمثالها . ويتخذون من الفحم والجمر وما شابهها صورا رائعة . وأقرب الأمثلة على ذلك ما قاله ابن وكيع التنيسى(١) :

فحم شبه الغـــلام وأدنى   فى كوانينه حيــاة النفوس
كان كالآبنوس غير محلى   فغدا وهو مذهب الآبنوس
القى النار فى ثياب حــداد   فــكسته مصبغات عــروس

وإذا تركنا هذا الخبر جانبا ، لم نجد خبرا آخر عن حياة ظافر ، وما تقلب عليه من أحوال . ولذلك لا يبقى بين أيدينا غير وسيلة وحيدة ، نعتمد عليها فى تصوير هذه الحياة ، وهى شعره . وهى وسيلة خطرة ، تزلق فيها الأقدام ، لأن الصور التى نستخرجها صور شعرية ، أى صور فنية ، ويمكن ألا تسجل واقع حياته تسجيلا أمينا ، بل المرجح أنها لا تفعل ذلك ولم تقصد إليه . ولكننى أعتقد أن هذه الصور الفنية منها ما يمكن الاعتماد عليه اعتمادا كاملا ، ومنها ما يمكن استيحاؤه .

فنحن مطمئنون إلى أنه كان يسكن أطراف الظاهرية من ضـــواحى الإسكندرية (٢) :

فظهر الظاهرية لى مقام   تخب بنا إلى دده الركاب

ولعلنا نستطيع الاطمئنان إلى أن الرجل كان رب أسرة من عشرة أفراد ، كما قال يخاطب ابن أبى شجاع (٣) :

فلى عيلة عشر ، وجارى خمسة   وباطن أحــوالى بذاك قبيح
وأحوالهم فى فرط عسر وضيقة   وليس لهم إلا نداك مريــح

---

(١) ديوانه ٨٠ .
(٢) ٢٧ . وانظر ١٣٠ ، ١٥٤ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨ .
(٣) ٦١ .

ولم تذكر الأخبار أحدا من هذه العشر ، فى حياة ظافر أو بعدها . ولكننا قد نطمئن إلى أنه كنى بأكبر أبنائه ، الذى دعته المراجع منصورا ، غير ابن ميسر(١) الذى سماه نصرا ..

ونطمئن أيضا أن ظافرا كان أحد الشعراء الذين قرر لهم راتب أول تعرفه ببنى أبى شجاع بقدر بخمسة مثاقيل . فقصر عن حاجاته وشكا ضآلته فزيد إلى أن صار فى وزارة أبى عبد الله المأمون خمسة عشر مثقالا . ولكن شكوى الرجل لم تنقطع على الرغم أن أولاده لم يزد عددهم ، قال يخاطب المأمون(٢) :

مولاى ، قد أوليت عبدك نعمة	فله عليك بها ثناء سرمد
والآن قد أضحت حواشى حاله	هدبا فلا ترفى ولا هى تعقد
فكأننى بعض الملائكة التى	لا تغتذى ، وكأن بيتى مسجد
وتكاثر الأطفال فاق تجلدى	لكننى كم قدر ما أتجلد
فكأننا لبكائهم فى مأتم	طول الزمان وما لنا من نفقد
وتعذر الجارى أضر بحالهم	وأضر بى وهو القليل الأنكد
هو خمسة ، عدد يصح ثلاثة	لكنهم عشر تتم وأزيد
وتكافؤ العددين عندك دين	لو شئته ما كان أمرا يبعد
فاقصد مسرتهم. فتلك غنيمة	فثناؤها وثوابها لا ينفد

ونحن — إذا تركنا مشكلة الراتب — وتتبعنا الصور التى رسمها ظافر لحياته وجدناها غير متناسقة بل تتناقض أحيانا . فبينا نراها فى قصائد صورا فرحة مشرقة نجدها فى قصائد أخرى مكتئبة حزينة ، سواء كان يتحدث عن حياته فى الإسكندرية أو القاهرة ..

(١) أخبار مصر ٧٩ .
(٢) ٨٤ .

قال من قصيدة له ، لم أستطع أن أؤرخها لأنها كلها في الشكوى(١) :

مالى وللحادثات الصم تطرقني حتى كأني لمحذوراتها هدف
تعطى الذى لا يواتيني ، فإن أخذت منى فما ليس لى من بعده خلف
ألومها وهى لا تصغى لمعتبة أخدعة أم جنون ذاك أم صلف ؟
أرى الزمان يعادى كل ذى أدب ياليت شعرى : ألؤم منه أم خرف ؟

ولكنني أرجح أنه نظمها فى الإسكندرية لأنه يشكو فيها الفقر ويرى أنه لا يخلصه منه إلا رحلة تأتيه بأمانيه أو تأتى على نفسه :

عيش الفتى تحت ذل الفقر منزلة لا يستقر عليها من له أنف
لأركبن بعزمى كل مهلكة إما غنى ترتضيه النفس أو تلف
من لم يبن لم يبن ، فانهض تجد سببا لا قدر للدر لما حازه الصدف

وقد استجاب لهذا الرأى الذى ارتآه ، و « فارق الأوطان فى طلب الغنى » كما اعترف فى بيت سبق أن أوردته .

وقال فى رسالة له إلى صديقه أبى الصلت الأندلسى (٢) : « وأنا أنزه علمه عن أمورى وضيقتها ، وأحوالى وكيفيتها ، فأنا بين همة ترقى ، وحال تشقى ، فتلك فى الصعود ، وهذه فى الصعيد ...

صحبت بنات الدهر حتى أريننى عجائب شتى ليس يحصرها العد
فنعمتها بؤس ، وفرحتها أسى وصحتها سقم ، وإعطاؤها رد
تفيد أخا الجهل الغنى وهو وادع وذو الفهم دون القوت يتحفه الكد »

ولكن الرجل الذى رسم هذه الصورة البائسة المتشائمة لما يطرأ على حياته من أحداث هو الرجل الذى رسم أروع الصور الوضاءة لحياته فى الإسكندرية . فعل ذلك فى الصور الصغيرة التى أسبغ فيها على هذه الحياة صفة واحدة ، أورنا إليها رنوة خاطفة سريعة فلم تقع عينه إلا على جانب

(١) ١٦٨ .
(٢) ١٣٩ - ١٤٣ .

صغير ، كما قال(١) :

ليال كأوساط اللآلى ، فسلكها يفصل باللذات فينا وينظم

وقال(٢) :

والعيش مخضر الجناب أنيقه ولأوجه اللذات فيه بروز

وفعله فى الصور التى اتسعت أمام عينيه فرأتا عدة مناظر تشتهيها ، فسجلها آونة فى ضربات سريعة من فرجونه(٣) :

فكم فيه لى من غدوة وعشية صفا العيش لى فيهن كيف أريد؟

شباب وأحباب وعيش كأنه أمير على الأيام وهى جنود

وتأتى آونة أخرى فسجلها مفصلة(٤) :

واها على ذلك العيش الذى ذهبت أيامه فيك بين اللهو والطرب

وللشبيبة شيطان يساعدنى على الهوى ويواتينى على أربى

فإن دعانى الهوى لبيت دعوته وإن دعانى لسان العتب لم أجب

أجر ذيل غرامى غير مكترث بالحادثات ولا باك على النوب

أمسى وأصبح طورا فى بلهنية حول المسرات فيها جل مكتسبى

ولكننا حين نمعن النظر فى هذه الصور البراقة يأخذ مايبدو بينها وبين الصور القاتمة السابقة فى الزوال حتى يتوارى . فالصور الأولى تتحدث عن الحالة المادية للرجل ، وهذه تتحدث عن الحالة الروحية أو الانفعالية . يتحدث فى الصور الأولى عن النكبات والأزمات التى ضيقت الخناق عليه ويتحدث فى الثانية عن أوقات المسرة واللذة التى قضاها بين أصدقاء وأحباب فى رياض وبساتين ، ولايتحدث فيها عن غنى أو رخاء بال . ويتحدث فى الأولى وهو لايزال يعانيها ويعيشها . أما الثانية فيتحدث عنها

---

(١) ٢٢٨ .

(٢) ١٢٥ .

(٣) ٨٥ .

(٤) ٢٥ .

بعد أن انقضت بل يئس فى كثير منها من العودة إليها ولو زائرا محتليا لمشاهدها . فهى ذكريات يغلفها البعد والماضى بسحره ، وخاصة إذا ارتبطت بزمن الشباب والحب ، فيحجب أتراحها ويبرز أفراحها(١) :

صحبت به عيش الشبيبة خالعا عذارى، ولم أحفل بلاح يعنف
وأهل وإخوان وبشر وغبطة وأمن ومحبوب وجاه ومسعف

وهو يتحدث فى صوره الأولى واعيا لها ، بينما يتحدث عن صوره الثانية ، وقد لفه الشوق إلى الإسكندرية، وتملكه حبه وحنينه وأساه ويأسه، فجعله شبه حالم لايرى إلا أطياف الجمال(٢) :

زمان كطيف زار وازور وشك ما تصافح جفنا مغرم وهو ناعس

وإذن فالصورة الحقيقية لظافر فى الإسكندرية صورة شباب أغرم بالأدب ، واختلط بالأدباء فكان له فيهم نعم الأصدقاء ، يخرجون إلى الرياض ، ويتنقلون بين مجالى الجمال، وتهفو قلوبهم إلى الحب،ويسمرون بالمشاعر الرقيقة ، ويحلقون وراء الخيال . ولـكن واقعه كان يثقله ، ويضعف جناحيه فى التحليق ، وينغص عليه ما ينعم به فى لحظات النسيان ، ويرده إلى حقيقة قاسية ، مالبثت أن نزعته من أصدقائه وأحبابه ،وألقت به فى الفسطاط ، فى مجتمع جديد عليه ،لم يرتبط به منذ الصبى والشباب .

وتتناقص الصور التى رسمها ظافر لحياته فى الفسطاط فى ظاهرها أيضا . فقد ذكر أنه لقى فيها الحياة اللائقة ، التى يجب أن تكون عليها المعيشة ، فهو يشعر أن ماقضاه فى الإسكندرية ليس بحياة(٣) :

والله ،ما اخترت مصرا عنك عن مقة وإن غدا العيش لى فيها كما يجب

وذكر أنه لقى الشرف والغنى اللذين كان ينشدهما ، وغادر موطنه من أجلهما(٤) :

---

(١) ٢٧٨ . ويلفت النظر فى البيت الثانى أن الشاعر يتحدث فيه عن أمنه وجاهه بالإسكندرية ،وأعتقد أنه أراد بذلك مكانته بين أصدقائه ، ولم يرد المدلول العام للكلمتين، لأن ذلك توفر له بالفسطاط أكثر منه بالإسكندرية .

(٢) ١٣٠ . (٣) ٢٩ . (٤) ١٦٤ .

وسكنت بالفسطاط مغتربا فلقد كسبت بغربتى شرفا
ورقيت من مدح الملوك بهـــا رتبا أنافت فى العلا كنفا
وكسبت مالا لو يوفره جدواى لم أعرف له طرفا

ونال العز الذى افتقده فى مسقط رأسه ، وإن كان قلبه يأبى الاعتراف بذلك ، ويرى أن عزه بالإسكندرية(١) :

وسكناى بالفسطاط عز ، وإنما محل فؤادى فيه أسنى وأشرف

وخص بالثناء أيام الأفضل ، التى يبدو أن الشاعر وجد فى ظلالها مالم يجده فى عهد آخر من طمأنينة ومتعة ، فتغنى بها فى تعميم شمل كل من عاش فى ذلك العهد(٢) :

جلت محاسنها عما تضاف له مستغنيات عن المثنى وإن دربا
لو لم تجد شاعرا فى الأرض ينظمها عجزا لأنشد فيها الحق واختطبا
حكت لنا العيش فى أيام دولته لطيبه ، كلما كررته عذبا

ولكنه من جهة أخرى شكا قلة الراتب فى الفسطاط ، حتى فى وزارة المأمون . أى فى أواخر حياته ، وتحدث عن بيته الخالى من المأكل . وعن أطفاله الجوعى ، ورسم لهم صورة رائعة . وأعلن أن الزمن انتقم منه فأخذ يتلاعب به(٣) :

لعبت بالزمن الماضى فخلفنى من بعده فى زمان ظل يلعب بى

وأنه قصده بالمصائب ، يرميه بواحدة بعد أخرى ، قد تختلف فى النوع والاتجاه ولكنها لا تختلف فى الأذى ، ولا يترك فرجة بينها يستريح الشاعر فيها ، بل إنه أخذ يجد شيئا من الراحة فى هذا البؤس نفسه ، إذ ألفته نفسه ، واعتاده فكره(٤) :

---

(١) ٢٧٨ .
(٢) ٣٣ .
(٣) ٢٥ .
(٤) ١٨٢ .

مالى وللدهر لايصح له عهد وعقد عندى ولا موثق
ترمى فؤادى أيدى حوادثه بأسهم عن قسيها ترشق
مأوى لما دب من مصائبها وغاص تحت البحار أو حلق
ينتابنى من جيوشها أمم إذا مضى فيلق أتى فيلق
فرقت منها حتى أنست بها مع التمادى فصرت لا أفرق

والشاعر صادق كل الصدق فى الصورتين اللتين رسمهما لحياته فى الفسطاط . فالصورة المختالة تمثل الواقع المادى له ، حين التقى بكبار رجال الدولة ، وعاش فى قصورهم ، وقدم له المتصلون به والعارفون له مراسم الاحترام ، فوجد الغنى ، وشعر بطيب العيش، وظن ذلك هو العز والشرف.

وتمثل الصورة التعسة واقعه الشعورى ، الذى عاشه فى الفترات التى أحس فيها بالغربة ، وجاشت مشاعره ، فأخذت مظاهر الحياة فى الفسطاط تنزوى أمام عينيه وتبهت حتى توارت ، وشرعت تبزغ من وراء حجب الغموض صور الإسكندرية ، يجللها الماضى ، ويجملها الشغف ، ويلفها الشوق برداء ساحر من الحسن والرواء . فتطبق الوحشة بقبضتها الغليظة على الرجل لاترحمه ، وتهفو نفسه إلى الراحة المفقودة : إسكندرية الشباب الضائع . وألحت هذه الصور على الشاعر إلحاحا لاأناة فيه ، فى الفترات التى اضطربت به الأحوال فى الفسطاط ، ونكبت من وضع فيهم آماله من ممدوحيه ، أو أبعدت بينه وبين قلوبهم وجيوبهم . وكادت تلزمه فى شيخوخته، إذ شعر بدنو الأجل ، والحرمان من التملى بالماضى ، والابتعاد عن ثرى الأجداد ، والغربة فى الحياة والممات .

وإذن فالصورة الحقة لظافر فى الفسطاط صورة الشاعر الذى يرحب به القصور الفاخرة ، وتغدق عليه العطاء ، ولكنه يحس أنه — مهما بلغ — أقل مما يجدر به ، ومما يقوم بأعباء حياته الجديدة ، ويرى أن شكوى

الحاجة — فى مدائحه — تجلب له مزيدا من المال . ويرضى عقل هذا الشاعر عن حياته ويطمئن ، ولكن قلبه يتمرد عليه بين آن وآخر ، ويذيقه آلام البؤس العاطفى ، إذ يعيش فى عالم من المظاهر ، والمجاملات الرسمية ، التى لاتحمل إخلاصا ، ولا تكن مودة ، كان يتمتع بهما فى بلدته دون حد . ولا تهدأ الآلام بانقضاء الزمن ، بل يستفحل الشعور بالتعاسة ، لطول الأمد بين الرجل ومجالى غبطته ، وطعنه فى السن .

الفصل الخامس

أعيان الخلافتين الآمرية والحافظية

١ ـ القضاة

كان منصب القضاء من أهم المناصب في الدولة الإسلامية ، وكان القاضي ذا مرتبة لايعلوها إلا قليلون ، يشترط فيه شروط كثيرة ليكون أهلا لمنصبه . وفي العصر الفاطمي ، كانوا ينصبون قاضيا لقضاة الدولة كلها يقيم في الفسطاط أو القاهرة ، وينوب عنه قضاة نواب في الأقاليم المختلفة . وكانت الدولة تحاول جاهدة أن تبعد القضاة عن الإغراء حتى يعدلوا في أحكامهم فخصصت لهم الرواتب الكبيرة . بلغ راتب قاضي القضاة ١٢٠٠ دينار سنويا عن القضاء . ثم كانت تضاف إليه أعمال أخرى كالمظالم وبيت المال والقصص ، فيتقاضى عنها رواتب أخرى(١) ، مما أدى إلى ضخامة ماكان يتقاضى ، حتى قال ناصرخسرو(٢) : « ويتقاضى قاضي القضاة ألفي دينار مغربي في الشهر ، ومرتب كل قاض على قدر مرتبته ، وذلك حتى لايطمع القضاة في أموال الناس أويظلمونهم » . وقال المقدسي عن المصريين (٣) : « قاضيهم أبدا خطير » .

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر ١٩٨ — ٢٧١ .
(٢) سفرنامه ٦٥ .
(٣) أحسن التقاسيم ١٩٨ .

واحتفلت الدولة بتنصيب قاضى القضاة احتفالا خاصا ، يماثل احتفالها بتنصيب غيره من كبار رجالها . فكان يخلع عليه فى قصر الخليفة ، فى حضرة الأمراء والكبراء . ثم يتوجه إلى جمع من الشهود والناس إلى المسجد الجامع على بغلة مسرجة ، وبين يديه أخريان وخلع من تحف الثياب فى مناديل بلغت عدتها أحيانا سبعة عشر ، وقد تقلد سيفا . فيقرأ سجل تنصيبه ، بعد صلاة الجمعة غالبا ، وهو قائم على قدميه . فإذا ما انتهى انصرف إلى داره ، فركب إليه جماعة الشهود والأمناء والتجار ووجوه البلد لايتأخر عنه أحد منهم .

وكانت خلعته من الصوف الأبيض ، تحت رداء أخضر متسع ، تنسج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان .

إذا كانت هذه منزلة قاضى القضاة عند الدولة الفاطمية ، فلا شك أن شيئا منها كان يصل إلى نوابهم بالأقاليم المختلفة . فإن وجود قاضى القضاة بالعاصمة ركز عليه الأضواء ، ولفت إليه أنظار الناس ، فسجلوا ماشاهدوه منه وعنه . أما نوابه فلم يجدوا مثل هذا الاعتناء والتسجيل ، فغاب عنا كثير من أسمائهم وأخبارهم بل الأكثر الأعم ، ولم يصل إلينا إلا ما تساقط فى مناسبات كان لها أهميتها . ولكننا مطمئنون إلى أن قضاة الأقاليم كانوا من كبار رجال الدولة فى النواحى التى يتقلدون مناصبها ، من كبارهم مكانة وراتبا . ولأدل على ذلك مما يحكى عن ثروة قاضى الإسكندرية ابن حديد(1) .

فلا غرابة إذن أن يطمع الشاعر الإسكندرى فى الاتصال بواحد من كبار رجال الدولة فى بلدته : إن لم يكن الأمير فالقاضى . وقد اتصل ظافر فعلا بقاض فثان فثالث . وتساقطت إلينا أخبار قليلة عن هذه الصلات ، وعن الرجال الذين اتصل بهم فبقيت الظلمات تخفى وراءها حقيقة هذه الصلات ، ومجالها ، وزمانها ، حتى أنه تعذر على التعرف على تسلسلها .

---

(1) المقرى : نفح الطيب ٦٥٥ .

ابن أبى عقيل

أول قاض أتحدث عنه القاضى الأعز أبو المكارم أحمد بن عين الدولة عبد الرحمن ابن محمد المعروف بابن أبى عقيل ، الذى ولى قضاء القضاة فى مصر فى سنة ٥٣١ هـ ، ومات فى ٥٣٣ هـ . ويبدو أنه كان من المحبين للأدب ، المعاشرين للأدباء ، المترددين على مجالسهم ، حتى أنه لما مات رثوه (١) . فتم اللقاء بينه وبين ظافر فى بعض هذه المجالس وتعدد .

يروى جامع ديوان ظافر أنه خرج فى عشية أحد الأيام ، مع جماعة فيهم القاضى أبو المكارم ، فوصلوا إلى الخليج (ترعة المحمودية الآن) ، وقد تدلت من النخيل ثمار صفراء وحمراء ، وغطى الأرض الحشيش الأخضر ، وهب النسيم يداعب بلمساته الخفيفة وجه الماء . فأخذ القوم بجمال المنظر ، وشرع ظافر يترنم (٢) :

وعشية أهدت لعينك منظرا ... قدم السرور به لقلبك وافدا

روض كمخضر العذار ، وجدول ... نقشت عليه يد النسيم مباردا

والنخل كالهيف الحسان تزينت ... فلبسن من أثمارهن قلائدا

ولا إشارة أخرى فى الديوان للقاضى أبى المكارم .

ابن حديد

أما القاضى الثانى فلدينا بعض المعلومات التى تجلو لنا بعض جوانب العلاقة بينهما وتحدد تاريخها . وهذا القاضى هو مكين الدولة أبو طالب أحمد ابن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكنانى (٤٦٢ — ٥٢٨) ، تولى قضاء الإسكندرية فى هزة اجتاحت البلاد ، وأدت إلى انقسام أتباع المذهب الفاطمى إلى فرقتين متنافرتين وبقى قاضيا عليها إلى وفاته (٣) .

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٨٠ .

(٢) ٦٨ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ٣٧ ، ٧٧ .

فما إن اطمأن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى الوزارة بعد وفاة أبيه فى سنة ٤٨٧ هـ ، حتى وقع الخليفة المستنصر مريضا . فأراد أن يأخذ البيعة لابنه الأكبر وولى عهده أبى منصور نزار . فخاف الأفضل على مكانه لأنه كان يعرف يقينا أنه لايحبه . فأخذ يماطل الخليفة ويدافعه إلى أن مات . فاجتمع الأفضل بالأمراء وكبار رجال الدولة وأثار مخاوفهم من نزار ، وأوعز إليهم أن يولوا أخاه أبا القاسم أحمد . فعارضه محمود بن مصال اللكى ، وكان نزار قد مناه بالوزارة . ولكن الأفضل لم يعبأ بمعارضته ، وبايع الأخ الصغير ولقبه المستعلى بالله . وأخذ البيعة له من أخويه إسماعيل وعبد الله . وأخذ قاضى القضاة على بن نافع الكحال البيعة من كبار رجال الدولة .

فلما رأى نزار الخلافة تفلت من يده ، لجأ إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله ، ونصيره ابن مصال ، فتلقاه واليها ناصر الدين أفتكين التركى . ورحب به ، وأخذ البيعة له من أهل الاسكندرية ، ولقبه المصطفى لدين الله . وناصر الوالى فى هذه الحركة قاضى الإسكندرية أبو عبدالله محمد بن عمار .

فلما علم الأفضل بذلك خرج لقتال نزار ولكنه لم يحرز عليه نصرا . فعاد إلى القاهرة . واستعد بجيش كثيف ، ونجح فى استمالة بعض أتباع نزار من البدو . وحينذاك خرج إلى الإسكندرية وأحكم حصارها . فعرف القوم أنهم لاقبل لهم بهذا الجيش . فجمع ابن مصال ماله وفر إلى الغرب . أما نزار وبقية أتباعه فى الإسكندرية فاضطروا إلى طلب الأمان ، فأعطاهم الأفضل إياه . ولكن هذا الأمان لم يستمر طويلا . فقد وضع نزار بين حائطين وبنى عليه فمات حبيسهما ، وقتل أفتكين والى الإسكندرية ، ولم يكن قاضيها أسعد منهما حظا فقد اعتقل مدة ثم قتل . ولذلك انقسمت الدعوة الفاطمية إلى مستعلية ونزارية .

وولى الأفضل مكين الدولة ابن حديد قاضيا على الإسكندرية ، وبالغ فى إكرامه وإكرام أهل بيته . وكان ذلك القاضى ذا مروءة عظيمة ، وجود

واسع ، يحتذى البرامكة فيما يقول المقرى . فالتف حوله الشعراء يتقربون إليه بالمدائح ، وعلى رأسهم الصديقان ظافر وأبو الصلت أمية (١) .

وبالرغم من ذلك لا يحتوى الديوان إلا على قصيدة قصيرة واحدة فى مدح القاضى ، قالها الشاعر يهنئه بدخول رمضان ، وفقا لعادتهم حينذاك(٢) :

شهر الصيام بك المهنـــا إذ كان يشبه منك فنا

ما سار حولا كامـــلا إلا ليسرق منك معنى

وينال منك كمـــا ننا ل ، ويستفيد كما استفدنا

فرأى محلك من محـــل ل هلالـــه أعلى وأسنى

بهرت محاسنك الورى فأعادت الفصحاء لكنا

فإذا مدحناك احتقـــر نا ما نقول وإن أجدنا

وإذا كان أبو طالب بن حديد يكنى أيضا « أبا حسن » ، كما ورد فى خبر عند ابن ميسر (٣) ، فغير بعيد أن يكون هو الرجل الذى بعث إليه ظافر أبياته العينية التى أوردتها آنفا ، ويصف فيها حاله بعد مغادرة الإسكندرية . وإذا صح لنا هذا ، كانت العلاقة بين الرجلين قد استمرت طويلا ولم تنقطع بنزوح الشاعر عن بلدته .

أبو عبد الله الآمدى

ولم أجد أخبارا عن القاضى الثالث . ولا يضم الديوان أية إشارة إليه . ولكنه ورد فى خبر يدل على أنه كان الرجل الذى عرف به والى الإسكندرية . ذلك الرجل هو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسين الآمدى .

---

(١) المقريزى : الخطط ٣ : ٢٩٥ . المقرى : نفح الطيب ٦٥٥ . وقال ابن ميسر ٧٧ : « ورثى بعدة قصائد » . .

(٢) ٢٥٣ .

(٣) أخبار مصر ٣٧ .

٢ ـ الأمراء والقواد

السعيد

يبدو أن علاقة ظافر بالقضاة أدت إلى تعرفه بالولاة . فنحن — وإن كنا لانعرف تواريخ صلاته بمن اتصل بهم من القضاة وغيرهم — لدينا خبر يدل على أن أحد القضاة هو الذى جاء بالشاعر إلى الأمير السعيد عز الأمة محمود بن ظفر (١) ، من ولاة الإسكندرية ، الذين لم نستطع العثور على الزمن الذى تولاها فيه ، وإن كنا نعرف أنه عين واليا على قوص بعد ذلك ، ومات فى سنة ٥١٦ ﻫ .

قيل : « ذكر القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن الحسين الآمدى — النائب كان فى الحكم بالإسكندرية — قال : دخلت على الأمير السعيد بن ظفر فى أيام ولايته بالثغر ، فوجدته يقطر دهنا على خنصره . فسألته عن سببه ، فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه . فقلت له : الرأى قطع حلقته قبل أن يتفاقم الأمر فيه . فقال : اختر من يصلح لذلك . فاستدعيت أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد . فقطع الحلقة وأنشد بديها(٢) :

قصر فى أوصافك العـالم ... واكثر الناثر والنـاظم
من يكن البحر لـه راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسنه الأمير ووهبه الحلقة ، وكانت من ذهب . وكان بين يدى الأمير غزال مستأنس قد ربض وجعل رأسه فى حجره ، فقال ظافر (٣) :

عجبت لجرأة هذا الغزال ... وأمر تخطى لـه واعتمـد
وأعجب به إذ أتى جاثما ... فكيف اطمأن وأنت الأسد ؟

فزاد الأمير والحاضرون فى الاستحسان . وتأمل ظافر شباكا على باب

---

(١) كذا فى الوفيات ١ : ٤٣٣ — ٤ . وفى تاريخ ابن ميسر : ظفر . وفى البدائع : مظفر .

(٢) ٢٤١ .

(٣) ٨٩ .

المجلس تمنع الطير من دخوله ، فقال(١) :

رأيت ببابك هذا المنيف   شباكا فداخلني بعض شك
وفكرت فيما رأى خاطرى   فقلت : البحار مكان الشبك

(ثم انصرف وتركنا متعجبين من حسن بديهته) » .

وكان لهذا الإعجاب أثره المحتوم. فقداستمرت الصلة بين الأمير والشاعر ، لمدة لاندرى مداها ، ولكن ندرى فقط أنها خلفت فى الديوان قصيدة واحدة فى مدح الأمير مطلعها(٢) :

لو كان هجرك يبقيني إلى أمد   لما عدمت اصطبارى عنك أو جلدى

وقد كشف الشاعر أنه ينظم القصيدة والأمير وال على الإسكندرية :

أضحى بفضلك ثغر الثغر مبتسما   يزهو من العدل فى أثوابه الجدد
ثغر تجمع خير الأرض فيه كما   جمعت من كل فضل كل منفرد

وأبان أيضا أنه ينظمها فى أواخر عهده بالشباب وأوائله بالمشيب :

ظننت أن شبابى سوف يعطفها   هذى الشبيبة قد ولت ولم تعد
ما بيضت لمتى إلا وقد علمت   أنى أعد سواد الشعر من عددى
لا تحسبى شيب رأسى كان من كبر   لكنه فيض ما استودعته فى كبدى

ابن نجيب الدولة

لست أدرى : هل اتصل ظافر بالأمير السعيد وحده من ولاة الإسكندرية أو اتصل بغيره من ولاتها . فنحن لا نعرف أسماء كل الولاة الذين عاصرهم ، ولا نعرف حقيقة كل الرجال الذين مدحهم فى ديوانه .

ولكنه قال عن أحد هؤلاء المجهولين(٣) :

نجابة من نجيب الدولة اجتمعت   فليس يعدم تصديقا ملقبه

---

(١) ٢٨٠ .
(٢) ٧٦ .
(٣) ٤٩ .

ولم أعثر على من يحمل هذا اللقب من البارزين فى عصر ظافر غير على بن إبراهيم ابن نجيب الدولة ، الذى بعثه الخليفة الآمر إلى اليمن فى سنة ٥١٣ ه، ليعين السيدة الحرة ملكة اليمن ، التى اشتد النزاع فيها بين النزارية والمستعلية من الشيعة ، ولكنه خرج على الخليفة الآمر وانحاز إلى النزارية أعدائه فغضب عليه وطلب إلى السيدة الحرة أن تقبض عليه وتبعثه إلى مصر . ففعلت ؛ واعتقله الآمر مدة قتله بعدها وصلبه ، هو ووزيره المأمون بن البطائحى ، وصالح ابن العفيف ، فى سنة ٥٢٢ ه(١) ..

وقال ظافر فى مدحه للرجل :

أضحت بعدلك أرض الشرق مشرقة ثم انجلى عن ظلام الليل غيهبه

ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا فهمنا من هذا البيت أن الرجل كان واليا على الشرقية ، وخاصة أن ظافرا أعلن أنه اضطر إلى الرحيل عن بلده ليلتقى به وينال عطاءه :

وما تركت بلادى مع رغبيتها إلا وجودك بالإحسان يوجبه

فإذا صحت لنا النتيجتان ، خلصنا بأن ظافرا اتصل بولاة الشرقية وأنه نظم قصيدته التى ذكرنا بيتين منها قبل رحيله إلى اليمن .

البطائحيان

لم تقتصر صلة ظافر على الولاة بل تعداهم إلى القواد ، بل إن ذلك ليس تعديا لأن الولاة أنفسهم كانوا من القواد ، لأن العنصر العسكرى كان الغالب على الخلافة الفاطمية منذ تولى أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة .

ونعرف من القواد الذين اتصل بهم أخوين ، هما أبو عبد الله محمد وأبو تراب حيدرة ابنا نور الدولة أبى شجاع فاتك بن منجد الدولة مختار البطائحى . وكان محمد أكبر رجال الوزير الأفضل مكانة وأعظمهم شأنا .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب حين نظن أن ظافرا اتصل أولا بأبى البركات

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ٦٩ — ٧١ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٢٤٧ .

محمد بن محمد بن صالح بن عثمان، وكيل أبي عبدالله محمد بن البطائحي(١).
ويضم ديوان ظافر قصيدتين ومقطوعتين ، تبين أن العلاقة بين الرجلين كانت طيبة ، وأنهما كانا يخرجان للتنزه فى الفسطاط وضواحيها القريبة والبعيدة ، فينظم ظافر الشعر فيما تقع عليه عيناه من مناظر جميلة(٢) :

لله أيــامى بقليــوب والعيش مخضر الجلابيب
والطير فى الأغصان فتانة ما بين تلحين وتطريب
والشمس فى المغرب مصفرة كعاشق من بعــد محبوب
وجلنــار بين أغصــانه يبــدى أفانين الأعاجيب
كزعفران لاح فى لاذة حمراء فى راحة مخضوب

ونستبين من الشعر أن هذه العلاقة كانت فى عهد الخليفة الآمر (٤٩٥–٥٢٤) أو كانت قبله واستمرت فيه ، قال(٣) :

لم تر عينى منظرا مثله ماء تلظى فوقه جمــر
تهنا به زهوا كما تزدهى بالآمر الأحكام والأمــر

وأعلن ظافر أنه عندما تعرف بأبى البركات كان فى ضيق من عيشه، يتقلب بين أزمة وأخرى ، ففرج أبو البركات ضيقه ، ووقاه الأزمات(٤):

أتيته وصروف الدهر تعرقنى عضا ، وأحسبها أسدا وغيلانا
فكف كف عواديها وأمننى منها ، وصير لى فى ظله شانا

وكشف فى قصيدته الأخرى أن ذلك قد تم فى الفسطاط بعيدا عن بلدته ، قال(٥) :

أنا من أجال الدهر فيه صروفه فاختصنى بالصعب من نكباته

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ٦٢ . المقريزى : الخطط ٢ : ٣٥٢ .
(٢) ١٣ .
(٣) ١٠٣ .
(٤) ٢٥٢ ، وانظر ٥٠ أيضا .
(٥) ٥٠ .

وتحيف الحدثان قص جناحه لوجود غربته وفقد ثقاته
فلجا إلى حرم ابن عثمان الذى لبت له الآمال من ميقاته

وقدم أبو البركات ظافرا إلى أبي عبدالله وأبي تراب . ولعل ذلك ما عناه الشاعر بقوله لأبي عبد الله[1] :

وقد حثني فى قصدك الحزم والحجى ومن رأيه فيما يشير صـواب

ويضم ديوان ظافر عدة قصائد فى مدح أبي عبد الله ، وأقل منها فى مدح أخيه أبي تراب . ونستدل من واحدة أنها نظمت فى خلافة المستعلى (٤٨٧–٤٩٥) لأنه قال فيها[2] :

أأرجو سمى المصطفى وابن عمه لحادثة عمت وأنت نصيح ؟

ولم يسم باسم النبي – صلى الله عليه وسلم – من خلفاء هذه الفترة غير أبي القاسم أحمد المستعلى بالله . كذلك نستدل من إشارته إلى الصلة بين بنى أبي شجاع والأفضل ، وفضله عليهم ، ومدحه ، فى أربع من قصائده فى أبي عبد الله ، وواحدة فى أبي تراب ، نستدل من ذلك أنها نظمت فى حياة الأفضل ، إبان كان الرجلان من القواد . وربما نستنتج من شكوى الشاعر سوء حاله فى بعضها ، وتوالى الأحداث عليه ، أنه لم يكن قد اتصل بالأفضل بعد . قال[3] :

إليك أشكو زمانا ظل حادثه يعدو على حظى الواهى وينتقم
وقد تمادى على ظلمى ، وأنت له مولى ، وجودك فيما بيننا حكم

ابو محمد الأسامى

يضم ديوان ظافر قصيدة فى مدح شخص لم أستطع تبين حقيقته على وجه قاطع بعد . ولكن القصيدة نفسها ذكرت اسم هذا الرجل ، وأبانت

---

(١) ٤٧ .
(٢) ٦١ .
(٣) ٢٣٥ .

أن نظمها كان فى الفسطاط ، لأن القسط الأكبر منها خصصه الشاعر للتشوق إلى بلدته . قال(١) :

لكن تعوضت بالشيخ الأجل أبي محمد خير أوطان وخير أب
فـــرع منيف أسامى له ثمـــر من جوده تجتنيه الكف من كثب

وقد تتبعت ما أضفاه ظافر على « الشيخ الأجل أبى محمد الأسامى » من صفات عسى أن أصل إلى حقيقة الرجل وعمله ، فلم تهدنى ، لأنها صفات عامة تتألف من الفضل والجود والحياء والجاه والكمال .

ولكن يغلب على ظنى أن تفصيل هذا الاسم هو أبو محمد بن أبى أسامة ، وأن هذا الممدوح أحد أفراد آل أبى أسامة الذين اشتغلوا بالكتابة للخلفاء الفاطميين ، وتولوا ديوان الإنشاء(٢) ، أو كتابة الدست الشريف كما كانت تسمى حينئذ ، وخاصة أن « الشيخ الأجل » كان من ألقاب صاحب الديوان لأنه كان أجل كتاب البلاغة ، وله الإشراف على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة ، ومن ديوانه يصدر كل أمر جلل(٣) .

٣ ـ الوزراء

الأفضل :

فى أواخر عهد المستنصر وقع انقلاب وزارى بتولى العسكريين أو رجال السيف منصب الوزارة ، فجعلوها وزارة تفويض . وسلبوا الخليفة الفاطمى سلطته ، واستأثروا هم بكل السلطات ، تاركين له المظاهر الاسمية فقط . وبعد أن كان بقاء الوزير فى مركزه يتوقف على رضا الخليفة ، أصبح فى قدرة الوزير تعيين الخليفة الفاطمى وعزله ، كما فعل الأفضل مع نزار والمستعلى .

وكان من الوزراء من يكتب اسمه على العملة مع الخليفة(٤) ، ويشاركه

(١) ٢٥ .
(٢) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١ : ١٤٢ ـ ٣ .
(٣) مشرفة : نظم الحكم بمصر ١٢٧ .
(٤) د. مشرفة : نظم الحكم بمصر ١١٣ .

فى كتابة اسمه فى الطراز ، فمثلا[1]« ثبت اسم ونعت الأفضل وزير الآمر بأحكام الله على طراز ما يعمل فى أعمال المملكة من الملابس والفرش والآنية » ، بل بلغ الأمر إلى أن أمر الآمر بأن يدعى لوزيره على المنابر بهذه العبارة[2] : « اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته وارتضاه، وانتخبه لتدبير أحوال مملكته واجتباه » .

وأول وزير اتصل به ظافر هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى (٤٨٧ — ٥١٥) . وقد رأينا هذا الوزير يضطر إلى الذهاب إلى الإسكندرية فى مطلع تقلده الوزارة ومحاربتها لإخماد ثورة نزار فيها . وعندما حاز النجاح فى مقصده غير كبار موظفيها الذين ناصروا نزارا . ولا شك أنه أقام فى الإسكندرية بعض الوقت ، ولعل جماعة من شعرائها اتصلوا به وقدموا له أهازيجهم فى هذه المناسبة . ولكن ديوان ظافر لا يحتوى على أى دليل يؤيد لنا أنه فعل ذلك .

كذلك نعرف أن صديق ظافر : أبا الصلت الأندلسى اتصل بالأفضل، ومدحه واعتذر عن هزيمته فى عسقلان فى سنة ٤٩٢هـ[3] ، ولكننا لم نعثر على ما يجعلنا نميل إلى أن ظافرا شارك صديقه هذا العمل .

والتاريخ الوحيد الذى وصلت إليه فى العلاقة بين الرجلين هو سنة ٥٠١ هـ . فقد بنى الأفضل فى هذه السنة الدار الفخمة التى نقل إليها دواوين الحكومة[4] .

وكان من الشعراء الذين هنئوه بتشييدها ظافر ، الذى نجد فى ديوانه عدة مقطوعات ، نرجح أنه نظمها فى هذه المناسبة ، قال فى واحدة منها[5] :

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ٥٢ . زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١١٨ . مشرفة : نظم الحكم بمصر ١١٣ .

(٢) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ٦٣ . مشرفة : نظم الحكم بمصر ١٠٩ .

(٣) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ٢٢٩ .

(٤) مشرفة : نظم الحكم بمصر ١٢٥ .

(٥) ٤٨ . وانظر رقمى ٨٦ ، ٨٧ .

يا ناظرا يعجب مما رأى ... غير الذى تبصره أعجب

قد رفع الله لمن شادها ... منزلة من دونها الكوكب

عامرة بالشكر مأنوسة ... بالحمد لا تفنى ولا تخرب

ويدل تعدد هذه المقطوعات على أن ظافرا كان على صلة وثيقة بالأفضل، وأن هذه الصلة كانت أقدم من هذا التاريخ . وإذن فظافر قد اتصل بالوزير قبل أن ينتقل من الإسكندرية ويتخذ الفسطاط مقرا له . ويؤكد لنا هذه النتيجة ما نجده فى مدائحه له . فكثير من هذه المدائح لم يتحدث فيها عن حنينه إلى الإسكندرية ، وتشوقه إلى استعادة حياته المنقضية فيها(١) ، وقليل منها هو الذى عبر فيه عن ذلك(٢) ..

ومنحنا ظافر اسم الرجل الذى وصل بينه وبين الوزير فى قوله لأبى البركات محمد بن محمد بن صالح بن عثمان(٣) :

قد كنت عند فضيل الأفضل السبب الـ ... أوفى فكن باب سعدى عند مولانا

فإن أصل فهى عادات عرفت بها ... أولا فلم تبق للإحسان إمكانا

اتصل ظافر بالوزير الأفضل ، الذى جمع حوله من الشعراء أكثر مما جمع الخلفاء الفاطميون ، وقدموا إليه من المدائح أكثر مما قدموا اليهم . فجعل مؤرخى الأدب يطلقون على هؤلاء الشعراء اسم « شعراء الأفضل » ، ويعدون عهده من أزهى العصور الأدبية التى شاهدتها مصر الإسلامية(٤) .

وطار ظافر فرحا ، إذ أذن الأفضل له بلقائه ومدحه ، واعتقد أن أمانيه على وشك التحقق ، فتغنى فى قصيدته الأولى فى الأفضل(٥) :

---

(١) ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ١١٢ – ٤ ، ١٢١ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٦٦ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ – ١ .

(٢) ٣١ ، ٣٤ .

(٣) ٢٥٢ .

(٤) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ١٧٩ .

(٥) ٧٧ .

فيا نفس ، هذا أول العهد بالعلا ويا حظ ، هذا الوعد أن سأسود
وهذا المقام الأشرف الأمجد الذى له كنت أسعى جاهدا وأرود
وهذا الجناب الأفضلى يكننى ذرى ظله ، إنى إذن لسعيد

ويقفنا الشاعر على أن هذا اللقاء الأول كان فى الفسطاط لا الإسكندرية، فيقول :

فيا دهر ، مهلا ما بقى فى مطمع لحـــادثة تنتـــاشنى فتـــؤود
ألست بدار الملك وهى التى بها لمـــالك رق المالـــكين خلود

فقرر له راتبا مع من قرر لهم من الشعراء . ووصف المقريزى طريقة تسلمهم إياها ، فقال عن ابن الطوير (١) :

« ديوان الرواتب : ويشتمل على أسماء كل مرتزق ، وجار ، وجارية، وفيه كاتب أصيل بطراحة ، وفيه من المعينين والمبيضين نحو عشرة أنفس ، والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمر ، ومباشرة من استجد ، وموت من مات ، ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم . وفى هذا الديوان عدة عروض .. العرض الرابع : يشتمل على المستقر لقاضى القضاة ومن يلى قاضى القضاة مائة دينار .. . وللشعراء من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير » ..

وكان طبيعيا أن قرر للشاعر الحد الأدنى من رواتب الشعراء ، ولكنه لم يكن عشرة دنانير بل كان خمسة فقط . فلم يرض عنه ، وجأر بالشكوى مرة بعد أخرى ، متعللا بأنه لا يقوم بأود من يقوم على أمرهم من الأولاد(٢) :

فلى عيلة عشر ، وجارى خمسة وباطن أحوالى بذاك قبيح
وأحوالهم فى فرط عسر وضيقة وليس لهـــم إلا نداك مريـــح
وفضلك إن ساو الحسابين إنها لعاداتك اللاتى بهن تريـــح

---

(١) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٤٢ .
(٢) ٦١ .

وازدادت الصلة بين ظافر والأفضل رسوخا ، واتسع مجالها . وقرب الشاعر من قلب الوزير وقصره . فصار يوجه إليه المدحة فى كل مناسبة أو موسم من المواسم التى احتفل الفاطميون بها ، مثل الأعياد ورأس السنة الهجرية ، ودخول شهرى رمضان ورجب . بل كان يوجه إليه فى المناسبة الواحدة أكثر من قصيدة ، كما فعل عندما بنى داره ، وعندما زوج ابنه المرتضى (١) ..

ولا شك أن هذه القصائد كانت تجلب له الهبات ، غير الراتب الذى يتسلمه ظافر من الديوان . فأخذ ضيقه ينفرج ، وفقره يخلى المكان للثراء، ويشعر بالعزة والرضا . فخلا شعره من الشكوى من سوء أحواله ، وقلة راتبه ، بل كادت مدائحه للأفضل تخلو من التشوق إلى الإسكندرية .

ولكن الدنيا أدبرت عن راعيه الوزير الأفضل نفسه . فقد ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة الآمر سوءا لا صلاح معه . ورأى الخليفة أن يتخلص من الوزير . ولما كان يعلم أنه لا يستطيع ذلك علانية ، فقد لجأ إلى الحيلة والغيلة. فتآمر عليه مع جماعة أوعز إليهم أن يتحينوا الفرص لاغتياله . وقد تمكنوا من ذلك فى يوم عيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ ..

المأمون

واختار الخليفة للوزارة أكبر رجال الأفضل : المأمون أبا عبد الله محمد ابن نور الدولة أبى شجاع فاتك بن منجد الدولة مختار البطائحى ، وأفاض عليه الألقاب «السيد الأجل ، المأمون ، تاج الخلافة : عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين (٢) .. » . ولسنا ندرى أفعل الخليفة ذلك ليكافئه على اشتراكه فى مؤامرة التخلص من الأفضل ، كما يقول المؤرخون ، أم ليتظاهر أن لا صلة بينه وبين مقتل الأفضل ، ويتجنب غضب بقية رجاله وأتباعه عليه ؟

---

(١) ١١٣ - ٤ ، ١٣١ .

(٢) ابن منجب ٦٢ .

ومهما تكن الحقيقة ، فالانقلاب لم يكن له صدى خطير على ظافر ، لأنه كان على صلة قديمة بالمأمون ، فجددها وحرص عليها وحاول أن يكون منه ما كان من الأفضل . فانتهز الفرص لمدحه والإشادة بمآثره . ولا شك أنه كان أحد الذين عناهم ابن ميسر بقوله(١) : « ودخل الشعراء على طبقاتهم ، وأنشد كل واحد منهم ما سمحت به قريحته » . فقال متغنيا بما نال المأمون من تشريف(٢) :

إن الخلافة ما اصطفتك لنفسها ... حتى اختبرت لكل أمر يحمد
فاشتقت الألقاب فيك لأنها ... وصف جميل فى صفات توجد
فدعتك بالمـأمون وهى جبلة ... ممـا يثبتهـا لديك المـولد
تاج الخلافة وهو تاج فضائل ... تقضى الجواهر دونه والعسجد
فخر الصنائع أى فخر صبغه ... أبدا على طول المدى يتجدد
وإذا وجيه الملك قيل فإنه ... وجه له من كل فضل مسعد
نعم الذخيرة أنت للأمر الذى ... ينحو أمـير المؤمنين ويقصد

ولكن نغمة قديمة ـ كانت قد اختفت من شعر ظافر ـ ظهرت عليه مرة أخرى ، تلك نغمة الشكوى من الراتب الضئيل :

مولاى قد أوليت عبدك نعمة ... فله عليك بهـا ثناء سرمد
والآن قد أضحت حواشى حاله ... هدبا فلا ترفى ولا هى تعقد
فكأننى بعض الملائكة التى ... لا تغتذى وكأن بيتى مسجد
وتكاثر الأطفال فاق تجلدى ... لـكننى كم قدر ما أتجـلد
فكأننـا لبكـائهم فى مأتم ... طول الزمان وما لنا من نفقد
وتعذر الجارى أضر بحالهم ... وأضر بى وهو القليل الأنكد
هم خمسة عدد يصح ثلاثة ... لـكن هم عشر تتم وأزيد
وتكافؤ العددين عنـدك هين ... لو شئته ما كان أمرا يبعـد

(١) أخبار مصر ٦٢ .
(٢) ٨٤ .

فاقصد مسرتهم فتلك غنيمة   فثناؤها وثوابهـا لا ينفـد
قد وجهوني قاصدين وأيقنوا   أن سوف يفعلها الأجل محمد

وغريب أننا لا نعثر في ديوان ظافر إلا على قصيدتين اثنتين وجههما إلى المـأمون في وزارته . ولا ندرى هل سبب ذلك ضياع قصائده فيه من الديوان أو سببه أن الشاعر لم يكن على صلة وطيدة بالوزير فلم ينظم فيه غيرهاتين القصيدتين وبعض المقطوعات التي لم أستطع تحديد زمنها أو السبب قصر المدة التي تولى فيها الرجل الوزارة ، إذا ما قورنت بسلفه فسرعان ما ضاق الخليفة الآمر به ، وخاصة عندما سمع أنه يتآمر عليه مع أخيه جعفر ، وقبض عليه وعلى إخوته وأهله وخواصه ، واستولى على أموالهم في رمضان من سنة ٥١٩ هـ ، ثم قتله في رجب من سنة ٥٢٢ هـ .

ومهما يكن الأمر ، فإنني أعتقد أن البطائحي هو الذي أنحى عليه ظافر بالذم والتقريع في مدحته التي نظمها في الآمر بمناسبة العيد ، وقال فيها (١) :

يا أرفع الخلفاء قدرا ، يا إما   م الحق ، دعوة صادق في قيله
إن الذي أهلتنـا لمـديحه   ورفعته في الملك بعد نزوله
وأشعت في الثقلين موقع ذكره   فجرت به الأفواه بعد خموله
أوليته نعما تعـاظم قدرها   شرفا فقابلهـا بفرط عـلوله
نال الثريا في ذراك فحظه   تحت الثرى الأقصى طلاب فضوله
وجعلته كالشمس ما بين الورى   وفعاله تقضى بوشك أفوله
فاغتر بالرأى الذي أودى به   وأصاره لقيـوده وكبـوله
ومطامع الآمال تخدع ذا النهى   وتعيد عالم عصره كجهوله
فالله ناصر من أطاعك صادقا   ومبيده بالذل عند نـكوله

---

(١) ٢١٢ .

فاقتران القصيدة بالعيد يجعل المعنىّ بهذا القول أحد اثنين : الأفضل والمأمون اللذين نكبا فى العيد أو قريبا منه . ولكن وصف ظافر للرجل بأن غفلته أوقعته فى القيود ينطبق على المأمون الذى اعتقل قبل أن يقتل، ولا ينطبق على الأفضل الذى قتل غيلة . وتؤكد ذلك بقية الأوصاف التى أسبغها على الرجل .

الأكمل

أبى الخليفة الآمر أن يتخذ وزيرا ، بعد اعتقال المأمون البطائحى، لما عانى منه ومن الأفضل ، وانفرد بالسلطة كلها . ولكنه كان قبيح السيرة ، مبالغا فى الظلم . وترصد له مترصدون حتى تمكنوا من قتله فى سنة ٥٢٤ هـ . فعين عبد المجيد بن محمد المستنصر وصيا على الخلافة .

وكان كثير من الجند ما زالوا يحتفظون بولائهم لآل الجيوشى ، وحبهم لهم ، فانتهزوا الفرصة وأخرجوا أبا على أحمد بن الأفضل من السجن الذى اعتقله فيه الآمر ، ونصبوه وزيرا ، لقب بالأكمل . فلم يستطع عبد المجيد المعارضة .

ولكن أبا على الأكمل لم يكن إسماعيليا كالفاطميين ، بل كان إماميا لا يعترف بخلافتهم . فقطع ذكر عبد المجيد من الخطبة ، وخطب للمهدى المنتظر ، وأراد أن يسير معه سيرة أبيه مع الآمر ، وأضفى على نفسه عدة ألقاب مثل (١) « مالك أصحاب الدول ، والحامى عن حوزة الدين ، وناشر جناح العدل على المسلمين ، الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره ، أمين الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده

---

(١) ابن ميسر ٤ أخبار مصر ٧٥ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥ : ٢٣٨ .

... »فكرهه الفاطميون وخافه عبدالمجيد. وجرى الأكمل على منهاج أبيه فى حب العدل . وأعاد إلى الناس ما أخذ من أموالهم وأملاكهم فنقم عليه الأمراء والقواد وحسدوه . وتآمرت عليه القوى المختلفة حتى تمكنت من اغتياله فى سنة ٥٢٦ هـ .

وكان أبو على الأكمل آخر وزير اتصل به ظافر . وطبيعى أن الصلة بين الرجلين كانت قديمة ، منذ وزارة الأفضل . فالمرتضى هو الولد الذى مدحه الشاعر ومدح أباه وهنأه عند زواجه بأكثر من قصيدة .

ولم أجد فى ديوان ظافر غير قصيدة واحدة مدح فيها أبا على ، بعد توليه الوزارة ، قال فيها(١) :

وحقك ، يا ثانى الأفضلين	يمينا ترى برة لا غموسا
لقد سستما الملك فى العالمين	وأعجزتما ملكا أن يسوسا
أعــد جيوشك للمشرقين	وللمغربين لكيما تجـوسا

ولعل قصر المدة التى ولى فيها الرجل الوزارة هى السبب فى قلة المدائح. فإذا صح لنا ذلك كان لنا أن نشك فى قول المقريزى الذى يفهم منه أنه أكثر من مدح الأكمل ، قال (٢) : «كان كثير الاختصاص بأبى على ابن الأفضل فنوه به لما وزر ، وله فيه قصائد عديدة » . وإن لم يكن الأمر كذلك كانت قصائده فيه قد سقطت من نسخ الديوان وبقية المراجع التى بين أيدينا .

وبعد ما تخلص عبدالمجيد من خصمه أعلن نفسه خليفة شرعيا على مصر، وتلقب بالحافظ واستوزر مملوكه أبا الفتح يانس الرومى . ولكنه مات ميتة مريبة بعد تسعة أشهر وأيام . وآلت الوزارة إلى حسن بن الحافظ . ويخلو الديوان من ذكر الرجلين ، بل يخلو من ذكر أى وزير بعد ذلك .

(١) ٢٧٤ . (٢) المقفى ٢٠ .

٤ ــ الخلفاء

الآمر

عاصر ظافر أربعة خلفاء : المستنصر بالله أبا تميم معد بن على (٤٢٧ ــ ٤٨٧) ، وابنه المستعلى بالله أبا القاسم أحمد (٤٨٧ ــ ٤٩٥) ، وابنه الآمر بأحكام الله أبا على منصور (٤٩٥ ــ ٥٢٤) ، والحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر (٥٢٤ ــ ٥٤٤) .

ولايضم ديوان ظافر قصائد فى مدح الخليفتين الأولين ، مما يدل على أنه لم يكن على صلة بهما ، وإن رجحت اتصاله ببعض آل أبى شجاع البطائحى فى عهد ثانيهما .

وكان الآمر الخليفة الذى اتصل به ظافر اتصالا وثيقا ، وطويل الأمد، ترك طابعه على شعره ، وأنتج من القصائد أكثر مما أنتجت صلة الشاعر بخليفته الحافظ . ولم يكن كل ما أنتجه فى مدح الخليفة ، بل أنتج نوعا آخر من الشعر يمكن أن نطلق عليه « شعر الطرف والتحف » . فقد بلغ من ترف الفاطميين أن تأنقوا فى حياتهم ، وطلبوا الجمال فيما استخدموا من أدوات . وكان الشعر من وسائل التجميل عندهم ، كما كان عند العباسيين فى بغداد . فدونوا البيتين والأبيات منه على ما رغبوا فى تجميله وزخرفته من أشياء . فكان الآمر يطلب إلى ظافر أن ينظم مثل هذا الشعر ، كما فعل عند بناء بستان البغل فى ظاهر القاهرة ، الذى قال فيه (١) :

انظر إلى المجلس الأعلى وما جمعت ... فيه سعادة مولانا من الملح
جاءت به حكم الصناع معجزة الـ ... ـدنيا فأصبح فيها خير مقترح

وعثرت على بعض الإشارات فى شعر ظافر ، حاولت أن أعتمد عليها فى تاريخ صلته بالآمر . فعرضتها على ما عندنا من كتب تؤرخ له ولعهده

(١) ٥٧ .

فلم أجد فيها شيئا منها أستطيع الاعتماد عليه ، فقد نظم إحدى مدائحه بمناسبة شفاء الخليفة من مرض ألم به ، وخيف عليه منه (١) :

تباشرت المـــدائح والقـــوافى   مـــذ اتصلت بمولانـــا العوافى
وهـــذبت الخواطر كل معنى   كما راقت معتقة الســـلاف
وبردت المسرة كل قلب   يحرق بالأسى حلل الشغاف
ومهدت المضاجع بعد فكر   حشاها بالأسنة والأشـــافى
وأشرق نور وجهك عند خوف   بهم مثل خـــافية الغـــداف
فراق العيش واحلولى ، وكنا   نجرعه أجاجـــا غير صـــاف

وتحدث فى قصيدة أخرى عن ثورة قام بها بنوسنبس ، من بطون طيىء ، فأخمدها الخليفة وفتك بالقائمين فتكا ذريعا(٢) :

لقد غادرت آثار عزمك سنبسا   نذيرا لمن قد غره الجمع والحشد
ولما طغى شيطانها وتأكدت   بذاك عليها حجة ما لهـــا رد
خرقت بأطراف القنا فى قلوبها   مسالك حتى ليس يسكنها الحقد
فقد شكرت آثار سيفك فيهم   قشاعم تتلوها محلحلة عقـــد
فمن عاش منهم بالفرار فإنمـــا   حسامك موت فوقه حيث مايغدو
لقد كان فى أفياء عدلك مرتع   لهم فيه—لو لم يغدروا—عيشة رغد
وفى العدل إصلاح الخليقة كلها   ولكن به من بينها يفسد الوغد
ولو لم تغثهم رحمة نبوية   توارثها منكم عن الوالد الولد
لما عاش من أحياء سنبس واحد   ولو عاش أفنى عمره القيد والقد

وإذا كان من اليسير أن يغفل المؤرخون عن مرض الآمر فلا يقيده أحد فى كتبه ، فغريب أن تفلت منهم أخبار هذه الثورة التى لم يفطن إليها وينبه عليها أحد منهم ، فضاع علينا تاريخها . وبالرغم من ذلك ، أميل إلى أن نيران هذه الثورة قد اندلعت ، فى العهد الأخير من خلافة الآمر ، ذلك العهد الذى انفرد فيه بالسلطة ، واضطلع بأعباء الحكم كلها . فلو كانت

---

(١) ١٧٠ .

(٢) ٨٣ .

قد وقعت قبل ذلك لقام بالقضاء عليها الأفضل أو المأمون ، ولورد لها ذكر فى شعر ظافر لها ٠

والإشارة الوحيدة التى أمكن تأريخها فى مدائح ظافر للآمر تلك التى ذكر فيها الرجل الذى اصطنعه الخليفة ولكنه كفر نعمته وانقلب عليه ٠ فعاقبه الآمر بالاعتقال والأغلال ٠ وقد رجحت أنه عنى بها الوزير المأمون، فتكون القصيدة من نظم سنة ٥١٩ ﻫ ٠ فإذا صحت لنا النتيجة السابقة ، وهذه النتيجة ، كان لنا الحق أن نذهب إلى أن أكثر شعر ظافر من إنتاج هذا العهد الأخير فى حياة الخليفة ، ولم يوجد فيه وزير يحجبه عن الناس وتدبير شئونهم ، فيحرمه من مدائح شعرائهم ٠

وقد كانت غبطة ظافر بالمثول بين يدى الآمر ابنشده أول قصائده فيه مماثلة لغبطته بالمثول بين يدى الأفضل بل فاقتها . فرقص قلبه طربا وظن ذلك أسمى ما يطلبه الطالب ، وتهفو اليه النفس ، وأنشد(١) :

هذا الإمام أمامى حاضر بادى	فاليوم أشرف أيامى وأعيادى
هذا مقام سما عن كل مرتبة	تسمو لها فى المعالى نفس مرتاد
كم لى أسوف آمالى وأمطلها	فاليوم وفيتها أضعاف ميعاد
ها غرة الآمر المنصور مشرقة	فى الدست يبهج بها مدحى وإنشادى
كأنه الشمس لا تخفى محاسنها	عن حاضر من جميع الناس أو باد

ووقف ظافر من الآمر موقفه من الأفضل، ينتهز المواسم المختلفة كالأعياد وحلول شهر رمضان ، وما يحدث من احتفالات رائعة ، ليقدم مدائحه .

الحـــافظ

ولقى الآمر مادبره للأفضل : حتفا مثيلا بحتفه ، وغيلة كغيلته، ودما ضائعا بين النزارية والأفضلية، إن صح لنا أن نطلق هذه التسمية على غلمان الأفضل وأتباعه وأنصاره .

وإذا كان للأفضل أولاد ألقى بهم فى غياهب السجون فإن الآمر لم يخلف ولدا كبيرا لنرى ما يصنع القدر به ، وإنما خلف جنينا فى ظلمات بطن

---

(١) ٧٩ .

أمه أو خلف طفلا صغيرا . فأقيم عبد المجيد بن محمد وصيا عليه . وقلد أبو على أحمد بن الأفضل الوزارة .

واختلف المؤرخون فيما جرى على ولد الآمر . وقتل الأكمل فى سنة ٥٢٦ ، فتخلص عبد المجيد بن محمد من العوائق التى تحول بينه وبين الخلافة ، فأعلن نفسه خليفة شرعيا باسم الحافظ لدين الله ، متغاضيا عن كونه ابن عم الآمر لا ابنه ، ومهدرا مبدءا من أهم مبادئ الشيعة فى الخلافة ، لأنهم يرون وجوب النص على الإمامة .

ولا يضم ديوان ظافر فى الحافظ غير قصيدتين ، قال أولاهما بعد تبوئه مقعد الخلافة ، وحاول الدفاع فيها عن أحقيته فيها ، وشرعية توليه إياها ، مسويا بينه وبين الإمام على بن أبى طالب ، الذى يرى الشيعة أنه وريث النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلافة (١) :

إن الخلافة لم تزل عن أصلها ... بل أصبحت فى ملك ناظم شملها
صارت إلى من لو حواها غيره ... ما كان مضطلعا بأيسر ثقلها
إن الهناء لها برتبة وصله ... ضعف الهناء له برتبة وصلها
إن القلوب تألفت واستسلمت ... طوعا إليك بعلمها لا جهلها
والحق أبلج ، والضرورة شاهد ... بقضية تقضى العقول بعدلها
ورث ابن عم محمد من بعده ... حق الخلافة منصفا فى نقلها
وورثت أنت عن ابن عمك حقها ... فجرى قياس خلافة فى شكلها
والله ، ما اختارتك إلا بعد ما ... وجدتك أولى وارث من نسلها

ونظم القصيدة الثانية فى أواخر شهر رجب (٢) :

ها قد مضى رجب وودع وجهك الـ ... باقى وقد هنى به شعبانا

وأعلن أن الخليفة اتخذ وليا لعهده ، وهنأه بهذه المناسبة ، ومدحه :

وبدت كواكبك المنيرة فى العلا ... والبدر يملأ ناظرا وعيانا
ودعوته بولى عهدك فاغتدى ... قلب العدو يكابد الخفقانا

(١) ٢١٨ .
(٢) ٢٦١ .

واستسلمت صيد الملوك وأيقنت إن لم تطعه أطاعت الخرصانا
لازلت أصلا وهو فرع يستقى منك الحياة ومنكما سقيانا
حتى يعم الأرض ملككما فلا يبقى عليها موضع ما دانا

وعلى الرغم من اضطراب هذه الفترة لما نشب بين أبناء الخليفة المتعددين من نزاع ، فذكر جماعة أن النزاع كان بين سليمان وحسن ، وآخرون أنه كان بين حيدرة وحسن ، على الرغم من ذلك فإننى أميل إلى أن القصيدة تتفق مع ما ذكره ابن ميسر فى أحداث سنة ٥٢٨ هـ ، حين قال :

« فى شعبان كانت حرب بين أبى تراب حيدرة بن الخليفة الحافظ وبين أخيه حسن طالت واشتدت . . . وسبب ذلك أن الحافظ جعل ابنه حيدرة ولى العهد من بعده ، فلم يرض أخوه حسن بذلك . فكانت بينهما الحروب المذكورة » . فالتواريخ المذكورة هنا وفى القصيدة تدل على أن الحافظ منح حيدرة ولاية العهد فى رجب ٥٢٨ ، وهنأه الشعراء ، ولكن أخاه الحسن حسده وأخذ يجمع أنصاره ويعبىء قواه ، فوقعت المعارك بينهما فى شعبان .

ولا ذكر لأى خليفة بعد الحافظ فى شعر ظافر ، بل لا ذكر له فى غير القصيدتين مما يدل على أن الشاعر لم ير من عهده إلا فترة قصيرة ، وأنه لم يعاصر من بعده من الخلفاء .

***

الفصل السادس

أخلاقه وطباعه

لم يتحدث أحد من الذين أرخوا لظافر عن أخلاقه وطباعه حديثا ما ، ولكننا نستطيع أن نستوحى شعره صورة تستوى أمامنا لرجل مصرى كريم . وقد يخامرنا الشك فى هذه الصورة : كلها أو أجزاء منها ، فليس كل الناس ولا كل الشعراء صادقا فيما يخلعه على نفسه من صفات ، وصفات التكريم خاصة . ولكننا — مع بعض الحيطة — نستطيع أن نجمع ما فى شعر ظافر من دلالات ، وننظمه ، ونستخرج منه الصفات التى تحلى بها أو كان يظن أنه متحل بها . وهذا الظن وحده كاف لدينا ، لأنه يعطينا بعض ملامح الشخص الذى نعنى به .

ويمنحنا شعر الرجل فئتين من الصفات : فئـة حميدة ، خلعها على نفسه ، وفئة ذميمة ، خلعها عنها . ونستطيع أن نرى فى الفئـة الحميدة مجموعات تلتقى حول خصلة واحدة أو تصدر عن منبع واحد . وأرى أن المنابع عنده ثلاثة :

فالمنبع الأول التقوى(١) :

والحب يأمر والصبابة بالذى عنه المروءة والتقى تنهانا

(١) ٢٦١ .

ويتجلى من البيتين التقوى هي المنبع الذى تصدر عنه العفة ، أوهى الخصلة التى أكثر ظافر من التغنى بها(١) :

أبصرت ثم هويت ثم كتمت ما ألقى ، ولم يعلم بذاك مناجى
ووصلت ثم قدرت ثم عففت مع شرق تناهى بى إلى الإنضاج

ولكن الصور التى رسمها ظافر لعفته تختلف من قصيدة لأخرى : حقا إنه لم يطرحها كل الطرح — فيما يبدو — وإن تحدث أحيانا عن خلعه العذار . وربما كان هذا الاختلاف راجعا إلى مراحل مختلفة من حياته : فقد ذكر فى بعض قصائده أنها عفة عن الكبائر والمحرمات وحدها(٢) :

هلال فى تضيب فى كثيب لواحظ طرفه شرك القلوب
أعف عن الكبائر فيه جهدى وأسمح بالصغير من الذنوب
وأرشف منه ثغرا كالأقاحى وألزم منه قدا كالقضيب

أما العناق فمن « الصغير من الذنوب » التى ليست من الريبة التى قبض يده عنها تجنبا ، والتى لا تشوب العرض الطاهر(٣) :

يارب بدريات يرشف مسمعى وفمى شهى رضابه وحديثه
فظمئت وهو يعلى متواليا وقديم شوقى فيه مثل حديثه
ومضى ، وأبيض عرضه لم تنبسط يد ريبة منى إلى تمريثه

وذكر فى قصائد أخرى أنه يكتفى بسماع حديثها وأخبارها وبالخيالات والأوهام ، ومشاركتها — على البعد — بعض شئون الحياة(٤) :

وأبيت أقنع بالحديث ولو كان الحديث إشارة لكفى

---

(١) ٥٦ .
(٢) ٣٦ . وانظر أيضا رقم ٧٧ .
(٣) ٥٥٢ وانظر ٢٣٤ .
(٤) ١٦٤ .

وبما يبلغه الرسول ، ولو كان النسيم رسولها لشفى
وبطيفها ، وبأنها علمت أنى أبيت بحبها كلفا
وبلفظ مبسمها ومقصده أخرى فيبهجنى وما عرفا
ويرشف ماء النيل قد وردت أولاه ثم وردته طرفا

وغلا فى قصيدة أخرى فجعلها عفة مطلقة، لا تقترف صغيرة ولا كبيرة، لا فى الواقع ولا فى الوهم (١) :

فخلوتى ليس يرتاب الغيور بها مع التجنى على المسواك واللثم
ولست أرضى لمن أهوى وإن رضيت طباعه بالذى يدعو إلى الندم
أعف مع ما ألاقى عند مقدرتى فلست فيه على أمر بمتهم
لو أن وهمى أتى ما يستراب به فى الطيف جنبت عينى لذة الحلم
هب المآثم لا تخشى عواقبها نفس الفتى ، أين منه نخوة الكرم ؟

وعند ما كبر فى السن ، وخلع عنه رداء الشباب ، شعر أن العفة سلبته حقه فى اللذة ، وأخرجته من المسرات صفر اليدين ، فضاق بها ، وقال فى أسف (٢) :

هذا على أن العفاف وهمتى لم يظفرا حظى لديه بطائل

ومن معين العفة نبع الحياء ،الذى كان يغلب عليه حتى فى المواضع التى لا يرى كثيرون غيره أنها تخدش الحياء ، وبخاصة إذا ما وضعنا فى اعتبارنا الزمن الذى كان يعيش فيه ظافر ، والطبقة التى كان ينتسب إليها . قال(٣) :

لا يكشف المرء فى الحمام عورته إلا لخالين : فقد العقل والدين
لو رام ذلك منه أمر مغتصب فى السوق بالقهر والتهديد والهون
لكان يبذل عن إظهار عورته ما حاز ، لو أنها أموال قارون
وحالة السوق والحمام واحدة والفرق فى ذاك معدوم البراهين

والمنبع الثانى الذى اغترفت منه أخلاق ظافر المروءة والنخوة(٤) :

---

(١) ٢٣٢ .
(٢) ٢٠١ .
(٣) ٢٥٦ .
(٤) ٧٤ .

ولو رمت أن أنساكم ذكرت بكم محاسن فعل مثل منتظم العقـد
برئت إذن من نخـوة ومروءة إذا لم أقابلها بواجبها عنـدى

وتصدر عن مروءته همته العالية ، قرينة عفته فى كثرة التغنى ، كما يتضح فى كثير من الشعر الذى أوردته سابقا ، ومن قوله(١) :

لى همة تهجر المرعى الدنىّ على خصب وتأتى العلى لو لاح أجدبه

وتصدر عنها أنفته وكبرياؤه ، فما أكثر ما تحدث عن تجنبه ما يذل نفسه أو يجرح كرامته أو يحط من اعتداده بنفسه(٢) :

إنى أعاف الـذل فيما أبتغى فلهمتى عن جانبيـه نشوز
ماخاب من هضم التفضل ماله كرما ، ووافر عـرضه محروز

ودعته الأنفة إلى القناعة ، حتى لا يحط من قدره أمام من يدفعه الطمع إلى سؤالهم(٣) :

إذا شرفت نفس الفتى عافت الذلا ولو كابدت من فرط ضيقتها غـلا
ولو حاز ملك الأرض والعيش خالدا بذلة يوم واحـد ترك الـكلا
له سيف صبر مغمد فى قنـاعة إذا ثار جيش من مطامعه سلا

والحق أن ظافرا كثيرا ما يوصى بالتزام القناعة ، وأحسب أن هذه الفكرة لزمته بعد ما أبعده الطمع عن بلده ، وذاق لوعة الحنين إليه ، وشعر أن ما وجده فى فراقه هباء .

ودعته المروءة إلى الجود فاستجاب لها ، على الرغم مما كابد فى سبيل الحصول على ما حصل عليه(٤) :

أيحسب فيك اللوم أنى سمعته إذن بخلت كفى بما أنا واجد

وكأنما ظافر يرى أن هذه أعظم دعوة يمكن أن يدعى عليه بها . ويأتسى

---

(١) ٤٩ .
(٢) ١٢٥ .
(٣) ٢٠٤ .
(٤) ٧٥ .

الرجل بحاتم الطائي أحيانا فيعقد — كما كان يعقد — الحوار اللطيف، يدور فيه العتاب بينه وبين زوجته(١) :

يارب لائمة شجاها أنني سمح بمالي والزمان ضنين
قالت : أضعت المال هل لك عنه ما تعتاض؟ قلت : الحمد وهو ثمين
قالت : غنيت . فقلت : حسبك فاعلمي أن البخيل بماله المغبون
قالت : فإن الفقر هون . قلت : لم يهن الكريم بل اللئيم يهون
قالت : فإن المال نعم معونة الـ إنسان . قلت لها : الإله معين
قالت : فإن الوفر زين . قلت : كسب الحمد يرفع أهله ويزين
والمال يذهب والثناء مخلد يحيا به الإنسان وهو دفين

والمنبع الثالث الذي تستقى منه أخلاقه طيب المعاشرة(٢) :

إن لم أخض لجج الغرام وأمتطى طلب الوصال بكل أشعث رائق
وأكر بين الجحفلين معرضا نفسي هناك لطاعن أو راشق
نكرت كعوب السمهرية راحتي وعدمت آثار النجاد بعاتقي
وفررت عن خصمي، وعاف معاشري
خلقي، وخيب سائلي أو طارق

وحدا به ذلك إلى أن يكون مخفوض الجناح للأصدقاء، وإن كان جافيا غليظ الجانب للخصوم (٣) :

وفي عرام للأعادي، وإنني ذليل على عتب الأخلاء خاضع

ومن معين الحياء، ومعين طيب العشرة، يصدر — في اعتقادي — ذلك الحب العارم، الذي تملك عليه جنبات نفسه، للحديث العذب. فلا تكاد تخلو قصيدة تحدث فيها عن ملذات الحب والصداقة أو ملذات الحياة عامة، من وقفة قصيرة أو طويلة عند الحديث الشهي (٤) :

---

(١) ٢٦٠ . (٢) ١٨٣ .
(٣) ١٥٥ . (٤) ٣١ .

ليالى يزهينى لذيذ حـــديثكم　　　وألفاظه— مهما استعدت— عذاب

وساق الشغف بالحديث الطلى الشاعر إلى أن يولع بنثره ، والتلفظ به (١) :

لله درك يا أثيلات الحمـــى　　　سقيا لعيشك والزمان زمـــان

كم قـــد نثرنا من أفواهنـــا　　　درا صفا ، أصدافه الآذان

صر ولولا شح ألسننـــا بـــه　　　رقصت به طربـــا لها كثبان

وفطن إلى أن عذوبة الحديث فى جمال وقعه فى النفس(٢) :

ومن حديث يسر النفس موقعه　　　كأنما اشتق من صرف ابنة العنب

إذ يخترق السمع ، ويسرع إلى القلب ، فلا تحس الأذن إلا بالطرب ، ولا يجد الفؤاد غير النشوة ،وتتنافس الحواس فى التمتع به،فيغيظ بعضها بعضا وتحسد حاسة منها الأخرى (٣) :

وما بيننا من حسن لفظك روضة　　　بها حسدت منا المسامع أحداق

حديث حديث ، كلما طـــال موجز

مفيد إلى قلب المحدث ســـباق

والحق أن ظافرا يمنح الحديث الحلو من الصفات ما يجعلنا نعتقد أنه يقبل عليه بجميع حواسه ، فيسمعه(٤) :

خذ حديثى فهو أطيب من　　　نغمات المســـمع الفــــــرد

يغتـــدى فى أذن سامعـــه　　　كزلال فى لهـــاة صـــــد

ويراه(٥) :

وكم يوم لنا بالرمل فيـــه　　　حديث مثل ما نثر السحاب

حديث كاسمه فينا حديث　　　كما يسقى أخا ظمأ شراب

(١) ٢٥٩ .　　(٢) ٢٨ .
(٣) ١٨٠ .　　(٤) ٧٣ .
(٥) ٢٧ .

ويتذوقه(١) :

من حديث عذبت ألفاظه كضريب كامن فى ضرب
رق حتى لو سرى فى يذبل رقصت أكنافه من طرب

ويشمه(٢) :

إلا حديثا مثل ما سرت الصبا سحرا تنبه زاهرا ريانا

فلا عجب أن يثير الحديث الطلى فى مخيلة هذا العاشق الكثير من الصور التى يرتبط بعضها بصورة الحديث ، فلا تكاد الصورتان تفترقان عنده مثل صورة الجبال التى تأخذها النشوة لسماع الحديث ، فتتراقص على أنغامه ، والعطشان الذى كاد يقتله حر الظمأ فاستمع إلى الحديث فوجد برد الراحة ، وشارب الحديث الذى يقع منه موقع العسل أو الخمر .

ولم يفض ظافر فى الحديث عن الصفات الذميمة التى برأ نفسه منها إفاضته فى الحميدة . فإذا أغفلنا الذل الذى أطال بعض الشىء فى الانتفاء منه مروءة منه وأنفة ، وجدناه أنكر على نفسه فى أبيات أوردتها الجبن والفرار عن الخصم . ثم لم ينكر عليها شيئا آخر .

وبالرغم من ذلك ، تبقى عندنا خصلتان أثبتهما الرجل لنفسه ، وتدلان على طباعه ، فلا يصح لنا أن نغفلهما . أولها كراهيته أن يخضب شيبه ، وإن كرهه كل الكره ، ورأى أنه والموت سواء ، وأن الجدير بمن فقد شبابه أن يفقد حياته معه(٢) :

لقد قدح الشيب فى جانبى وأثر ما ليس بالواجب
أتانى عند تولى الشباب فلقبت بالأشمط الشائب
فلما تظلمت من فعله وضقت به ، قال لى صاحبى :
لقد غض منك فهلا لبست على رغمه حلة الخاضب
فقلت : الشباب على صدقه تخون فما الظن بالكاذب؟

(١) ٣٤ .
(٢) ٢٦١ .
(٣) ١٤ .

وعجب لمن حاول أن يقص شعره الأشيب(١) . وعد من يصبغ شيبه مجنونا لأنه يفعل أمرا لا بقاء له(٢) . فالخضاب عنده غش مفضوح (٣) . بل إن ذلك أدعى إلى الريب والظنون(٤) :

وخاضب غالط عن شيبه كأنما دل على عيبه
لو كان أبقاه على حاله ما ألجأ الناس إلى ريبه
قد رام أن يخفى ومن خلفه أدلة تعرب عن غيبه
والشيب كالسيل إذا ما طما لم تدر ما يمنع من سيبه

والخصلة الثانية التي أثبتها لنفسه الخوف من ركوب البحر ، وذلك أمر عجيب من رجل إسكندري (٥) :

أمرتني بركوب البحر مرتئيا فغر غيري واخصصه بهذا الراء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته ولا المسيح أنا أمشي على الماء

وختام القول في هذه الأخلاق والطباع أنني لا أشك في تحلي ظافر بمعظمها إن لم يكن قد تحلى بها كلها . فالأسلوب الذي اتبعه في إيراد أكثر هذه الصفات لم يكن أسلوب الرجل الذي يريد أن يثبت لنفسه شيئا بعيدا عنه ، بل هو أسلوب الرجل الذي يستوحي ماثبت من أخلاقه وطباعه صورا فنية . ودارت معظم هذه الصفات حول التقى ، والنخوة وطيب العشرة . فأبانت أنه استقى مجموعة من أخلاقه من الدين الذي اعتنقه ، ومجموعة من المجتمع الذي عاش فيــه ، وثالثة من الأصدقاء الذين اتخذهم . وإذا أردنا أن نضيق حلقة هذه المجموعات ونجعلها مجموعة واحدة كانت النخوة هي المحور الذي دارت حوله أخلاق ظافر ، ويلفت النظر منها ثلاث خصال : العفة . وبعد الهمة . والجود ، رأى الرجل أنها الطباع الرئيسة في شخصيته . ويدل ذلك على أي رجل كريم كان ظافر . فإذا أضفنا إليها ولوعه بالحديث العذب دل ذلك على أي رجل رقيق الحاشية ، صافي الطبع ، مهذب النفس ، كان ذلك الحداد ، ومصداق ذلك كله قول السلفي : « قال لي الفقيه أبو الطاهر بن عوف : ظافر الحداد ما عرفنا له قط خربة كمثل الشعراء » .

---

(١) ٢٢٦ . (٢) ١٧ . (٣) ١٣٦ .
(٤) ١٨ . (٥) ٣ .

الفصل السابع

وفاته

أبى القدر أن يمنح ظافرا الأمنية الأخيرة فى حياته ، والتى بقى يحلم بها فى شيخوخته ، و تهفو إليها نفسه ، فيعود إلى بلدته الحبيبة الإسكندرية(١):

عسى منية قبل المنية تنقضى فيرشف ثغر الثغر طرفى إذا رنا

سألتك يا رباه عودا، فجد به وجاز بخير من دعوت فأمنا

فلفظ أنفاسه الأخيرة فى الفسطاط .

ويتفق أكثر المؤرخين على أن الوفاة كانت فى المحرم من سنة ٥٢٩ھ ، غير ثلاثة خرجوا على هذا الاتفاق :

أول هؤلاء الثلاثة ، وأقربهم إلى التاريخ المذكور ، أبو طاهر السلفى الذى قال : « توفى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة فى ذى الحجة ، على ماكتبه إلى ابن موهوب من مصر » .

وقد أورد المقريزى قول السلفى ثم أورد قولا لابن ميسر ينكره ، قال(٢) : « أنا أعتقد أنه وهم فى ذلك » . ولكن الواضح من سياق السلفى أن أبا طاهر لم ير الوفاة ، وأنه تلقى خبرها من غيره . وعلى رغم ذلك ، فقوله له دلالته . فإنى أعتقد أن الوفاة وقعت فى الليلة الفاصلة [بين

(١) ٢٨٤ . (٢) المقفى ٢٠ .

ذى الحجة من سنة ٥٢٨ﻫ والمحرم من سنة ٥٢٩ أو قريبا منها أشد القرب، فذهب بها بعضهم إلى السنة المنصرمة ، وبعضهم الآخر إلى السنة الوافدة .

وخرج على الاتفاق أيضا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، الذى قال (١) : « وقد أجمع المؤرخون على أنه توفى سنة ٥٤٦ﻫ » . وأعتقد أن هذا التاريخ جاء إما نتيجة خطأ مطبعى أو سهو أو خلط بين ظافر والعينى ، اللذين اختلطت أبيات لهما على الأدباء .

وشذ ابن تغرى بردى فجعله فى وفيات سنة ٥٦٣ﻫ . ولكن كل الدلائل تكذب هذا القول ، فليس فى ديوان ظافر من الشعر ما يمكن تأريخ نظمه بهذا الزمن المتأخر ، أضف إلى ذلك أن الشريف أحمد بن حيدرة الحسينى أنشد العماد الأصفهانى شعرا لظافر فى سنة ٥٥٥ ، وقال له عنه : « هو قريب العصر » . مما يؤكد أنه قد مات قبل هذا التاريخ .

---

(١) فى أدب مصر الفاطمية ١٩٣ .

الباب الثانى

شاعر من الإسكندرية

مقدمة

الشعر الغنائى وليد تجارب انفعالية قصيرة الأمد ، محدودة المجال[*]، تعصف بمشاعر الشاعر ، وتمتلك عليه لبه، فتنطقه بأبيات . وتؤثر عوامل عدة فى حدة هذه العواصف ، ومجراها ، وامتدادها ، وفى الأفكار التى توحيها لمن يعانيها ، وفى الشكل الذى يفرغ فيه هذه التجارب .

ولذلك كان التعبير الغنائى — فى صورته المثلى — مقطوعة ، محدودة الطول ، قصيرة الأمد ، موحدة الاتجاه ، تعبر عن انفعال واحد ، قد ترفده مجموعة من الانفعالات الأخرى ، التى تختلط به فتثريه ، لكنها لا تغير اتجاهه ولا وحدته .

ولما كانت التجارب التى يمر بها الشاعر الغنائى متباعدة ، مستقلا بعضها عن بعض ، كان غير غريب أن يختلف التعبير الشعرى عنها ويتغاير . وكان غير غريب أن يختلف موقف الشاعر من التجارب المتماثلة ، لخضوعه لها تحت مؤثرات مختلفة من تباين فى الزمان والمكان والظرف وعمر الشاعر وما واجهه من تجارب سابقة .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن هذه المواقف التى قد تتباين أحيانا ، وتتغاير أحيانا أخرى ، لا تنقطع الصلة بينها كل الانقطاع ، ولا تفقد دلالتها على ملامح شخصية الشاعر ، الأساسية منها التى تلح على ذهنه فلا يفلت منها ، وغير الأساسية التى تطرأ على باله حال تجربته ثم لا تخلف أبعادا أو أعماقا فى نفسيته ، وتعرفنا بالتطور الذى خضعت له شخصيته .

فإذا أمكن تطبيق هذا المنهج على كل شاعر ، كان ظافر من أجدر الشعراء به . فقـد منحنا مجموعة من القصائد الطويلة والقصيرة ، وعدة مقطوعات ، أفردها جميعا لإبراز ما وهبته تجاربه المختلفة من مشاعر وأفكار ، وتحديد مواقفه منها . وبث مجموعة كبيرة من هذه المواقف فى مواضع من قصائده الأخرى ، سيق إلى أن يقف فيها موقفا محددا ، يقوم على قاعدة فكرية واضحة .

الفصل الأول

موقفه من الوجود

١ ـ الله

وقف ظافر بين يدى الله مسلما عاديا ، لا يكثر ترديد اسمه تنزها ، ولا يحاول له تصورا لأنه فوق كل تصور. ولكنه يرى فى وجوده مالايتسق مع منطقه ، ولا يتوقعه عقله البشرى . فيرده إلى حكمة أسمى من الفكر البشرى تدق عليه ، وتدل على القدرة المطلقة ، والسيادة التامة(١) :

وربما وقعت أشياء خارجة عن القياس فدقت عن نهى البشر

من ذاك أحمق مرزوق له جدة وعاقل دون كسب القوت فى ضرر

وأكرم الناس فى ذل ومخمصة وألأم الناس فى عز وفى بطر

ما ذاك إلا لتدبير يصرفه بين الورى غيرهم تصريف مقتدر

ولم ير ظافر الحكمة الإلهية فى الأمور المعجزة وحدها ، بل فى الكائنات المختلفة ، وما يدور بينها من صراع من أجل البقاء ، وما تتحمل من متاعب فى حياتها ، فلا تحملها على الزهد فى الوجود، بل تزداد رغبة فيه، وحرصا عليه ، وتزيد شقاءها بما تضيفه إليه من رغبات أخرى تقيد بها أعناقها .

(١) ١٠٥ . وانظر ١٠٦ .

٢ ـ القدر

وآمن ظافر بالقدر إيمانا لا يتزعزع ، واستسلم له ، فالقدر لابد أن يكون ، لايخلص منه فرار ، ولا يبعده حذر (١) :

لكن إذا أكد المقدار عقدته ... فكل حل إذا حاولته تعب
سلم إذا كان ما لابد منه فما ... ينجيك من كونه حرص ولا هرب

وآية ذلك أن رزقك يأتيك أينما كنت ، وأينما كان ، فقد قدر (٢) :

من قدر الرزق الذى لك أينما ... قد كان ليس يضره إنفاذه

وإذن فلا معنى للفرح بما أوتيته من الفضل ولا للأسى على ماحرمته . فالآتى لابد أن تفقده يوما ما(٣) :

لاتفرحن إذا أعطاك من عرض ... فإن بعض عطاياه له سبب

والأسى والسخط غير جالبين لحظ بل يضيفان إلى الحرمان الدنيوى حرمانا أخرويا . والحظوظ هبة من صاحب الحظوظ ، لن يبلغك واحدا منها حرص ولا مهارة (٤) :

إذا ما افتقرت فلا تسخطن ... فتعدم شيئين : أجرا ورزقا
وهبك سخطت فماذا تفيد ... وأكدت للضيق أن سؤت خلقا
تهـون همومك طرا إذا ... أجلت بفكرك أن ليس تبقى
وأن المقـدر لا بد منـه ... على من تبـذل أو من توقى
وأن المواهب قـد قسمت ... وكانت ، فدع عنك حرصا وحذقا

(١) ٢١ .
(٢) ٩٠ .
(٣) ٢٩ .
(٤) ١٧٩ .

٣ - الدنيا

قسا ظافر على الدنيا ، وخلع عليها ما ذكره من صفات ، استمد بعضها من التراث الديني ، واستوحى مخيلته في بعضها الآخر . فرماها بالغدر ، ووصمها بالشيب الذي يعده نذير الموت أو نظيره ، واتهمها بقتل من أقبل عليها ، ووهبها حياته(١) :

ما أغدر الدنيا ، وليس لغدرها ... أثر يقصر من لحاجة طالب
شمطاء ، تقتل بعلها ، وفعالها ... مما يزيد بها غرام الخاطب

وآية هذا الغدر التباين بين منظرها ومخبرها ، وسرعة تقلبها ، ومرارة طبعها وكدرته(٢) :

أف لها دنيا فلا تستقر ... وعيشها بالطبع من كدر
جميلة المنظر لكنها ... أقبح شيء عند من يختبر

ودليل هذه المرارة الطبيعية تعسر المسرات أو تعذرها ، وكمون الداء في الملذات ويسر الضار وقربه ، واختلاط النفع بالكراهة . ودليل هذا الكدر الطبيعي ذلك القذى الذي يسرع إليك عند الشرب ، فيعلق بك ولا تستطيع منه فكاكا(٣) :

ما أبعد الأشياء مما يسر ... فعلا ، وأدناها إلى ما يضر
فالخير في النادر إلمامه ... والشر ليلا ونهارا يكر
والداء فيما لذ أو ما حلا ... والنفع في كل كريه ومر
أول ما تشرب يأتي القذى ... فاك ، وتبغي صرفه لا يمر

ولن تستطيع لها فهما ، لأن أمورها جميعا عجيبة متضادة(٤) :

فنعمتها بؤس ، وفرحتها أسى ... وصحتها سقم ، وإعطاؤها رد
تفيد أخا الجهل الغنى وهو وادع ... وذو الفهم دون القوت يتحته الكد

---

(١) ٢١ .
(٢) ١٠٦ .
(٣) ١٠٧ .
(٤) ١٤٣ .

ولو سارت على رسلها ، وتجنبت غدرها وتضادها ، لم يصف أمرها . فهى موطن الكاف والمشقات والمتاعب ، ومناط الحرص والرغبة ، ومبعث الخوف والقلق . يحيط كل ذلك بكل كائن فيها ، فيشغل باله ، ويملأ عليه قلبه ، فيشل عقله ولبه ، فيرميه أسيرا حبيسا . قد تختلف الكائنات بين إنسان وحيوان وطائر ، وتتباين الفئات بين فقير وغنى ، وعابد وفاسق ، وراع ورعية ، وتتفاوت الفصائل بين حيوان يطير فى الهواء ، وآخر يدب على الأرض ، وثالث يسبح فى أغوار الماء ، ولكنها جميعا فى قبضة الدنيا ، تئن تحت سطوتها ، ولا تستطيع التخلص من المصير الذى فرضته عليها(١) :

قد وحل العـالم فى سجنهـا ... فكل جنس تحت بؤس وضر
فقـيرها يطلب نيـل الغنى ... وذو الغنى يجمع كى يدخر
والزاهد العـابد فى كلفة ... من شعث الصوم وطول السهر
والفاسق المذنب فى وصمة ... مسفـه الرأى قبيح الأثر
والحوت والطير ووحش الفلا ... فى كلف من وردها والصدر
فالوحش لا يأمن من قانص ... أو حابل أو أسد محتضر
أو جارح يدركهـا بغتة ... فى الجو لا يضرب إلا كسر
والطير فى الأقفاص سجنا لها ... تنوح فيه نوح صب أسر
والملك الأعظـم فى خطة ... من شدة الأمر وطول السهر
والحوت فى اللج على بعـده ... من ملمس الكف ولمح البصر
يدلى له الصـياد خيطانه ... والطعم فيها فوق عقف الإبر
والبعض منهـا آكل بعضه ... فما جنا يأكل ما قد صـغر
مصـائب جات ولـكننى ... أوردت منها نبذة المختصر
تقـدير من لا حكم إلا له ... فى كل ما يأتى وفيما يـذر

وكل ما يتقلب فيه الحى من أحوال فى هذه الدنيا جالب لنوع مناظر من القلق ، مثير لمـا شاكله من الهموم ، لا ينجو من ذلك

(١) ١٠٦ .

كائن . فمن خلت يداه من المال وقع تحت ذل الفقر ، وعصيان السخط ؛ ومن استعاض عن واقعه المعدم بالآمال عاش معيشة كاذبة . فالآمال خادعة خائبة ، لا تورث إلا الغرور والغفلة ، وتحيط بها الهموم التى تقضى عليها (١) :

يا نفس ما عيشك بالدائب فقصرى من أمل خائب
فهل تبقى لك من حجة إلا غرور الأمل الكاذب ؟
لو لم يكن شيء سوى الموت كا ن الزهد فى الدنيا من الواجب
أو لم يكن موت لكانت همو م الدهر تنفى رغبة الراغب
فكيف والإنسان من بعده مناقش من عالم حاسب ؟

وإذا ما أفلت أمل من هذا المصير فتحقق ، فلن يفيدك هذا ، فإنه ستنتقل منه إلى أمل جديد ، وتعيش فى نصب بين أمل ذاهب وأمل آت (٢) :

فلا يغرر بك التسويـ ف والآمال والعلل
فإنك إن تجد أملا تجدد بعده أمل
فما يرويك من دنيا ك لا عل ولا نهل

وان يقنعك من هذه الآمال شيء ، لأن تحقق واحد منها يزيد صاحبه تعطشا إلى غيره (٣) :

ومن كانت الآمال أقوات نفسه تطاول منها أكله وهو جائع

وتشغل الآمال عليك حياتك ، وتنغص عيشك . فلا فرق بين وجود وحرمان ، وفرح وترح (٤) :

فعقول الناس لا هية فى الهوى والكسب والأمل
يجرع الإنسان لذتها وهى مثل السم فى العسل
أنت من دنياك فى شغل والمنايا فيك فى شغل
كل ما فيها يزول فلا فرق بين الهم والجذل

---

(١) ٢٠ . (٢) ٢٠٣ .
(٣) ١٥٥ . (٤) ٢٠٢ .

وإن تحققت الأحلام ، ووقعت الآمال ، لم يفلت صاحبها من قبضة المشاغل ، فإن المال مثير للقلق والخوف(١) :

زيادة المال باب الهم والتعب ... فكلما زدت مالا زدت فى السبب
فالنفس تزداد فقرا بالغنى أبدا ... كمطفىء النار عند الوهج بالحطب
لو أقنع المرء من دنياه منزلة ... ينالها كان معذورا على الطلب
لكن إذا حصلت آماله أربا ... رقى به أمل ثان إلى أرب

وكل ما جمعه المرء فى حياته إن هو إلا حطام زائل ، أو طيف تراءى له فى حلم (٢) :

فما المال والعيش إلا كطيف ... خيال سرى طارقا فى منام

إن لم يفقده فى حياته فقده بمماته ، ولم يتمتع منه بغير ما نال من قوت (٣) :

وما قصده من بعد هذا ، وهمه ... سوى مكسب يحظى به ويسامى
وما حظه من كسبه غير قوته ... ويجمع للوراث كل حرام

والدنيا دول ، تسلب غيرك لتعطيك ، ثم تسلبك لتعطى غيرك ، ولن تفوز منها بغير الحسرة فى الحياة ، والحساب والعقاب بعد الممات (٤) :

إذا دانت لك الـدول ... ففكـر كيف تنتقـل
فلو سمحت بها الأيا ... م لم يسمح بها الأجل
وإنك سوف تدفعها ... كما أعطتكها الأول
وإنك كل ما جمعـ ... ـت يبقى حين ترتحل
فما لك منه فيما بعـ ... ـد إلا الإثم والزلل

وإذن فليس فى الحياة ما يعوض الإنسان عن كل هذه الآلام التى يعانيها ، والغصص التى يتجرعها ، بل عن القليل منها (٥) :

---

(١) ٢٦٦ . وانظر ١٦٢ .
(٢) ٢٤٠ . (٣) ٢٣٤ .
(٤) ٢٠٣ . (٥) ١٥٥ .

لعمرك ما ساوى البقاء أقل ما ... يكابده فيها الفتى ويصارع
حلا فهو مثل الشهد فى فم ذائق ... يلذ ، وفى أثنائه السم ناقع

والنتيجة الطبيعية أن يشعر المرء بغربته ، فى كل موضع تقل فيه منذ تكونه ، يلح هذا الشعور أحيانا ، ويتوارى أخرى ، ولكنه لا يضيع أبدا ، مادام بعيدا عن موطنه الحقيقى ، وهو قبره . فمن حظه أن يسرع الفرار إليه قبل ان يولد (١) :

وبعد ، فما أوطاننا إن تحققت ... سوى حفر فى جنادل ورغام
فما منزل الإنسان فيها مقره ... وإن كان ذا خيم بها وخيام
غريب وإن لم ينتزح عن بلاده ... فقيد على عز وبعد مرام
تغرب فى الأحشاء عن ظهرا والد ... وغربه الميلاد بعد زحام
وفى غربة الدنيا له أى حسرة ... ومن بعدها لاشك غربة سام
وغربته عند الحساب أشدها ... فأى أمور لا تطاق جسام
ومن سعده ألا يكون ، فإن يكن ... يمت وهو فى الأحشاء ليس بنام

بل ليت الوجود نفسه لم يوجد ، فالدنا محن فى الصباح والمساء ، تلاحق الموجود منذ وجوده إلى عدمه ، وتصيب العاقل والغبى غير أن أولهما أشد إحساسا بوطأتها(٢) :

ليت أبا الخلق آدم اتهم الـ ... شيطان فى قوله وما صدق
وفر عن أكل ما غواه به ... حزما فما ذاقه ولا ذوق
أو قر فى الخلد ثم يرزقنا ... أو عقمته الدنيا فلم يرزق
أو ليت حوا فى الأصل ما خلقت ... أو ليتها لم تلد ولم تعلق
لكن دفعنا فيها إلى محن ... تصبحنا بالهموم أو تغبق
طباعها السوء واللبيب بها ... أسوأ حالا فيها من الأحمق

---

(١) ٢٣٤ .
(٢) ١٨٢ .

مأوى الرزايا من حين ينبذه الـ　　　ظهر إلى حيث لحده الموبق

من سلمت من جنينها وقضى　　　سقطا فقد وفقت وقد وفق

همت بتحصيله كما حصلت　　　بغير نفع يرجى ولا مرفق

تصرخ إن مات مثلما صرخت　　　وهى به فى مخاضها تطلق

وهو إذا عاش فى محاربة　　　يطعن بالحادثات أو يرشق

فالعيش نفس الهلاك ، والمقبل الـ　　　مسعود من لم يعش ولم يخلق

وإذن فالصورة التى كمنت للدنيا والحياة فى نفس ظافر ، وصدرت عنها آراؤه عن وعى بها أو غير وعى ، وتناثرت فى كثير من قصائده على اختلاف التجارب التى استوحاها والانفعالات التى عاناها ، والأشكال الشعرية التى عبر بها عنها ، صورة معتمة .

فالدنيا غادرة ، متقلبة ، أقرب — بطبعها — إلى الشر والأذى ، والحياة عناء لا يفلت منه حى ، مهما كان موطنه فى جو أو بر أو بحر ، تفاوت حظه من العدم والوجد ، والضعف والقوة ، وتخالفت مكانته فى مجتمعه . ولكنها تبدى للإنسان ما يغريه بها ، ويوقعه فى أحابيلها . فيغلو فى رغباتها ، ويغرق فى هواه ، فإذا ما اطمأنت إليه ، أعرضت عنه وأذاقته الهوان ، فهى سجن له : فى إقبالها عليه ، وصدودها عنه ، وهو غريب فى هذا السجن ، لم يستطع أن يجد له وطنا يقر فيه .

ولا خلاص من هذا السجن إلا بالموت . ولكن هـذا الموت يجب أن يكون قبل الوجود ، حتى لا يقدر للمرء حياة ، فيذوق عناء ، ويرتكب إثما ، ويقدر له عقاب .

وليت هذا الموت كان فناء لهذه الحياة .

(١) ٣٣١ .　　　(٢) ٦٠٢ .

(٣) ٥٤١ .　　　(٤) ١ .

٤ ـ الموت

الموت نهاية كل شيء(١) :

نقطع الأوقات بالكلف وقصارانا إلى التلف

فهو الغاية التي ينتهي إليها كل إنسان ، شجاعا كان أو جبانا ، يسعى إليها حثيثا(٢) :

عجبت لآمن ساه له بحياته جذل
وجيش الموت يطلبه وقد ضاقت به السبل
ومافى قصده شك ولا يدرى متى يصل
وسيان الجبان لديـ ـه عند البطش والبطل

ولا يجد الملوك فى حصونهم وجيوشهم مايحميهم منه ، ويخلصهم من قبضته(٣) :

يغول الملوك الصيد قسرا، ودونها عتاق المذاكي والرماح الشوارع

فلا حامي من الموت . آية ذلك كل هؤلاء الموتى، الذين لم يفلت أحد منهم من مخالبه (٤) :

يا بنى الهالكين، هل من وقاء لكم عن مصارع الآباء ؟
وإذا ما الأصول جفت فما يطـ ـمع فرع من بعدها بالبقاء
كم ثوى تحت قبة الفلك الأعـ ـلى من الخلق بين ترب وماء ؟
هل ترى غادرت يد الموت مخلو قا من الأقوياء والضعفاء ؟
حيوان من كل جنس فما يحـ ـصر منها الأقل بالإحصاء

وقد جاهد البشر فى التغلب على الأدواء ، ووصلوا إلى ما يبرئ كلا منها أو يقاومه أو يهدئ من تأثيرها ، غير الموت ، أعجز العقل ، وأبطل السعي :

---

(١) ١٦٢ . (٢) ٢٠٣ .
(٣) ١٥٥ . (٤) ١ .

كل داء له دواء وقد أعـ   جز داء المنون كل دواء
سلطت حيلة العقول على كـ   ـل خفي من غامض الأشياء
وتناهت في الموت بدءا وعودا   فأقرت بالعجز والإعياء

فالموت حق ، على كل حي ، مهما اختلفت أجناسه ، وتباينت مراتبه ، حتى قد يغفل البشر عنه ، وتشغلهم شئون الحياة ، ولكنه هو لا يشغله شيء عنهم . بل ان العيش نفسه طريق إلى الموت ، يطمئن إليه الإنسان بينما تفرى ساعاته عمره وتمزقه دون أن يفطن (١) :

ويحتال في دفع المخوف ، وعمره   تمزقه ساعاته وهو وادع

فربما لا يشعر المرء بالألم ، وهو أبو العلل ، ولا يبصر ما هو عليه من عيب ، وهو ذو العيوب . فيظن نفسه معافى بعيدا عن الموت ، وهو أقرب ما كان إليه (٢) :

يا مريضا ، لم يجد ألما   أنت لو تدرى أبو العلل
يا بصيرا ، ليس يبصر ما   فيه من عيب ومن زلل

وكل حي له أجله المحتوم الذي ينتهي إليه (٣) :

ولكنه رهن المنايا لمدة   محررة معلومة بإمام

وهو ينتهي إليه بغتة دون أن يتوقعه أحد ، أو يعرف موعده . فقد يأتي في أية سن ، ولأي إنسان (٤) :

يا نفس ما عيشك بالدائب   فقصرى من أمل خائب
ويلك ، أما يكفيك أن تبصرى   جنائزا تنقل بالراتب ؟
بالطفل والبالغ والمبتدى   شبابه والكهل والشائب
من والد أو ولد أو أخ   أو من غريب منك أو صاحب

(١) ١٥٥ .   (٢) ٢٠٢ .
(٣) ٢٣٤ .   (٤) ٢٠ .

وإذا حل الأجل ، لم يستأخر عنه صاحبه ولم يتقدم ، ولم يمهله الموت شيئا ولو دق (١) :

وبطشــة قابض الأروا   ح ليس لأخذها مهل

والنتيجة التي يخلص إليها ظافر من رفقته هذه مع الموت ، أنه وحده واعظ كاف للإنسان ، ينصحه بالزهد في الدنيا ، ويوجب عليه الانزواء عنها ولو كان الموت غير محتوم على البشرية كلها ، ومن نصيب رجل واحد منها ، لايعرفه أحد ، لاقتضى الحزم من كل البشر أن يظنوا أنفسهم ذلك المائت ، ونهاهم عن الشر (٢) :

ولعمري لو عاشت الخلق طرا   ورمى الموت واحدا بالفناء
لاقتضى الحزم أن نخاف إذ المو   ت في العقل جائز الإمضاء
كيف بالفاقد المضيف إلى الآ   باء فقد الإخوان والأبناء ؟

أما النتيجة التي نخلص بها نحن لتصور ظافر الموت فنرى في وضوح أن هذا التصور قرآني الأصل والأبعاد ، لم يخرج فيه الشاعر عن أصل من الأصول التي وضعتها الآيات ولا حاد عن أحد المعالم التي أبرزتها . ربما استوحى بعض الصور العامة صورا جزئية ، وأضاف إلى الألوان البارزة ألوانا ثانوية ، ولكن ذلك كله ليتمم الصورة ، ويغني الألوان .

٥ ـ العقل

رأى ظافر في العقل الضابط الذي يكبح النفس إذا شطت ، ويقيد الإنسان إذا غوى . فالعقل هو الذي يقي الإنسان السقوط في المعيب من الأمور (٣) :

أرى الشر طبع نفوس الأنام   يصرفها بين عاب وذام
ولكنها زجرت بالعقول   كزجر الجموح بجذب اللجام

وهو الذي كان يقيل عثرتك إن هويت قبل أن يتدخل ويصدك عن الوقوع (٤):

فمن البليـــة أن تزل   فــلا يجيك من يردك

(١) ٢٠٣ .   (٢) ١ .
(٣) ٢٤٠ .   (٤) ٧٠ .

وهو الذى يفرق بين الإنسان والحيوان ، أى بين المميز وغير المميز ، ولا شىء غيره (١) :

لولا نتائج ما تقضى العقول به على النفوس لكان الناس كالنعم

فإن لم يلب ما يأمر به عقله كان والحيوان الأعجم سواء ، إذ كان الإنسان الذى حرم أهم خصائص الإنسانيه(٢) :

أنت الفقير مع الغنى إن لم تجد عقلا يمدك

وليست كل العقول سواء ، ولكن ظافرا وضع أيدينا على المحك الذى نستطيع أن نعتمد عليه فى اختبارها والمفاضلة بينها ، واتخذه من الحدس وحسن توقع الأمور (٣) :

إذا صح فهم المرء صح لنفسه يقين ، ومسبار العقول التصور

فلا بد أن يوفر المرء لعقله كل ما يهيىء له حسن العمل : أن يفهم الأمور السافرة فيعرف آمادها ، والمحجبة فيدرك أغوارها ، ويصل ما بين الظاهر والباطن فالفهم الصحيح ثمرة العقل الناضج . فإذا عجز العقل عن الفهم ، فقد وظيفته ضابطا على نفس الإنسان المطبوعة على الشر . ولم يصلحه شىء خارجى (٤) :

وإذا ما الفهم عازك لم تنتفع بالوعظ والعذل

٦ ــ الخير والشر

كانت نظرة ظافر إلى الدنيا سوداء متشككة ، فلا عجب أن يرى ــ من خلال هذه النظرة ــ الأشياء رؤية خاصة ، يغلب عليها السواد والتشكك . فكل ما رأيناه من آرائه يبين أن الطبع الغالب على الدنيا هو الشر لا الخير . واستوحى هذه الفكرة الواقرة فى أعماقه عدة نظرات بثها فى قصائده . ثم تحدث حديثا خاصا ، ولكنه موجز ، عن الخير والشر عامة ، فى قصيدته رقم ٢٤٠ .

(١) ٢٣٢ . (٢) ٧٠ .
(٣) ١٢١ . (٤) ٢٠٢ .

فرأى أن الخير عارض فى هذه الدنيا ، لا أصل له إنما يأتى خطأ :

وقد يبدر الخير من فعلها كما عرضت نبوة للحسام

ودعا إلى أن يعرف المرء الشر حق المعرفة حتى لا يقع فيه دون أن يفطن له ، ويحذر أن تسوق هذه إلى اتباع الشر فذلك الفساد التام .

وكن عالم الشر لا عاملا لتخلص من موبقات المرام

فلن يصلح الشىء ما لم يكن لما فيه من فاسد ذا التهام

وحث على التمسك بعرى الحق ، فهى التى تنقذ من التردى ، وعلى تلبية داعى الخير فى سرعة وحماسة ، وعلى تجنب الشر ودعاته :

وكن بعرى الحق مستمسكا إلا أنها غير ذات انفصام

وإن تدع للخير فانهض وهم وإن تدع للشر قل : لا همام

فالواجب على العاقل أن يبذل كل نفس ونفيس من أجل الخير :

وساعد على الخير مهما استطعت بمال ورأى وجاه محام

الفصل الثانى

موقفه من الطبيعة

١ ـ الاسكندرية

عاش ظافر صباه فى الإسكندرية ، ورجولته فى الفسطاط ، أما شبابه فتنقل ـ متمتعا بنشاطه وحيويته ـ بين المدينتين ، وربما بين مدن أخرى أرجح منها محافظة الشرقية .

وأحاط به فى المدينتين جماعة من الأصدقاء : من الشعراء ، ومن محبى الشعر ، ورعاته . فعقدوا المجالس الشعرية حيث وجدوا المكان والزمان لائقين بالشعر ، مشجعين على إنشاده والاستماع إليه ، بل موحين به أحيانا . وسعوا وراء هذه المجالس التى يحلو فيها الشعر ، وتحلو للشعراء فى المدينتين ، وفى خارجهما : فى الضواحى القريبة ، والبعيدة . قال ظافر (١) :

وكم لى بالمجالس من جلوس تحف به الأحبة والصحاب

ووصلت هذه المجالس التى عقدت فى أحضان الطبيعة بينها وبين الشعراء ووضعتهم أمامها ، يتأملونها ، ويستوحونها صورا ينظمون بعضها فى اجتماعاتهم ، ويحتفظون بغيرها إلى وقت الحاجة إليه .

(١) ٢٧ .

ولو استطعنا الفصل بين ما نظم ظافر من شعر فى الإسكندرية ، وما نظمه فى الفسطاط فى ديوانه كله ، لأمكن لنا أن نؤرخ لصلته بالطبيعة : متى بدأت ، وأين اشتدت ، ومتى أخذت صورها فى الظهور فى شعره ، وأى لون من الصور أوحت إليه كل واحدة من البقاع التى رآها ؟

فلا نستطيع أن ننسب إلى عهده بالإسكندرية يقينا غير ما قاله عندما بات فى موضع مطل على البحر ، وقد برزت أمامه منارة الإسكندرية يسطع ضوءها ، فيكاد يماثل ضوء القمر الذى كان على وشك الاكتمال ، فأشبهت المنارة شارب خمر ، نهض للترحيب بهما ، وقد حمل فى كل من يديه كأسا مشرقة الضياء (١) :

وليلة من حسان الدهر بت بها   بساحل الثغر فى أعلى مناظره
وفى المنارة من تلقائنا قبس   والبدر يظهر ثلثاه لناظره
كشارب قام إجلالا، وفى يده   كأسان للشرب مسرور بزائره

ويرجع إلى عهده بالإسكندرية أيضا وصفه الطائر لليل فى مدحه للأمير السعيد (٢) :

وليلة مثل عين الظبى داجية   عسفتها ، ونجوم الصبح لم تقد
كأن أنجمها فى الليل زاهرة   دراهم ، والثريا كف منتقد
لوهم موقد نار أن يرى يده   فيها ـ ولو كانت الزرقاء ـ لم يكد

ولكن ذلك لا يعنى أن ظافرا لم يستوح الإسكندرية غير هاتين القطعتين بل عكس ذلك هو الصحيح : صور ظافر كل مجالى الجمال بالإسكندرية ، غير أنه فعل ذلك بعد رحيله عنها . فإنها ــ وقد بعدت عن أنظاره ــ شدت ذهنه إليها ، وجذبت مشاعره ، وملأت حياته بذكرياتها ، فعاش مغردا بها ، وبمواطن الجمال فيها . .

(١) ١١٥ .
(٢) ٧٦ .

وقد كانت الإسكندرية — فى وصف ابن حوقل (١) المتوفى سنة ٣٨٠ لها — : « رسومها بينة ، وآثار أهلها ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة ، وتعرب عن تمكن فى البلاد وسمو ونصرة ، وتفصح عن عظة وعبرة ، كبيرة الحجارة ، جليلة العمارة . . » ..

وقال الإدريسى (٢) المتوفى سنة ٥٦٠هـ : « هى حصينة الأسوار ، نامية الأشجار ، جليلة المقدار ، كثيرة العمارة ، رابحة التجارة ، شامخة البناء ، رائعة المغنى ، شوارعها فساح ، وعقائد بنيانها صحاح ، وفرش دورها بالرخام والمرمر ، وحنى أبنيتها بالعمد المشمر ، وأسواقها كثيرة الاتساع ، ومزارعها واسعة الانتفاع » .

وقد افتخر ظافر بمدينته ، بما يطابق كلام الإدريسى ، فى أثناء مدحه للأمير السعيد حين قال (٣) :

ثغر تجمع خير الأرض فيه ، كما　　جمعت من كل فضل كل منفرد

وأول ما جمعت لإسكندرية من خير ، ما كان سببا فى وجودها : البحر الذى تطل عليه . وكان ظافر مولعا بالخروج إليه فى الأصيل ، يتملى من جماله وقد هدأت الشمس ولما تغب ، وفتر الضوء ولما يخمد ، وجال الشفق الماء والسماء بردائه الأحمر الجميل (٤) :

وآصالنا فى ساحل البحر نعتلى　　به الرمل ما بين الكثيب إلى الوهد

ولكن هذا الهدوء الشامل كان ينقلب أحيانا فيستحيل إلى هدير صاخب تتصارع فيه الأمواج ، أو تتطاير المياه ، ويتعالى زبد الغضب (٥) :

وبحر الملح مثل الفحل يرغو　　ويزبد حين يقلقه الهباب

وهو على الحالين يأتى بالخير إلى مدينته الجميلة ، تحمله المراكب الصغيرة ترى على بعد كالحمام ، والسفن الكبيرة تدلف كالحيوانات

---

(١) صورة الأرض ١٥٠ .
(٢) نزهة المشتاق ١٣٨ .
(٣) ٧٦ .
(٤) ٧٢ .
(٥) ٢٧ .

العظام (١) :

وتحسب سفنه ـ صفة ولونا ـ فيولا ، حين يرفعها العباب

وظافر يخشى البحر ولكن بلديه لا يخشونه ، فهو مطيتهم ، يعتلون ظهره عريا أو فى سفن . وهم سباحون مهرة ، يعشقون الماء فى جدهم ولهوهم . وفى ديوان ظافر إشارة أعتقد أنها صورة ما كنت أتوقعها . صورة لفتيات من الإسكندرية ، قد فتنهن البحر ، فاتخذن من الأصيل ستارا يخفيهن ، ولا يخيفهن ، ودلفن إلى البحر سابحات لاهيات (٢) :

نغازل من غزلانه كل سانح — له مقلة عاداتها قنص الأسد
حكت بيننا الأمواج أثقال ردفه — فآونة تخفى وآونة تبدى
هو الماء فوق الماء : هذا نعافه — أجاجا ، وهذا فيه أحلى من الشهد
إذا قابل التيار هيف قدودها — أرتنا فعال الريح بالقضب الملد

ولم يقف على البحر ـ بل لم يزر الإسكندرية ـ أحد ، إلا لفت نظره أعجوبة الإسكندرية بل إحدى عجائب الدنيا السبع حينئذ ، وهى منارتها ، التى كانت تنتصب على الرأس الشرقى من جزيرة فاروس . فكتب عنها كل من زار المدينة أو تحدث عنها على بعد ، وأشاد بها وأفاض فى الإعجاب بها . وأقرب من وصفها إلى زمن ظافر الإدريسى الذى قال عنها (٣) :

« المنارة التى ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا ، ولا أوثق منها عقدا . أحجارها من صميم الكذان . وقد أفرغ الرصاص فى أوصالها ، فبعضها مرتبط ببعض بعقود لا ينفك التئامها . والبحر يصدم أحجارها من الجهة الشمالية . وبين هذه المنارة وبين المدينة ميل فى البحر ، وفى البر ٣ أميال .

---

(١) ٢٧ .
(٢) ٧٢ .
(٣) نزهة المشتاق ١٣٨ . ولكن أوسع وصف قريب لزمن ظافر وأدقه فى كتاب ألف باللأى الحجاج يوسف بن محمد البلوى (٢ ، ٥٣٦) الذى زار الإسكندرية فى سنة ٥٦١ هـ . وانظر ابن خرداذبه ١١٤ ، ١٦٠ ، وابن رسته ٧٨ ، وابن الفقيه ٧١ ، وابن حوقل ١٥١ ، والمقدسى ٢١١ ، والشيال : الإسكندرية ١٩٨ .

وارتفاع هذه المنارة ٣٠٠ ذراع بالرشاشي ، وهو ٣ أشبار ، وذلك أن طولها كله مائة قامة ، منها ٩٦ قامة إلى القبة التي في أعلاها ، وطول القبة ٤ قامات ، ومن الأرض إلى الحزام الأوسط ٧٠ قامة سواء ، ومن الحزام الأوسط إلى أعلاها ٢٦ قامة . ويصعد إلى أعلاها من درج عريض في وسطها كالعادة في أدراج الصوامع . ومنتهى الدرج الأول إلى نصفها ثم ينقبض البناء في نصفها من الأربعة الأوجه . وفي جوف هذا البناء وتحت أدراجه بيوت مبنية . ومن هذا الحزام الأوسط يطلع بناؤها إلى أعلاها مقبوضا عن مقدار البناء الأسفل بمقدار مايستدير به الإنسان من كل ناحية . ويصعد أيضا إلى أعلاها من هذا الحزام في أدراج أقل أقبية من الأدراج السفلى . وفيه زرافات أضواء في كل وجه منها يدخل الضوء عليها من خارج إلى داخل ، بحيث يبصر الصاعد فيها حيث يضع قدميه حتى يصعد . وهذه المنارة من عجائب الدنيا علوا ووثاقة . والمنفعة فيها أنها علم توقد النار بها في وسطها بالليل والنهار في أوقات سفر المراكب . فيرى أهل المراكب تلك النار بالليل والنهار فيعملون عليها ، وترى من بعد مجرى ، لأنها تظهر بالليل كالنجم وبالنهار يرى منها دخان » . ومن فرط إعجاب الناس بهذه المنارة أحاطوها بالخرافات المروية في كثير من كتب الجغرافيا والرحلات والعجائب .

ورسم ظافر — من وحي هذا الجو المفعم بالإعجاب والانبهار من الناس ، وبالحب والتشوق من ظافر — رسم صورة من أجمل صوره ، كشفت عما اعتاده أهل الإسكندرية من قضاء الليل بجزيرة فاروس ، والتمتع بمشاهد الجمال فيها ، وتنسم هوائها ، والتردد على منارتها ، قال (١) :

مضت لي في جزيرتها ليال	لآل هن لو قيل الصواب
فلو نظمت قلائد للغواني	لمـا رضيت عن الدر الرقاب
كأن البدر فيها عين مـاء	لها من فائض النور انسكاب
تضيء بها المساجد فهي تزهو	بياضا مثل ما تزهو الكعاب

(١) ٢٧ .

تجاورها منارتها ، وفيهـــا وفي فانوسها عجب عجاب
فتـــاة غادة بازاء شيخ قصير طال بينهما العتاب

وفتن زائرو الإسكندرية بذلك البياض الذى يجلل المدينة ، فيجعلها كالدرة اللامعة ، تشرق فى النهار ، ويسطع ضوءها بالليل ، فتخطف الأبصار . فقد كانت قصورها مشيدة من الرخام والحجر الأبيض ، وطرقها مرصوفة بالأحجار . وكان محتما أن تستوحى الأساطير هذه الظاهرة التى تنفرد بها الإسكندرية بين مدن مصر ، فتلفها بغلاف أسطورى ساحر . قال ابن خرداذبه (١) : « إن أهلها مكثوا سبعين سنة لايمشون فيها بالنهار إلا بخرق سود ، مخافة على أبصارهم من شدة بياض حيطانها » . وقال ابن الفقيه (٢) : « كانت الإسكندرية بيضاء تضىء بالليل والنهار . . وما أسرج فيها أحد سراجا بليل من ضوئها » .

وعاشت هذه الصورة كامنة فى لاوعى ظافر . فلما تراءت له الإسكندرية — وهو بالفسطاط — بزغت فى مخيلته مرتدية هذه الحلة الجميلة ، التى حازت لها الإعجاب ، وأكسبتها السحر والشهرة . فهفت نفسه إلى معاودة العيش فيها (٣) :

ترى أزور القصور البيض ثانية بالرمل بين غصون التين والعنب؟

واستوحى ظافر ما شاع من خرافات معجبة حول بلده ، فقال (٤) :

وتبهجنى تلك القصور التى بها بياض يرد الطرف وهو كليل

فقد عشق ذلك البياض فى بلده ، وفى محبوبته ، وخلط بينهما ، فمنحهما أوصافا واحدة تصدق عليهما (٥) :

وبالجانب الشرقى بالثغر شادن له من فؤادى ناصب وشفيع
غرير ، له ثغران مثلان : واحد يرى فيه ،والثانى بفيه يضوع

---

(١) المسالك والممالك ١٦٠ .
(٢) مختصر البلدان ٧٠ — ٧٢ .
(٣) ٢٥ .
(٤) ٢٠٦ .
(٥) ١٥٤ .

شريكان فى قلبى ، بوصف توافقا

عليـــه ، فهذا مثـــل ذاك بديع

نسيما وبردا وابيضاضا وطيبة فهذاك ممنوع وذاك منيع

وعجب زوار الإسكندرية لهذه الأعمدة التى تنتصب فى كل ناحية منها، ولم يدرك عامة الناس أنها بقايا معابد ومدارس يونانية ورومانية ، فدفعهم هـذا إلى إحاطتها بالقصص التى تحاول أن تبرر إقامتها ، بل حدا كثيرا من الناس إلى أن يظنوا أنها إرم ذات العماد، التى ذكرتها سورة الفجر . قال ابن جبير(١) الذى زار الإسكندرية فى سنة ٥٧٨هـ : وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعلوا واتساعا وحسنا مالا يتخيل بالوهم ،حتى أنك تلقى فى بعض الممرات بها سوارى يغص الجو بها صعودا ، لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصل وضعها »

ورأى البلوى(٢) أن هذه الأعمدة — وعمود السوارى خاصة — تفوق المنارة فى الروعة . وقد زار بعض هذه البقايا (السيرابيوم) وأعطانا وصفا مفصلا له فى قوله : « أغرب من هذا حديث السارية بقبلى البلد ، خارجا منها بنحو ميل ، موضع مرتفع شبه الأكمة والربوة ، يقال إنه مسجد سليمان بن داود عليهما السلام ، طوله مائتان وثلاثة وعشرون باعا ، وعرضه مائة باع ، قد دارت به مائة سارية ، فى القبلة منها خمس عشرة وفى الجنوب كذلك ، وفى المشرق خمس وثلاثون ، وفى الغرب كذلك غلظ كل سارية سبعة عشر شبرا وطولها نحو الخمسين شبرا ، بين كل ساريتين ثمانية عشر شبرا » .

وكانت هذه البقاع من أجمل الأماكن بالإسكندرية ، إذ اجتمع فيها

(١) رحلته ٩ .

(٢) ألف باء : ٥٣٨ .

البعد عن المدينة وسحر الماضى ، وجمال الحاضر ، فقد صارت حدائق غناء ، قال ظافر (١) :

جنان الخبر أشرفها مكانا بمنطرقى تروجة والسوارى
سمت أشجارها فالنور فيها لفرط الضيق كالشهب الدرارى
سماوات من الأوراق فيها شموس من بدور فى ثمار

فلا عجب أن تصير موضع نزهة أهل الإسكندرية ، يخرجون إليها فى مواسمهم ، ويقيمون بها ، و يعقدون مجالس السمر ، قال (٢) :

سقى الله السوارى بالسوارى ودرت فى مذاهبها الذهاب
فكم عيد بها أهدى وأدى حبيبا كان أبعده اجتناب

وإذا كانت صورة الإسكندرية ارتبطت فى أذهان الكاتبين عنها بصور البحر والمنارة والقصور البيض والسوارى ، وكان لها هذا الارتباط فى ذهن ظافر ، فالحق أن له شأنا يختلف عنهم فيه . فظافر ابن الإسكندرية ، ترتبط صورتها عنده بالأماكن التى عاش فيها أو قضى فيها شطرا سعيدا أو بائسا من حياته ، أعنى أن صورتها ترتبط عنده بما كان له شأن فى حياته ، وليس ضروريا أن يكون من معالم المدينة أو عجائبها . وإذا بحثنا عن شىء ارتبطت صورة الإسكندرية به فى ذهن ظافر لم نجد ما يستحق هذا الوصف أكثر من خليجها ، الذى تقوم مقامه الآن ترعة الإبراهيمية . فلم يردد من الإسكندرية شيئا مثل ما ردد اسم الخليج فى أشعاره التى تشوق فيها إليها ، وتمنى عودة عهده بها . ولا يخفى ظافر سبب هذا الإعجاب الشديد بالخليج ، والحنين الدافق إليه (٣) :

وفى جانبى ذاك الخليج مرابع سحبت بها ذيل الصبى ، والصبى بردى
إذا سرحت فيها الرياح تحدثت لدينا بأسرار الرياحين والورد
وينسج فوق الماء فيه نسيمها حبيكا حكى مستحكم الزرد السرد

ولم يتمتع على الخليج بصباه وحده ، بل لازمه من يلازم الصبى : الحبيب ، فعلى الخليج قضى أجمل أوقاته بين شباب ضاف ، ولهو خالص ، وحب صادق (٤) :

---

(١) ١٠٩ .
(٢) ٢٧ .
(٣) ٧٢ .
(٤) ١٣٠ . وانظر ٧٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٤ .

ديار لبست اللهو فيها مع الصبى فنعم الحلى فيها ، ونعم الملابس
ليالى أعطى الحب فضلة مقودى ذلولا، وعند العتب واللوم شامس
أصيد المها فيهن ثم يصدننى فكل لقلبى بالشباب فرائس
تساوت بنا حال الصبابة والصبى فكل لكل مشبه ومجانس
فأرشف درا لم يثقبه ناظم ونور أقاح قد نمته المغارس
وأقطف ورد الخد والورد زاهر وألزم غصن البان والغصن مائس
زمان كطيف زار وازور وشك ما تصافح جفنا مغرم وهو ناعس

وكان الخليج أحب أماكن النزهة إلى ظافر ، لم يرد ابتعادا عن المدينة ، أو راحة ، أو سمرا ، أو لهوا ، إلا فكر — أول ما فكر — فى الذهاب اليه ، مهما كان الوقت . فقد كان يتردد عليه فى الوقت الطبيعى للنزهة(١) :

أهذا الخليج فمرحبا بزمانه يا حبذا الآصال بين جنانه
فامرح بطرفك كيف شئت ترى به معنى يفك القلب من أحزانه

فإن تأخر به الوقت قضى الليل هناك (٢) :

فيا دهر ألا كان ليلى كله كليلة شرقى الخليج من الثغر
فيا ليلة ماذا مضى تحت جنحها من الملح اللاتى تجل عن القدر

والنهار لايقل جمالا عن الليل على الخليج ، فهذا له هدوءه وسمره ، وذاك له إشراقه وألوانه ونشاطه (٣) :

وطورا على ماء الخليج وقد جلا عليه نسيم الريح كشحا معكنا
كأن حباب الماء ثوب برائش وقد شابه لون الضحى فتلونا
حباب حكى بطن الحباب وظهره إذا الريح صاغت منه درعا وجرشنا
فكان كأجياد الظباء تلفتت فأظهرن تدريجا هناك مغضنا

(١) ٢٤٢ .
(٢) ١١١ .
(٣) ٢٨٤ .

وأضفى ظافر كل ألوان الجمال على الصور التى رسمها للخليج ، فأبرزه بقعة فريدة فى حسنها ، وحيدة فى إغرائها ، لو سمع بها كسرى لعاف كل مواطن الجمال فى بلاده ، وأسرع إليها مشغوفا (١) :

ذا منظر ، لو أنصفوه سعى له كسرى أنو شروان من إيوانه

فالمرء يذهب إليه ، وقد أضر به العطش ، فيفجأ بمرآه : فيذهل عن نفسه ، ويغفل عن عطشه . ويظن أنه قد أتى للتمتع بذلك الحسن (٢) :

فيا حبذا ذاك الخليج الذى له من الحسن مايلهى عن الشرب واردا
وقد راق لما رق عذب زلاله فأصبح ملآن الموارد زائدا

فقد رأى فيه الماء يمتد فى إشراق كالسيف (٣) :

وسيف خليجها كالسيف حدا وفى أرج الرياح له اضطراب
يمد مدى تلقب بالمجارى وليس لمدية منها قراب

وفى بريقه وتلويه وسرعته كالحية(٤) :

والماء يبدو فى الخليج كأنه أيم لسرعة سيره محفوز

ويمر به النسيم ، فيداعبه ، فيضطرب وجهه ويشبه الدرع ، تلك الصورة التى تتردد كثيرا فى شعر ظافر بل فى الشعر العربى أجمع (٥) :

وتكسوه الرياح دروع حرب ولا طعن هناك ولا ضراب

أو يشبه المبرد(٦) ، وهى الصورة التى تلى سابقتها كثرة فى الشعر العربى فهاتان الصورتان تقليديتان ، ولكن ظافرا ينفرد بصور أخرى ، أخذ بعضها من التراث العربى القديم ، غير أنها كانت قديما تخلع على الأطلال المتهدمة على الصحراء ، فأطلقها هو على المياه المضطربة ، وأضاف إليها عنصرا من بيئته حين جعلها حجابا ، قال(٧) :

(١) ٢٤٢ . (٣) ٧١ .
(٣) ٢٧ . وانظر ٢٦ ، ١٣٠ (٤) ١٢٤ .
(٥) ٢٧ . وانظر ٢٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٨٤ .
(٦) ٦٨ . وانظر ٢٦ ، ٧١ .
(٧) ٢٦ .

فكأنه والريح تنقش متنه حرز عليه يدق خط كتابه

واستلهم بعضها الآخر من مخيلته هو ، واستوحاها من ميله إلى التشخيص . فقد جعل هذا الماء فى لونه واضطرابه كأعناق الظباء راعها أمر ما فتفتت إليه تتبينه ، كما يتجلى فى الأبيات السابقة . وجعل تياره الذى يستدير به خراطا يحاول أن يصنع مدهنا (١) :

إذا أبرم التيار داراته حكى أنامل خراط يحرر مدهنا

ومنحه صورة من وحى البيئة المصرية لا أذكر لها مثيلا فيما قرأت من شعر ، قال(٢) :

كضفيرة الخواص أمكنه لها سعف ضفا فأدق ضفر لبابه

واستغرقه الماء مرة فعاش له ، وأعطاه عدة صور متتاليات ، ترسم جوانب الجمال المتنوعة فيه(٣) :

ودرجت ماءه الصبا فحكى ثوب حرير مد مقس أزرق
وراق بين الرياض فهو كما فرج فوق الغلالة اليلمق
وحمرة الشمس فى الغدير وقد مرت عليه ريح الصبا تبق
كأنه صدر فضة قصرت حافته وهو مذهب محرق
كدرهم حط فوق سندسة أدق فيه النقاش ما زوق
كـأنه والنبـات يحصره عين بها هدب جفنها محدق
كالبدر فى زرقة السماء وقد حفته فيها النجـوم بالمشرق
صفا كودى وعبرتى ، وحكى قلبى بتمويجه كما يخفق

وعندما فرغ ظافر من رسم المجرى الأبيض البراق للماء ، أحاطه بكساء أخضر من الرياض افترش الأرض وكأنه الحرير أو المخمل ، وبكساء آخر أسود من السحاب التحف السماء ، يتخلل الأول بقاع من النور الأبيض ، والثانى أشعة من البرق الساطع(٤) :

(١) ٢٨٤ .
(٢) ٢٦ . (٣) ١٨٢ .
(٤) ٢٨٤ . وانظر ٦٨ ، ١٢٥ ، ١٨٢ .

وفوق الثرى خز من الروض أخضر

يقابل خزا فى ذرى الغيث أدكنا

ترى ذا بطرز النور سفلا مخملا وذاك برقم البرق علوا محسنا

وانتشرت على الرقعة الخضراء ألوان مختلفات من أنواع الزهر التى تناثرت حول الخليج وجعلت منها روضة زاهرة ، ثرية ، مختالة :

مكان به زهر البساتين والفلا تخال عليه منه ثوبا مفننا

بهارا وأزهارا ووردا ونرجسا وآسا ونسرينا وجلا وسوسنا

ولا يكتفى ظافر بهذا الترديد المعجب بأسماء الزهر ، فهو — إلى جانب غرامه بالموضع — فنان ذو حس مرهف ، ومخيلة لاقطة ، وتوهم سريع ، يرى الشيء فيحوز منه الإعجاب ، فيثير فى ذهنه صورة تلو صورة من الخيال البديع (١) :

كأن الربا فى الزهر ، والماء حولها قلانس وشى حولهن طيالس

كأن نبات النرجس الغض إذا بدا شراريب خضر فوقهن كبائس

وقد قابلت وردا جنيا كأنه مطارف خز فيه قان ووارس

وقد أظهر الخيرى صلبان عسجد على أربع حزن والقمع خامس

ويحس ظافر أن صوره لم تكتمل ألوانها بعد ، فيضيف إليها لونا مركبا اتخذه من الحصى وآخر بسيطا من الندى (٢) :

تخال حصى الياقوت فيه ملونا فلو صابت أحجاره كان معدنا

وقطر الندى فيهن أنصاف لؤلؤ فلو جمدت كانت تصان وتقتنى

---

(١) ١٣٠ . وانظر ١٢٥ .

(٢) ٢٨٤ .

فإذا رفع بصره عن فراش العشب ، ووشى الزهر ، وإشراق الماء ، أخذته النخيل السامقة فى كبد السماء ، تدلت من رءوسها الثمار ، كأنها الحوارى الهيف ، تحلت بالعقود ، أتت للرى(١):

والنخل كالهيف الحسان تزينت   فلبسن من أثمارهن قلائدا

فإذا ما ارتوت سكرت من خمرة ، وتراقصت أغصانها مغتبطة فى نشوتها(٢) :

وترقص فى جوانبه غصون   كرقص الغيد ماد بها الشراب

وبهذا وفر ظافر لصوره الحقيقة والخيال ، واللون والرائحة والحركة ، والموضوع والتفاصيل . ولكنه أراد أن يمنحها الجمال كله الذى تصوره العربى وهام به . فكان لا بد من الغناء لتجتمع اللذة جميعها . فلم يفتت الرجل على رسومه ، ويجلبه لها من خارجها ، بل اتخذ من الطبيعة نفسها . اتخذه فى أكثر صوره من تغريد الطير :

وتشدو بينها الأطيار شدوا   رخيما للقلوب به انجذاب

والتقط فى بعض صوره واحدا من الطير ، ركز عليه الضوء ، وخصه بالذكر (٣) :

ورنة زامر الدولاب فيها   توافق طيب ألحان القمارى

وقد بث النسيم بخور عطر   يصعد طيبه من غير نار

وشأن ظافر دائما ، ما إن سمع شدو الطير ، والتفت إليه فرآه ، وتأمله فانطبعت صورته فى خلده ، حتى أثارت فى مخيلته صورا أخرى ، وجد أنها قريبة منها أو من طبيعتها أو ذات إيحاء مماثل لإيحائها ، أو تعطى انفعالا قريبا مما يعتلج فى نفسه (٤) :

شدت فهى مثل الصب أودى غرامه   بكتمانه حتى تلاشى فأعلنا

إذا راسلتها شمأل خلت صبية   يغنين شيخا أعجم اللفظ ألكنا

---

(١) ٦٨ . وانظر ١٣٠ .

(٢) ٢٧ . وانظر ٢٦ ، ١٣٠ ، ٢٤٢ .

(٣) ١٠٩ . وذكر اليمام والحمام فى ٢٦ ، ١٢٥ ، ١٨٢ .

(٤) ٢٨٤ .

واتخذ الغناء فى كثير من صوره من أنين السواقى ، التى يسميها الدواليب، ونقيق الضفادع(١) :

وإيقاع الضفادع فيه عال وللدولاب زمر واصطخاب

ولا يرتبط الخليج وحده بصوت الدواليب والضفادع فى ذهن ظافر ، بل ترتبط به صورة الإسكندرية عامة، فلا يذكرها إلا تذكر هذا الصوت ووضعه فى تفاصيل رسومه لها ، حتى أننى أرجح أن الشعر الذى تحدث فيه عن هذا الصوت ، ولم أستطع له تحديدا ، إنما يتحدث فيه الشاعر عن الإسكندرية .

واتخذه ظافر فى إحدى رسومه من وسوسة الغصون ، التى تمثلت فى مخيلته مناجاة بين أحبة(٢) :

فكأن وسوسة الغصون أحبة كل يبث أخاه من ألحانه

وتمت بهذا صورة الخليج التى رسمها ظافر . رسم فيها الماء ، والأرض والسماء ، الماء بلونه وحصبائه وحركته، والأرض بعشبها وزهرها وأشجارها والسماء بسحبها وبرقها . ووفر لعناصر صوره اللون والحركة والصوت والرائحة . ومنح كلا منها صورة أخرى معادلة لها فيما تثير فى المشاهد من الإحساس بالجمال ، والشعور بالإعجاب والنشوة .

وعنى ظافر فى رسومه بالحى الذى نشأ فيه عناية قريبة من عنايته بالخليج وأعطاه منها ما يقارب ما أعطاه وفرة وحسنا ، وهو الظاهرية . فقد أعلن أنها كانت مقاما ، وملهى له(٣) :

فظهر الظاهرية لى مقام تخب بنا إلى دده الركاب

فتمتع فيها بعيش رخى ، وحبيب مؤات (٤) :

رعى الله عيشا ناعما سمحت به لنا فى ظهور الظاهرية أزمان
فكان كما زار الخيال مسلما وودع إلا أننى فيه يقظان

---

(١) ٢٧ . وانظر ٢٦ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ٢٤٢ .
(٢) ٢٤٢ . (٣) ٢٧ . وانظر ٢٧٨ .
(٤) ٢٦٢ .

فكم لى على تلك الربا من عشية تغازلنى فيها لدى البان غزلان
قدود حكتهن الغصون ، تهزها
روادف ، تحكيها من الرمل كثبان

واختلفت الظاهرية عن الخليج فى الأوقات التى تغنى بها ، فلم يذكر منها غير الأمسيات . ولعل سبب ذلك أنها كانت مقامه ، وموضع كده ، فلم يحب منها إلا أوقات راحته بعد انقضاء نهار العمل ، وتفرغه إلى نفسه وراحته ومتعته(١) :

أكثبان رمل الظاهرية ، هل إلى عشياتك المستحسنات سبيل ؟

واختلفت عنه فى الطبيعة ، فإنها كانت ربما تعلوها الرمال(٢) :

ولاسيما إذا كسيت رباها ملابس كان يرقمها السحاب

واختلفت فى قربها من المدينة ، واتخاذ الناس إياها مقرا لهم ، وتشييدهم فيها القصور ، منذ زمن بعيد تخلفت عنه آثار ما زالت تشهد بما كانت عليه المنطقة ؛ وفى قربها من بحيرة مريوط(٣) :

عسى الريح تهدى نفحة ظاهرية بها من شميم الساحلين ردوع
تحدثنى : هل روض القصر ، واعتلى
على حاجر الباب القديم ربيع
وهل درجت ماء البحيرة شمأل فلاحت عليها للحباب دروع

ولكنها — بعد ذلك — كانت شبيهة بالخليج ، فى كثير من الجوانب . فالمياه المضطربة دروع ، والأرض رياض موشاة بالزهر(٤) :

عسى الجانب الغربى يهدى نسيمه
من الثغر بالعرف الذى كنت أعرف

---

(١) ٢٠٦ . وانظر ٢٦٢ .
(٢) ٢٧ . وانظر ١٣٠ .
(٣) ١٥٤ . وانظر ٢٠٦ .
(٤) ٢٧٨ . وانظر ٢٧ ، ١٣٠ ، ٢٦٢ .

به من ظهور الظاهرية نشوة   يولدها روض مطل مفوف

والسماء ملبدة بالسحب (١) :

وافت ظهور الظاهرية والربا   عليهن من رقم السحاب طنافس

والحمام مغرد(٢) :

ويطربنى فى جانبيك حمائم   لها بين أوراق الغصون عويل

والنسيم واهن ذكى الرائحة (٣) :

وهل يتلقانى نسيمك سحرة   وقد صافح الأزهار وهو عليل؟

ولا يختلف منظر الرياض هنا إلا فى هذه الثمار المتساقطة من أشجارها، والمتناثرة على الأرض ، كأنها الدر(٤) :

وثامر أثمار الكروم منثر   عليها ، كما بثت فريدا أوانس

وتم بهذا صور الظاهرية التى رسمها ظافر . فكشف عن عجلة فيها ،لم تهدأ عند واحدة منها ، أو تفصيل من تفاصيلها . فقد كان همه كله فى المعالم الكبيرة والخطوط العريضة ، والألوان السريعة المبهمة . فجاءت الصور أقرب إلى التجريد ، ولذلك لم تستدع فى مخيلة الشاعر صورا أخرى ، ذات ارتباط بها فى وفرة ، كما فعلت صور الخليج .

وأكثر ظافر من الحديث عما سماه « الرمل » ، وأعطاه من الصور ما يجعله موضعا معينا اختص بهذا الاسم . وبالرغم أن عنايته به أقل من عنايته بالخليج والظاهرية ، لم يتغير نهجه فى رسمه عما رأيناه فيهما . فقد كان « الرمل » روضة ، وجد فيها متعته(٥) :

وهل إلى الرمل المندى نباته   فأختال فى تلك الرياض وأرتع

ونعم بحبه(٦) :

فبالرمل من شرقيه من بحبه   سرائر تسرى فى أدق عظامى

---

(١) ١٣٠ .   (٢) ٢٠٦ .

(٣) ٢٠٦ .   (٤) ١٣٠ .

(٥) ١٥٣ .   (٦) ٢٣٤ .

وأكثر ظافر من ذكر الرمل فى صور أخرى ، ولكنها — فى الأرجح — لا تعنى موضعا معينا ، وإنما تستهدف أنهم اتخذوا من رمال الإسكندرية منتدى لسمرهم (١) :

ألاهل إلى برد الأصائل بالحمى — على الرمل فى ظل الأراك إياب؟
ليالى يزهينى لذيذ حديثكم — وألفاظه مهما استعدت عذاب

ومسرحا للهوهم(٢) :

وفى عذبات الرمل دون هرقلة — مسارح نسعى بينها ومراتع
رياض إذا هب النسيم خلالها — سعى وهو واهى الخطو فيهن ظالع

ولم يهمل ظافر بقية أحياء الإسكندرية . فقد وردت أسماء كثير منها فى شعره ، مقرونة بتمنيه العودة إليه ، ومراجعة العيش فيه ، حيث تمتع بالشباب واللهو . ولكنه لم يقف وقفة خاصة عند أحدها ، تبيح لنا أن نقف معه نتأمل ما صنع . قال(٣) :

وشرقى المحجة لى غزال — تحجبه الصوارم والحراب
وكم لى بالكنيسة من كناس — به رشأ جلته لنا القباب
وكم لى بالمجالس من جلوس — تحف به الأحبة والصحاب
وأذكر قصر فارس والمعلى — ففيه لكل موعظة مناب

وقال(٤) :

وهل أظهرت فى ظاهر الحسن روضة — إلى ربوة ابن العاص منه فصاعدا؟
إلى جانبى قصر الدخان مغربا — إلى المقس روى العهد تلك المعاهدا
وهل قلدت جيد القليدة بعدنا — يد الغيث من زهر الربيع قلائدا ؟

وذكر ظافر بعض القصور — أو أطلال القصور — التى كانت تزخر الإسكندرية بها . واكتفى بالإشارة إلى بعضها ، كذلك الذى كان فى

---

(١) ٣١ .
(٢) ١٥٥ .
(٣) ٢٧ .
(٤) ٧١ .

الظاهرية ، وقصر الدخان . ووقف عند بعضها الآخر وقفة فيها شيء من الطول .

فقد بعث سلامه المشتاق إلى القصرين (١) :

سلام على القصرين من منشأ الصبا إلى ساحل الثغر المطل على البحر
سلام امرئ ما غادر الدهر عنده سوى أنه يرفض عن ضرم الصدر

ووصف رمالهما التي مرت عليها الرياح ، فتلاعبت بها تلاعبها بالمياه ، وخلفت بها ما أشبه غضون جباه الروم عند التقطيب (٢) :

ودرجن بالقصرين رملا كأنه غضون جباه الروم وهي عوابس

ونظر إليهما من بعد ، فرآهما رجلين نهض بهما السراب ، وضرب بهما المثل لمن يتعظ (٣) :

به القصران كالرجلين ، لاحا على بعد يقلهما السراب
أقاما صاحبين مع الليالى ولم ينعب بينهما الغراب
ولكن سوف يفترقان قسرا وهل يبقى مع الدهر اصطحاب؟

وبالرغم من ذلك كانت وقفته عندما سماه « قصر فارس » أطول ، وتصويره له أكمل وأجمل . فقد أورد ما كان شائعا بين الناس من بناء الفرس له(٤) :

وصافحن أجناسا من النور سحرة بأرض بنى فى تربها القصر فارس

وصور ما بقى منه أطلالا منهارة ، تسفى عليها الرياح التراب ، هجرها أهلها ، وسكنها الطير ، ونما عليها العشب ، فأشبهت الناقة الباركة على الأرض ، وقارن فى لمحة بين حاضره الموحش الذليل ، وماضيه الصاخب العزيز(٥) :

وهى من بعد قوته فأضحى كما بركت على الغبراء ناب
وأفنت ملك ساكنه الليالى وكم فاضت بعسكره الشعاب

(١) ١١١ (٢) ١٣٠ .
(٣) ٢٧ . (٤) ١٣٠ .
(٥) ٢٧

فأصبح دمنة تغدو السوافى عليه ، وقصره قفر يباب
تنوح الهاتفات على ذراه وتعشب فى أسافله الرحاب

وخلص ظافر من هذه الصورة الموحشة للقصر إلى صورة أخرى ، تفيض بالجمال ، وتزهو بالأصباغ . فقد أحاط الزهر من شقيق وأقحوان وبهار بالقصر . فاستوقف الشاعر وبخاصة الشقيق بحمرته الفانية . فرسم له صورة ، وفر لها الشكل واللون والحركة والإيحاء والخيال ، قال :

ففى تلك الشقائق منه شاقت شقائق شققت منها الثياب
تراءت من كمائمه فكانت كحمر اللاذ أبدتها العياب
تحركها الصبا فتخال فيها بحار دم يموجها انصباب
كأن الحمرة الحمراء راقت وأوراق الشقيق لها قعاب
وتحسب فحمة فى كل ساق أحاط — سوى اليسير — بها التهاب
كأن الأقحوان به ثغور مفلجة مؤشرة عذاب
وقد بهرت دنانير دعوها بهارا ، كنزها ذاك الحباب

وتكشف هذه الصور التى رسمها ظافر للقصور أنه لم يفعل ذلك لأنها كانت موطن لهوه ، كما كانت أحياء الإسكندرية ، إنما فعله لأنها اتخذها للعظة ، وشاهدة على أن الدهر لا يترك عزيزا على عزته ، أو صديقا مع صديقه . ولم يعن بتفاصيل رسومها كما عنى فى صوره لغيرها من بقاع الإسكندرية ، وإنما استلهم منظرها من بعد فى كثير من الأحيان ، ولكنه عندما أراد أن يرسم الزهر عاد إلى طبيعته فى الرسم ، واتبع نهجه الذى ألفناه منه ، فوفر لرسومه كل عناصر الجمال ، واعتمد فيها على الحقيقة والخيال :

ولما كان ظافر يرسم من الذاكرة ، ويتبع ما تأتى به ذكرياته ، فقد اختلفت الصور التى أعطانا إياها ، فقد كان يحن أحيانا إلى الإسكندرية ، والعودة إليها ، دون أن تتركز أفكاره على بقعة معينة منها . وكانت مشاعره تحوم أحيانا أخرى حول واحد من أحيائها أو قصورها أو آثارها أو

متنزهاتها ، فيتجلى أمامه ، فيخصه بالرسم . ولذلك نجد فى ديوانه الصور العامة للإسكندرية ، والصور الخاصة لمنطقة منها .

ونجد فى بعض الصور العامة إطلالة بعيدة ، لا تقف عند شىء بعينه(١) :

نعم المحل ونعم مرتبع به   يجلو جنان الصب من أوصابه
يا ليتنى أحظى بشم نسيمه   وبديع منظره ، ولثم ترابه

ونجد فى بعضها اقترابا ، يجذب النظر إلى المعالم الكبيرة ، ويعطيها حقها من الألوان ، ولكنه لا يبين المعالم الدقيقة ، أو التفاصيل المفردة . وأكثر ما نجد من هذه المعالم الكبيرة فى صور ظافر خضرة النبات . فالإسكندرية فى خلده روضة فسيحة الجنبات واسعة الأرجاء ، حاكتها يد الأمطار الصناع ، ووشتها بأصناف الأصباغ(٢) :

والروض ينشر من نواره حللا   مما تحوك يد الأنواء والسحب

ونشرتها على كل ثرى ، فغطت حتى الرمال (٣) :

حيث النسيم الساحلى يزوره   وندى رياض الرمل عطر ثيابه

فإذا ما جاء الربيع زادها جمالا ، وألوانا ، ووشيا ، وبسطة ، فبدت كالبساط المرصع بالأحجار الكريمة ، المتنوعة الألوان(٤) :

وقد نشر الربيع على الروابى   ملابس رقم أنداء القطار

وازدهرت الأزهار ، تتحدث بنعمة المطر عليها ، وتبعث شكرها له ريحا ذكية تعطر الآفاق(٥) :

منابت أزهار يكرر نشرها   على القطر شكرا ذائعا ومحامدا
تخط يد الأنواء فيها صحائفا   فينشدها راوى النسيم قصائدا

---

(١) ٢٦ .
(٢) ٢٥ . وانظر ٧١ .
(٣) ٢٦ .
(٤) ١٠٩ وانظر ٧١ .
(٥) ٧١ .

ويستهوى الشاعر من هذه الأزهار الأقحوان والشقيق والبهار ، فيكثر من رسمها فى صوره المتعددة ، ويطيل الوقوف عندها ، ويعطيها تفاصيلها ، ويمنحها صورا أخرى من خياله ، تستجيب لما تبثه فى نفسه من مشاعر (١) :

والأقحوانة تحكى ثغر غانية ... تبسمت فيه من عجب ومن عجب
فى القد والثغر والريق الشهى وطيـ ... ـب الريح واللون والتفليج والشنب
كشمسة من لجين فى زبرجدة ... قد أشرقت تحت مسمار من الذهب
وللشقائق جمر فى جوانبها ... بقية الفحم لم تستره باللهب
وللبهـــار دنانير منمقة ... سبك الغيوث بنار الشمس فى العشب

ولكنه لا يهمل غيرها من الأزهار بل رسم السوسن والريحان بين وقت وآخر .

فإذا ما فرغ من الزهر كانت الأشجار والأغصان مناط إعجابه واهتمامه ، وبخاصة إذا ما تكاثفت وزاحم بعضها بعضا ، وهبت عليها الرياح فتمايلت وصارعها الضوء فلم يستطع أن ينفذ من خلالها إلا قليلا قليلا (٢) :

كأن الغصون المائسات رواقص ... تثنت على إيقاع دف ومزهر
تضايقت الأشجار فى الجو فوقها ... سوى فرج تهدى الضياء لمبصر
فيبسط منها البدر كل مدرهم ... وتنشر منها الشمس كل مدنر

فإن لم تتمثل له الإسكندرية روضة كانت حديقة كروم ، وموضعا للنزهة ، ومسرحا للهو (٣) :

فكم لى به من غدوة وعشية ... يقصر عن إدراك أمثالها المنى
فطورا لنا بين الكروم مرابع ... يشاهد فيها البدر أمثاله بنا

ويبدو أن الإسكندرية كانت تعرف فى ذلك الوقت — شأنها فى العصر الحديث بكثرة الكروم وجودتها ؛ قال المقدسى عنها (٤) : « جيدة الفواكه والأعناب » .

---

(١) ٢٥ . وانظر ٧١ ، ١٠٨ .
(٢) ١٠٨ ، وانظر ١٠٩ ، ١٨٣ .
(٣) ٢٨٤ . وانظر ٢٥ .
(٤) أحسن التقاسيم ١٩٧ .

ومهما كانت صورة الإسكندرية التي تنتصب أمام ظافر ، فإنها كانت تجلب إليه معها هواء الإسكندرية البليل العطر . فما من مرة ذكر الإسكندرية دون أن يذكر نسيمها الساحلي أو الصبا (١) :

وفوقنا شاهقات الكرم أخبية   من حولها قضب الأغصان كالطنب
وللنسيم العليل الرطب وسوسة   فيهن كالسر بين الرفق والصخب

ولم يذكر هذا النسيم دون أن يذكر له إحدى صفتين له علقتا بذهنه أو كلتيهما معا ، فهو نسيم رطب قد بلله الندى ، أو حمله الزهر من شذاه العطر (٢) :

وهل أتملى من نسيمك سحرة   يصافح مطلول النبات المنور؟

ولا ينسى الشاعر أن يضيف إلى صوره الكبيرة الماء ، تمر به الريح فتجعله كالزرد (٣) ، أو تأتى عليه الشمس أشعتها الحمراء عند الغروب فيختلط فيه بياض بحمرة (٤) :

ومن أصيل كأن الماء فيك به   ذوب اللجين علاه ذائب الذهب

أو يلتمع في وسط ذلك البساط الأخضر ، فيوحى إليه صورة يأخذها من الثياب الحريرية التي عرفت بها مصر في تلك العصور (٥) :

كأن بياض الماء في كل جدول   إذا لاح في غصن من الروض أخضر
غلالة شرب ضمها فوق لابس   رشيق قباء أخضر لم يزرر

ويرفع ظافر نظره عن الأرض في بعض صوره إلى السماء ، فيراها ذات سحب وبروق ورعود ، فهو لا يحبها صحوة ، وإنما يحب المطر الذي عرفت به الإسكندرية والشواطىء الشمالية دون بقية أنحاء مصر (٦) :

---

(١) ٢٥ . وانظر ٢٦ ، ١٠٨ ، ١٦٤ ، ١٨٣ ، ٢٧٨ .
(٢) ١٠٨ .
(٣) ٢٥ . وانظر ١٠٨ .
(٤) ٢٨ .
(٥) ١٠٨ .
(٦) ١٨٢ .

والغيم يبكي والبرق يضحك والـ ـــرعد من الغيظ صائح محنق
والبرق ثوب تشف حمـــرته والرعد تصويتـــه إذا خرق
كأن قوس الغمام حاشـــية من سفط الخز بعد ما طبق
أو كحواشي عصائب ظهرت ألوانهـــا فى جبين من يعشق
دوائر صـــبغت مداخـــلة فـــكل لـــون بضده ملصق
أطواق لاذ فى جيد غانية درج ألوانهن من طوق

وبوشك ظافر أن يفرغ من رسومه ، فقد خطط لها المناظر العامة ، والشعور الغالب ، وحدد التفاصيل وأبرزها ، ومنحها الأشكال ، والألوان ، والحركات ، واستخلص منها إيحاءاتها من صور متوهمة ، ومشاعر مستثارة . فتفجؤه أذنه بما كانت تنقل إليه فى بلدته من أصوات تهش لها ، وتتمتع بها ، فيسجلها فى رسومه ، يستلهمها آونة من تغريد الطير ، والحمام خاصة(١) :

والورق فى خلل الأوراق مسمعة طورا غناء ،وطورا نوح منتحب

ويستوحيها أخرى من السواقى(٢) :

وإن نعرت فيها النواعير رجعت بها الطير ألحان الغناء المحرر

وأحب الأوقات التى يرسم فيها صوره : الأصيل والعشية ، والغدوة . وعندما تسقط الشمس فى الأفق ، عازمة على المغيب ، محتضنة فى الوداع الوجود بأشعتها الحمراء ، صابغة كل لون ، وطارحة ذهبها الذائب على فضة الماء السائلة :

تلك هى الصور ، التى ارتدتها الإسكندرية فى ذاكرة ابنها ،ومثلت له عليها فى إقامته بالفسطاط . ونحن عندما نتأمل الصور العامة منها نجدها تقترب من بعض الصور الخاصة اقترابا ينسينا ما عداه . فالصور التى رسمها للإسكندرية أقرب ما تكون إلى الصور التى رسمها لخليج الإسكندرية ، فى الإطار العام ، والشكل الكلى ، والتفاصيل المنثورة ،

(١) ٢٥ . وانظر ١٦٤ ، ١٨٣ .
(٢) ١٠٨ . وانظر ١٠٩ .

والمشاعر المستوحاة . وجلي أن الصورتين مختلطتان في ذهنه كل الاختلاط ، وأنه يصور الإسكندرية من خلال تصويره للخليج ، ويذكرها على هيئته ، إذ كان متنزه آصاله ، وملتقى أصدقائه ، ومسرح لهوه ، ومهد حبه ، ومنتدى سمره . فكان الخليج عنده هو الإسكندرية كلها ، أو كان الخليج جوهر الإسكندرية ، أو أجمل ما فيها ، حتى أنه عندما أراد أن يفرق بين الإسكندرية والفسطاط اتخذ من الزهر رمزا لكل منهما ، فكل — فيما يبدو — كان ينفرد بأنواع من الزهر ، فطن لها الشاعر ، واتخذ منها رمزا لمنبته(١) :

لــكن ينازعني إلى وطني	شوق إذا استمهلته عســـفا
وأعاف مصر وعيشها رغد	ويشوقني وطني ولو عجفـــا
أقصى البنفسج ، ثم يعجبني	أن أنشق الظيان والطرفا
شـــوقا إلى ذاك الثرى وإلى	ذاك النسيم الرطب حين هفـــا
وإلى رياض كان يوقظني	فيها ندى سحر إذا كثفا
وشميم عرف الروض حين بدا	ورخيم لحن الطير إذ هتفا

وختام القول إن ظافرا لم يترك مجلى من مجالي الجمال ، ولا مشهدا من مشاهد الحسن ، ولا أثرا من آثار الخلود ، ولا خاصة من المفاخر ، ولا ميزة من المزايا ، في الإسكندرية إلا صورها في شعره . صور بعضها في عجالة خاطفة ، أو في إشارة لامحة ، لأنها لم تكن ذات معنى خاص عنده ، وإن كانت لا تنفصل عن صورة الإسكندرية في خلده وخلد الناس . وتأنى في بعض البقاع ، فأعطاها صورة دقيقة ، مفصلة ، تحوي كل جميل من معالمها . وصور كل جزء من ذاكرته ، وقد غلفه البعد بسحره ، والشوق بحسنه ، فأحاطه الخيال بمجموعة من الصور ، التي تكمل شكله ، وتزهي لونه ، وتعمق إيحاءه .

(١) ١٦٤ .

وجلى أن الكثرة الغامرة من هذه الصور رسمها فى أثناء إقامته فى الفسطاط. فصدرت محملة بكل ما تهفو به نفسه من مشاعر الحب والشوق واللهفة ثم اليأس(1) :

يابلدتى، إن يغب مغناك عن نظرى فإنه فى سواد القلب لم يغب

وأدى به هذا إلى أن يكثر من التذكر، فينثر صوره ويرددها فى عدة قصائد، وإلى أن يطيل المكوث مع هذه الذكريات لأنه يريد أن يعيش فيها، فيمنحها القصائد الكاملة لايشاركها فيها موضوع آخر(2)، وإلى أن يقبل على هذه الذكريات إقبال الحفى الذى أخلص قلبه لها، وأفرغ ذهنه لصورها، فينظم فى رسمها أجمل ماقال من شعر: غنى فى الانفعال، وتنوعا فى الرسم، وعذوبة فى النغم، واستلهاما للخيال.

أما مانظمه فى أثناء إقامته فى الإسكندرية فأبيات قلائل، يقولها وحى الساعة، فى مشهد من المشاهد. حقا، تحمل من سمات صاحبها أشياء، وتومىء إلى براعته فى الوصف، وقدرته على التخيل، ولكنها لاتبارى ما قاله فى غربته.

وصور ظافر بقعة أخرى من بقاع الإسكندرية، ليست من مواطن اللهو ولا النزهة، ولكنها مرقد الأعزاء من السلف، أعنى مقبرتها التى ضمت آباءه وأجداده، قال(3) :

فنى الجانب الغربى منه مدافن وفيهن أجداث على كرام
قبور على الديماس أضحت وفضلها له فى ظهور النيرات زحام
بها طاب ذاك الترب حين بطيبها تأرج فيه عبهر وخزام

٢ ــ الفسطاط

وقضى ظافر الشطر الأخير من حياته فى «مصر» ذلك الاسم الذى أطلق على الفسطاط. واستأنف فيها لونا من الحياة قريبا مما كان له فى

(1) ٢٥.
(2) ٢٦، ٧١: ١٠٨، ١٠٩، ١٣٠.
(3) ٢٣١.

الإسكندرية . فقد كان يجتمع مع من أحب من أصدقائه ، ويخرج إلى بقاع النزهة ، كما فعل مع صديقه أبى الصلت الأندلسى ، عندما خرجا إلى الأهرام ، وكما ذهب إلى قليوب مع صديقه أبى البركات . ومنحته هذه النزهات أبياتا فى وصف البقاع والآثار التى شاهدها . ولكنها لم تتعد الأبيات إلى القصائد ، والفورية إلى التأنى ، والتسجيل التقريرى إلى التسجيل الانطباعى التأثيرى ، شأن مثيلتها التى قالها فى الإسكندرية .

ومنحته أيضا أبياتا من الشعر الإخوانى ، استدعى فيها من غاب من أصدقائه ، ودعاهم إلى نزهاته ومتعاته ، ووصف لهم ما رآه من مشاهد ، وماتناوله من مأكل . بعث إلى صديق يدعوه إلى طعام من سمك الراى (١) :

أيا سيدا نال أعلى الرتب	وحاز الكمال بأوفى سبب
أما لك فى الراى رأى فإن	له صفة أوجبت أن يحب؟
تربى مع النيـل حتى ربا	وصار من الشحم ضخما خدب
ولاحس للعظم فى جسمه	فليس على الضرس منه تعب
فبادر فنحن بشط الخليج	على روضة رقمتها السحب
على حالة نام عنها الهلال	فإن لم تكن حاضرا لم تطب

وطبيعى أن يحل النيل فى الفسطاط محل البحر فى الإسكندرية ، وأن يبرز فى أكثر الصور التى رسمها للعاصمة ، لأنه العلم الأول لها ، والمسرح المعتاد لمن أراد من أهلها تسرية ولهوا . وقد رسمه فى حالتيه المعروفتين عنه : عندما يمده الفيضان بطميه ، فيغير لون مائه ، وعندما ينخفض فى التحاريق ويزول الطمى فيصفو اللون (٢) :

ولله مجــرى النيل فيها إذا الصبا	أرتنا به فى سيرها عسكرا مجــرا
فشط يهز السمهرية ذبــلا	ونهر يهز البيض هندية بــترا
إذا مد حاكى الورد غضا،وإن صفا	حكى ماءه لونا ، ولم يعده شبرا

(١) ٥ .

(٢) ٣٠٦ . وانظر ٣٠٤ .

وأوحى له النيل ببعض الصور ، التي كان بعضها مثيلا لما أوحاه خليج الإسكندرية له ، كما نرى في الأبيات السابقة من تشبيهه بالسيف . ولم نر لبعضها الآخر مثيلا في الإسكندرية مثل صورة العمامة البيضاء التي نشرت على حاشية خضراء ، وهي صورة كررها مرتين ، وتشبيهه له بالقنديل (١) :

لله يوم أتاله النيل لحسنه جملة وتفصيل
في منظر مشرف على خضر كأنه في الظلام قنديل

وإذا كان ظافر اتخذ من الخليج في الإسكندرية متنزها له ، فقد كان أمامه في الفسطاط النيل ، الذي كان المتنزه الطبيعي لأهل العاصمة .

وأولع ظافر بل معاصروه جميعا بجزيرة الروضة التي كانوا يسمونها الجزيرة ، والشاطىء المقابل لها . ونحن نعرف أن الروضة صارت متنزها منذ عهد الإخشيديين . فقد أنشأ فيها محمد بن طغج الاخشيدى بستانا سماه المختار « وصار يفاخر به أهل العراق » . واستمر ولاة مصر وأعيانها يذهبون إلى الروضة للاستجمام واللهو إلى الخلافة الفاطمية . فأنشأ الأفضل الجمالي مكانا متنزها في شمال الجزيرة سماه الروضة (هو الذي غلب اسمه عليها) وتردد إليها ترددا كثيرا . ثم شيد الخليفة الآمر لزوجته البدوية قصر الهودج بجوار البستان المختار . وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملوكيا منذ ذلك الوقت إلى عهد قريب (٢) . وكان الأفضل ينتقل مابين « دار الملك » التي كان يسكنها والروضة في العشاريات الموكبيات (المراكب) . أما عامة الناس فكانوا ينتقلون بين الجزيرة والفسطاط ، وبين الجزيرة والجيزة على جسرين ، وصفهما الإدريسي بقوله (٣) : « وهذه الجزيرة يجتاز إليها (من الفسطاط) على جسر فيه نحو من ٣٠ سفينة ، ويجاز القسم الثاني — وهو أوسع من الأول — على جسر آخر ، وسفنه أكثر من سفن الأول أضعافا » .

---

(١) ٢١٠ .
(٢) المقريزي : الخطط ٣ : ٢٩٤ — ٧ .
(٣) ١٤٢ . ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٦ .

وارتاح ظافر ارتياحا خاصا إلى منظر : رأس الجزيرة ، وافتراق النيل إلى شعبتين ، والحياة تدب فوق الجسر ، ووجد فيه جمالا فريدا استولى على لبه ، فكرر تصويره ، غير أن الصورة التى استوحاها منه واحدة ، لم تتغير فى المرات الثلاث التى رسمه فيها (١) :

والنيل مثل عمامة نشرت محشاة بأخضر
والجسر فيها كالطرا ز وموجه رقم مصور
والبحر فى رأس الجزيـ رة كالسراويل المحرر
تفريكه ما درجت فيه الرياح من التكسر

وأولع ظافر أيضا بالشاطىء المقابل للروضة ، وكان حدائق متصلة ، يخرج إليها القوم لتزجية الفراغ ، والترويح عن النفس . وقد رسم ظافر من هذا الشاطىء الخليج الذى كان يذهب إليه فى أصدقائه فيتناولون فيه ما أحبوا من طعام ،ويتجاذبون ما عذب من حديث . وكان إلى جانب الخليج من الجهة الشرقية أرض البعل متصلة بأرض الطبالة وكان يشغل هذه المنطقة بستان البعل ، الذى أنشأ فيه الأفضل منظرة ، وبستان التاج ، وبستان الخمس وجوه . فكانت الاحتفالات الكثيرة التى يشهدها الخلفاء الفاطميون تقام فى هذه المنطقة ، إلى جانب كونها متنزها فى أكثر أوقات السنة . قال المقريزى فى وصفها(٢) : « يخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل وأيام الربيع . . . وفى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين ، له ساق طويل ، وزهرة شبه النيلوفر ، وإذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا أنيقا . . . وفى أيام الربيع تزرع هذه الأراضى فتذكر بحسنها ونضارتها جنة الخلد التى وعد المتقون » .

وقد رأى الآمر أن يعيش فى هذه الجنة ، وانتقل إليها فى سنة ٥١٧ هـ(٣) ، وسكن قصر اللؤلؤة فيها . وأنشأ له مجلسا أمامه بركة واسعة ، تحفها

---

(١) ١١٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٢) الخطط ٣ : ٢٠٩ .
(٣) الخطط ٢ : ٢٥٠ .

أنواع الأزهار ، ويمدها جدول يشق المجلس . ولكنه رأى جمال مجلسه لايتم إلا مع طرفتين أخريين : أبيات من الشعر الرائق ، تنقش عليه بخط رائع . فعهد إلى ظافر بالطرفة الأولى . فخلد المجلس — الذى اندثرت كل آثاره — فى وصف شامل له ، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة لم يسجلها (١) :

له بياض يغض الطرف لامعه	فالعين تلحظ منه الحسن فى الملح
كأنه خلل الأشجار لؤلؤة	نظم الزمرد فيها غير منفسح
كأنما النهر فيه سيف مرتعش	يرومه بين مقبوض ومطرح
يلقى إلى البركة الغناء فائضه	ماء يشف شفيف الخمر فى القدح
حكت سماء ، ولون الزهر يشملها	قوس الغمام الذى ينمى إلى قزح
لا سيما كلما هب النسيم بها	وغنت الطير فى الآصال والصبح

وشغف المصريون بالبرك ، فبحثوا عنها فى كل مكان . فإن لم يجدوها فى بقعة حازت إعجابهم ، وطاب لهم التنزه إليها ، حفروها فيها ، وجلبوا إليها الماء ، ولو كان ذلك فى تصورهم . وأقبلوا على الخروج إليها جماعات جماعات فى المواسم وغيرها (٢) ، يقضون عندها الأيام الطوال القصار ، فى فنون اللهو وصنوف السمر ، ويستحثون الشعراء على النظم . أخذ أبو البركات ابن عثمان فى إحدى خرجاته مع ظافر وردا أحمر ، وألقاه فى البركة ، وطلب إليه أن ينظم فيما رأى شعرا ، فقال (٣) :

وساعة جاد بها العمر	ونام عن خلستها الدهر
والطير والدولاب يشدو لنا	كمطرب يتبعه زمر
والورد فوق الماء ما بيننا	قد نثرت أوراقه الحمر
لم ترعينى منظرا مثله	ماء تلظى فوقه جمر

---

(١) ٥٧ . وانظر ٢٧٣ .
(٢) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ١٢٧ .
(٣) ١٠٣ .

وكانت أشهر البرك فى ذلك الوقت « بركة الحبش » ، فى ظاهر الفسطاط من الجهة الجنوبية ، بين الجبل والنيل . قال المقريزى (١) : « أحسن ما وصفت به بركة الحبش قول موسى بن عيسى الهاشمى أمير مصر ، وقد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر فقال لمن معه : أتتأملون الذى أرى ؟ قالوا: وما الذى يرى الأمير ؟ قال : أرى ميدان رهان ، وجنان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وذروة جبل ، وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا ، وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر ، وقانص وحش ، وملاح سفينة ، وحادى إبل ، ومفازة رمل ، وسهلا وجبل . فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل » .

ولدينا وصف للمنطقة ، معاصر لظافر ، دونه صديقه أبو الصلت الأندلسى فى قوله (٢) : « وفى هذا الوقت (وقت الفيضان) من السنة ، تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدب والطرب . واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق .. » .

ورسم ظافر صورة مجملة للبركة فى قوله(٣) :

تأملت بحر النيل طولا ، وخلفه ... من البركة الغناء شكل مدور
فكان — وقد لاحت بشطيه خضرة — ... وكانت ، وفيها الماء باق موفر
عمامة شرب فى حواش بخضرة ... أضيف إليها طيلسان مقور

وتردد ظافر مع المترددين على موضع آخر من المواضع التى كانت تقصد للشرب والتنزه فى تلك الأيام ، وهو دير القصير . وكان هذا الدير

---

(١) الخطط ٢ : ٢٤٩ . وفى الأصل : عيسى بن موسى ، وهو خطأ . وقد ولى موسى مصر ثلاث مرات : أولاها من ١٧١ إلى ١٧٢ ، وثانيتها من ١٧٥ إلى ١٧٦ ، وثالثتها من ١٧٩ إلى ١٨٠ .

(٢) الرسالة المصرية ٢٠ .

(٣) ١١٨ .

فى أعلى المقطم ، على قمته ، مطلا على الصحراء والبحر وقرية شهران ، حسن البناء ، محكم الصنعة ، نزه البقعة ، له بئر منقورة فى الحجر ، وفى هيكله صورة للسيدة مريم فى حجرها صورة المسيح عليه السلام ، وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه لها أربع طاقات تطل على أربع جهات . فكان أحد الديارات المقصودة لحسن موقعه ، وإشرافه على الفسطاط وأعمالها ، وقد قال فيه شعراء مصر ، وذكروا طيبه ونزهته(١) :

رقت حواشى هذا اليوم وابتسمت	لأهله بيعة من كل قسيس
على الغصون قيان من حمائمه	وما اقترحت عليها غير محبوس
وللنواعير نعرات علت فحكت	على الجداول أحداق القواديس
فلو تصاممت عن داعى السرور به	أجاب دونك سكان النواويس

وخلف ظافر مجموعة من الزهريات ، يمكن أن نستنبط مما تضمنته من إشارات أنه نظمها فى الفسطاط ، مثل تلك الأبيات التى وصف فيها شجرة الكبر ، وما تحمله من زهر ، إذ ذكر فيها بعده الطويل . وقد رسم فى هذه الأبيات صورة دقيقة لهذه الشجرة ، وزهرها ، وما منحته من صور خيالية ، قال (٢) :

كبارة لاح بها	زهر عجيب الخلق
كأنه لما بدا	فى شكله المنمق
بيض القباطى أودعت	أنصاف قشر الفستق
منوطة أجوافه	بشعر شيب يقق
كأن فى أطرافه	أثر خضاب قد بقى
يشبه ما أثاره	شحط النوى فى مفرق

ومن يتأمل الصور التى رسمها ظافر لمجالى الطبيعة ، ومرائى الحسن ، فى الفسطاط يجد أنها تلتقى مع صوره للإسكندرية فى كثير من الأمور . فالأمور التى أولع بها هنا هى التى شغف بها هناك : الماء ، والنبات . وكان الماء

---

(١) الشابشتى : الديارات ١٨٤ . وانظر ٢٧٢ .
(٢) ٢٩١ .

فى الإسكندرية خليجا يستمد من النيل ، وفى الفسطاط النيل نفسه ، والبرك الممتدة بإزائه على الشاطىء الشرقى منه . وكان النبات فى الإسكندرية روضة غناء ، كثيرة الأشجار ، متشابكة الأغصان ، متنوعة الأزهار ؛ وفى القاهرة روضة ذات بساط أخضر حلاه الوشى بالألوان المبهمة . وتلتقى فى كثير من المعالم التى ارتبطت بالماء والنبات ، وثبتت فى ذاكرة الشاعر ، فملأت رسومه ، من التماع فى الماء ، وتنوع فى ألوان النبات وأوصافه ، وتغريد للطير ، وأنين للدواليب ، وهبوب للنسيم العطر . وتلتقى فى الصور التى انبثقت فى مخيلته عند رؤية هذه المناظر ، فالماء درع ، والخليج أو النيل أو الجدول سيف ، والنبات وشى ، والصبا مسك .

ولكن الصور تتسع وتدق فى الإسكندرية ، وتصغر وتغمض فى الفسطاط . فالصور التى رسمها لبلدته كثيرة تكاد تستغرق شعره كله ، وتستحوذ منه على القصائد الكاملة ؛ بينما لا يعطى للفسطاط غير الأبيات القلائل ، التى لا تبلغ أن تكون قصيدة فى غير خمريته . ويتأنى فى رسم كل عنصر فى صور الإسكندرية ، فيمنحه شكله ، ولونه ، وحركته ، وما يوحى من صور متوهمة . ولا يفعل ذلك فى صور الفسطاط التى لا يعطى أى عنصر حقه من الأناة . فإن وقف عند واحد من تفاصيله ، مثل رأس الجزيرة ، كان رسمه له واحدا مكررا . فصور الإسكندرية عنده فسيحة الأرجاء ، تشمل رقعة شاسعة الجنبات ، لا يهمل شيئا منها ، بل يغنيها بالتفاصيل التى يبرز حدودها ومعالمها ، وكأنه يعطيها رسما مستقلا لها . أما صور الفسطاط فنكاد لا نعرف حدودا لها .

وصور الإسكندرية تتشح بمشاعر فياضة من الرجل ، تتجلى فيما خلعه عليها من الألوان والأشكال والخيالات . فالتدفق العاطفى الذى عاش فيه ظافر كان له أثره البارز فى رسومها التى رسمها على بعد ، واغترفها من انفعاله ، وأبرزها لهحنينه . أما صور الفسطاط فقد اقترح أكثرها عليه ممدوحوه الذين لا يرد طلبهم ، وأصدقاؤه الذين يخشى ألا يلبى رغبتهم فيوصم بالعجز . فكان رسمه لها فوريا ، يعتمد على ما يعطيه بصره منها ، لا ما يمنحه انفعاله .

ولعل القصيدة التى يتجلى فيها التأنى هى خمريته ، التى ترتفع فعلا عن بقية صوره التى رسمها للفسطاط ، ولكنها لاتزاحم صور الإسكندرية . والقصيدة الوحيدة التى قالها فى الفسطاط ، وهو بعيد عنها ، على شوق إليها، حاول أن يرسم فيها معالم البلدة ، كما رسم معالم مسقط رأسه . ولكنه لم يرسم إلا خطوطا عامة ، متعجلة . فبالرغم من إحاطته فيها لكنها إحاطة أقرب إلى السرد السريع (١) :

أحن إلى الفسطاط ما لم أكن به ... حنين طليح الركب بعد ذهابه
وأسمو لروض النسيم لعلنى ... أصادف منه نفحة من ترابه
وتسود فى عينى البلاد تذكرا ... لخضرة شطيه وبيض قبابه
وكم لى على سفح المقطم وقفة ... لها أثر فى وهده وهضابه
فضضنا بها سلك الحديث فخلته ... يميد بنا زهوا لطيب عتابه
وفى البركة الغناء للطرف مسرح ... نهى ما انطوى من جفنه عن مآبه
يبلغنا عن زهرها وافد الصبا ... سلاما تولى المسك رد جوابه
إذا جمش الغدران واهى نسيمها ... حكت زردا فضت أعالى عبابه
وينسل فى ساحاتها كل جدول ... كما سل مطرور الشبا من قرابه

فالبون شاسع بين صور هذه وصور تلك ، بالرغم أنهما نتاج مرحلة واحدة من حياته ، ولكن شوقه إلى بلدته هو الذى مسح على صور الإسكندرية بريشته الساحرة ، فأكسبها بهاءها وروعتها .

٣ ـ مصر

ويضم ديوان ظافر مجموعة من القصائد والمقطوعات والأبيات التى تخلو من الإشارات التى نستطيع الاعتماد عليها فى ردها إلى الإسكندرية أو الفسطاط . ولذلك أجمعها هنا ، وأتحدث عنها معا ، لأنها تكشف عن موقفه من الطبيعة المصرية عامة .

وقد وصف فى بعضها نزهات قام بها مع أصدقائه إلى الرياض ، مثل

(١) ٣٥ .

تلك النزهات التي وصفها فى الإسكندرية والفسطاط . ولكنه كشف عن زمانها ولم يكشف عن مكانها(١) :

وصبيحة باكرتها فى فتية … أضحت لكل نفيسة كالأنفس
والليل قد ولى بعبسة راحل … والصبح قد وافى ببشر معرس
والصبح قد أخفى النجوم كأنه … سيل يفيض على حديقة نرجس

ووصف فى بعضها الآخر مناظر من الطبيعة ، وخاصة من الفصول وما تكسبه الطبيعة تلك من ظواهر ومناظر . والفصل الذى أحبه ، وأكثر من الحديث عنه ، وأعطاه من الصور أكثر من غيره ، وهو الربيع ، أحب الفصول إلى البشر جميعا .

وقد ابتدره بترحيب متهلل ، يفيض بشرا وغبطة ، جعلاه يترنم بأبيات قصيرة الطول والنغم(٢) :

هذا الربيع ، وهذه أنواره … طاب الزمان وأورقت أشجاره
فاشرب على وجه الحبيب وغنني … هذا هواك ، وهذه آثاره

فالربيع داعية السرور ، لا يجوز أن نصم آذاننا عنه ، فاللذة فلتة من الدهر ، لايمكن أن يعوض إهمالها (٣) :

هذا الربيع أتى بأحسن منظر … يختال بين مدبج ومعصفر
فانهض إلى داعى السرور وخلنى … مما يقال عذرت أم لم تعذر
واسرق بنا خلس الزمان مبادرا … والدهر فى غفلاته لم يشعر

ثم يفرغ الرجل للربيع ، يتتبع آثاره فى الطبيعة وما خلعه عليها من أردية الجمال ، وما أشاعه فيها من مظاهر الحسن ، ويرسم لما يرى أجمل الصور ، التى أفردها قصيدتين كاملتين ، ومجموعة كبيرة من الأبيات .

---

(١) ١٢٩ .
(٢) ١٢٤ .
(٣) ٩٢ : ١٢٧ .

ورسم إحدى صوره المفصلة للربيع فى الأصيل ، وقد همت الشمس بذهاب ، فمالت للغروب ، فاختفى منها جزء وظهر آخر ، وألقت بما تحمل من حمرة وصفرة ، على الرياض والأجواء ، وبزغ الهلال صغيرا يئوده ما يحمل من العنبر (١) :

وكأن مصفر الأصيل خلاله ورس يذر على بساط أخضر
والشمس قد حوت المغارب شطرها
قرنت بعين الذاهب المتحسر
والجو من شفق الغروب مفروز كحديقة حفت بورد أحمر
وبدا الهلال لليلتين كأنه فترحوى تفاحة من عنبر

ولما كان النهار حارا فى البلاد العربية ، والليل معتدلا صافيا ، كان لليل سحره الخاص عند شعراء هذه البلاد ، أكثروا من وصفه والتغنى به . وقد شاركهم ظافر فى هذا فتحدث طويلا عن الليل ، وصور نجومه ، والهلال خاصة ، ورسم لها الصور المتخيلة الجميلة(٢) :

كأن نجومُ الليل لما تبلجت توقد جمر فى سواد رماد
حكى فوق ممتد المجرة شكلها قواقع تطفو فوق لجة واد
وقد سبحت فيه الثريا كأنها بنيقة وشى فى قميص حداد
ولاحت بنو نعش كتنقيط كاتب
بيسراه للتعليم هيئة صاد
إلى أن بدا وجه الصباح كأنه رداء عروس فيه صبغ جساد

وعلى الرغم من ذلك ، فالنهار ليس شديد الحرارة فى كل الفصول ، بل إن الشمس نفسها تستحب فى كثير من الأوقات ، ويمنحها الشعراء من الصور القليل مما أعطوه للقمر(٣) :

---

(١) ٩٢ .
(٢) ٦٧ ، ١٠١ .
(٣) ١٢٣ ، ١٢٧ .

والشمس فى مشرقها تجتلى   فى حلل الأشجار فى الأحمر
كأنها نار وقد أضرمت   من خلف ستر خلق أخضر

وقد وقف ظافر عند أمور ثلاثة، رأى أنها هى التى تعطى المنظر بهجته، والربيع حسنه ، والحياة متعتها ، فهى عناصر الجمال فى الوجود ، وهى الماء والروض والنساء(1) :

انظر إلى بهجة ذا المنظر   ولم على الصبوة أو فاعذر
ماء ، وروض ، وغزال حكت   صورته الدمية كالمرمر
وقد حكى الورد بدر الندى   كأدمع فى خد مستعبر

أما الماء فقد منحه صورة أشبه بصورة المرأة ، فهو يتعرض للنسيم مغريا ، يتثنى ويتراقص له ، متحببا(2) :

والماء يبدى للنسيم تملقا   فيسير بين تدرج وتكسر

فإذا ما جرؤ وداعبه استجابة له ، غضب وعبس فى وجهه(3) :

والماء قد عبثت به أيدى الصبا
فحكى غضونا فى جبين معبس

وأما الروض فنبات ونسيم وحيوان . والنبات بساط سندسى أخضر، تنبثق منه أغصان متمايلة ، ويوشيه زهر مختلف الألوان (4) :

فكأنما زهر النبات قلائد
نثرت على صفحات بسط السندس

ولكن ظافرا لا يقف طويلا عند المنظر العام ، وإنما تفتنه التفاصيل . فيقف على نوع نوع من الزهر ، يتأمله ويشرب محاسنه ، ويرسم صورته . فيقول عن النيلوفر الذى كان يغطى أرض البعل(5) :

---

(1) ١٢٣ .
(2) ٩٢ .
(3) ١٢٧ .
(4) ١٢٧ .
(5) ١٩٦ ، ١٩٧ .

إذا البيلوفر المفتوح دارت بصفر قبابه زرق النصال
وماد الخيزران به ، تناهى إلى صفة تجل عن المثال
قناديل مشرفة الأعالى تشب بهن ألسنة الذبال
وقد خانت سلاسلها عراها فنيط بحملها سمر العوالى

ويقول عن النرجس(١) :

كأنما النرجس البهيج حين بدا قعاب تبر على جامات بلور
كأن أوراقه والشمس تصقلها أوراق شمع فمن خام ومقصور

ويجمع أحيانا بين عدة أزهار فى إطار واحد ، تحيا فى داخله حياة البشر(٢) :

والورد يخجل حين قبل خده ثغر الأقاحى من عيون النرجس
فكأنه غيران أدهشه الهوى
وأمال منه الفكر جيد منكس

والأغصان فى هذه الرياض طروب ، استخفها الرقص ، فشرعت تتمايل لنغم تسمعه من شدو طير(٣) :

والطير يطرب شجوها أغصانها
فتظل بين تمايل وتبختر

أو همس ريح(٤) :

وكأنما الأغصان تطرب كلما ألقت إليها الريح سر موسوس

ولا يخلى ظافر رياضه من الطير المغردة أبدا ، بل جمع بينها فى إحدى صوره وبين غيرها من الحيوان :

وكأن هتف الورق فى أغصانها لفظ يفيدك من فصيح أخرس
والطير تسرح فى الرياض غواديا للرزق بين مبكر ومغلس

---

(١) ١١٠ ، ٣٠٣ .
(٢) ١٢٧ .
(٣) ٩٢ ، ٣٠٤ .
(٤) ١٢٧ . وانظر ٩٢ .

والوحش بين سوانح وبوارح ورواتع بين الرياض وكنس

ترد الغدير ورود من لا يشتفى وتنال من طرفيه مالم تغرس

وحتم أن تنبعث من روضته ريح طيبة ، تعطر كل شىء ، فالنسيم الذكى كان أول عنصر رسمه فى صورتيه المكبرتين للربيع :

واستقبل الأرج المعطر كلما مرت عليه الريح كالمتنفس

وتتم بهذا صورة الروضة وصورة الربيع .

ويبقى فصل آخر تعرض له ظافر ، وصور بعض مظاهره ، وإن لم يذكره صراحة ، ذلك هو الشتاء . ولعل الشاعر عنى بهذا الفصل لأنه — فى مصر — أقرب الفصول إلى الربيع ، ونكاد لا نستطيع التفرقة بينهما فى المظاهر الطبيعة غير لسعة من البرد ، ودفقة من المطر ، تجرى بين وقت وآخر . وقد جمع الشاعر كل مظاهر الشتاء والربيع معا فى قوله (١) :

ويوم برد عقوده برد لها سلوك من هيدب المطر

ينثره الجو ثم تنظم منـ ـه الأرض فى الحال كل منتثر

فهو يحاكى الثغور فى اللون والـ ـلطف وعذب الرضاب والخصر

وجمر كانوننا يماثله فعلا بما بثه من الشرر

كأن ذاك الشرار من ذهب قراضة تستطير من نقر

والغيم يبكى ، والرعد يضحك والبرق يديم ابتسام ذى خفر

وبيننا روضة مفوفة ببيت شعر يروق أو خبر

وتتكرر هذه الصورة كلما أراد الرجل أن يصور الشتاء . تتكرر أحيانا بمعالمها الكبيرة والصغيرة ، وصورتها اللفظية ، أو فى أكثر هذه الجوانب (٢) ، وأحيانا تستولد من هذه الصورة صورة أخرى قد تختلف

---

(١) ٩٨ .
(٢) ١٩٠ .

معها فى أشياء ولكنها تبقى وليدتها ، تحمل من المشابه ما يعرفنا الأم فى غير خفاء(١) :

ويوم تبدى من سحائبه الودق كما استعبر المعشوق أقلقه العشق
يقهقه فيه الرعد من أدمع الحيا ويبسم من أنفاس أرياحه البرق

ولكن الظاهرة التى استهوت ظافرا فى الشتاء هى ظاهرة الاستدفاء ، أعنى الجلوس حول « الكانون » ، ومده بالفحم الأسود ، وتزويده بالنار الحمراء ، وما يتخلف من ذلك من رماد . فقد ألحت عليه هذه الصورة بجوانبها المختلفة إلحاحا غريبا ،جعله يصورها عدة مرات فى شعره، يقف عندها طويلا أحيانا فيعطيها صورة شاملة ، ويسرع النظر إليها فى أحيان أخرى فلا يرسم إلا ما راعه وأعجبه .

وكانت أكثر المناظر المنبعثة من هذه الظاهرة إلحاحا عليه منظر الألوان المتألفة من العناصر المختلفة للاستدفاء ومنظر الجمر الأحمر خاصة . فتمثل له فى صورة قريبة أحيانا تحاكى فصوصا وزهرا ، أو عقودا مختلفات الخرز (٢) :

فلما تناهى صبغه خلت أنه فصوص عقيق أو جنى زهر الورد
إلى أن حكى بعد الخمود رمادها غبارا من الكافور فى قطع الند

أو فى صورة أبعد قليلا ، مأخوذة من حمرة الخمر (٣) :

كما ميل الدن المروق ساكب فدب احمرار الخمر فى حلك القار

أو فى صور أبعد ، غلب عليها التشخيص، فجعلها وجنات حمراء ، تبرز خلل شعر أسود(٤) :

غدائر خود فرقتها وقد بدت على خفر من تحتها حمرة الخد

أو فى صورة طوح بها الوهم ، فكاد يجعلها تجريدا(٥) :

---

(١) ١٧٨ .
(٢) ٦٦ ، ٩٩ .
(٣) ١٠٠ ، ١٩٤ .
(٤) ٦٦ ، ٩٩ .
(٥) ٩٩ .

فكأنها رسل الوصا ل تواترت بزوال هجر

ووقف عند الكانون نفسه ذات مرة ، يتأمله ويطيل ويبعد فى التخيل . فبدا له — وقد اتقد منه الجمر وبعث الدفء فى الأوصال — شابا ، تملؤه الخيلاء ، ويحليه الظرف ، فيود كل منهم أن يقترب منه وينعم بمخالطته . ثم تأخذ النار فى الخمود ، ويتساقط الرماد ، وينتشر البرد ، فيبدو الكانون عجوزا هده الكبر ، وجفاه الناس(1) :

لقد جمع الكانون نورا وظلمة	وجالسنا فى هيئة الرجل الحكل
ودبت سلاف النار فى قارفحمه	كما دب نور الشمس فى طرف الظل
وكنا نفديه وفيه شبيبة	ونختصه بالقرب منا وبالوصل
إلى أن علا شيب الرماد قذاله	وأصبح شيخا فى المزاج وفى الفكل
هجرناه هجر الغانيات ضرورة	فصار لدينا لا يمر ولا يحلى

ونستجلى من هذا أن ظافرا وفّى الربيع حقه من التصوير ، فلم يغادر جانبا من جوانبه ولا ظاهرة من ظواهره ، إلا رسمها مرة ومرة ، رسم المحب المعجب . أما الشتاء فرسم منه الظواهر التى استهوته من سحب ومطر ورعد وبرق واستدفاء ، وكان — فى صوره — يكتفى بالشكل واللون كثيرا ، ويستوحيهما كثيرا الصور القريبة والبعيدة ، التقليدية والتشخيصية .

وطبيعى أن تأخذ أرض مصر الخصيبة ، وزراعاتها الكثيرة ، نصيبا من رسوم ظافر . ولكنه لم يرسم من الغلال غير القمح الذى منحه صورتين . رسمه فى أولاهما على سنابله، وأعقبه بالصورة التى تشبهه (2) :

كأن سنابل حب الحصيد	وقد شارفت حين إبانها
كبائس مضفورة ربعت	وأرخى فاضل خيطانها

ورسمه فى ثانيتهما حبات ، قد حصدت ودرست وذريت ، وأفردت عن غيرها وأعقبها بما يشبهها أيضا . ووجه الشكر إلى الفلاح الذى أنتجه (3) :

(1) ١٩٤ .

(2) ٢٤٣ .

(3) ١٤٨ .

بورك فى برنا ومن زرعه　　　والحمد والشكر للذى صنعه
وفره خصب عامنا فيكا　　　د المرء يحوى من قمحه شبعه
كأنما كل حبة منه　　　فى الشكل واللون والجفا ودعه

والتفت إلى الثمار أيضا فصور مجموعة منها ، ونظر إليها من جوانب مختلفة . فقد رسم البلح الأحمر على نخلته ، متدليا ، قد أحاط به السعف الأخضر ، رسما عنى فيه بالألوان(١) :

انظر إلى البسر إذ تبدى　　　ولونه قد حكى الشقيقا
كأنما خوصه عليه　　　زبرجد مثمر عقيقا

واتبع النهج نفسه فى رسم النارنج الأحمر ، متدليا من شجرته ، تحوطه الخضرة من كل مكان . وأضاف إلى الصورة قطرات المطر تتساقط شفافة عليه . واستوحى من هذه الألوان الصورة التى تماثلها لونا وعذوبة (٢) :

تأمل — فدتك النفس يا صاح — منظرا
يثاب به قلب اللبيب على الفكر
حيا وابل يهمى على شجر بدا
به ثمر النارنج كالأكر التبر
دموع حداها الشوق فانهملت على
خدود تراءت تحت أنقبة خضر

وترك هذا النهج فى التين ، فتناول واحدة من حباته ، رسمها سليمة ومشقوقة ، وحدد خطوطها وألوانها ، وأعقبها بصورتين من وحيها (٣) :

جاء بلوز أخضر أصغره ملء اليد
كأنما زئبره نبت عذار الأمرد
كأنما قلوبه من توءم ومفرد
جواهر لكنها الـ أصداف من زبرجد

(١) ٣٠٨ .　　(٢) ٢٨٨ .
(٣) ٣٠٣ .

ولم ينظر فى رسم الكمثرى إلا إلى طعمه ، والصور التى أوحى بها إليه ، وأهمل ما عدا ذلك (١) :

لله وافر كمثرى ذكرت به ما كنت أعهد فى أيامى الأول
لم أدنه لفمى إلا وأوهمه من النهود لذيذ العض بالقبل
قد ذقت من طعمه ما كاد يبلغ بى
ما ذقت من رشف محبوب على عجل
يحكى قوارير ماء الورد خالطه
فيها مع الزعفران المسك بالعسل

ويتجلى من هذا أن ظافرا التزم فى جميع صوره ألا يكتفى بما وقع عليه بصره ، بل كان يمعن النظر ، ويطلق لخياله العنان ليستوحى مما يرى صورة تقرب أحيانا فتماثل الصورة الأصلية فى كل شيء والشكل خاصة ، وتبعد أحيانا فتقتصر على استيحاء الألوان مهملة الشكل ، وتفرط فى البعد أحيانا فتنطلق وراء الإيحاء العام من الصورتين ، غير مقيدة نفسها بشيء آخر .

ويتجلى أيضا أنه لم يلتزم فى رسومه جانبا معينا . فكان فى أكثر الأحيان يبرز شكل ما يصوره ، وفى أحيان غيرها يقتصر على لونه ، وفى مرات قليلة لا يلتفت إلا إلى طعمه .

ومهما يكن الأمر ، فصور المزروعات والفواكه عنده قليلة ، لاتضارع صوره للرياض والزهور كثرة ، ولا تدانيها ، ولكنها جميعا تغرف من مورد فنى واحد ، فلا يتخلف نوع عن نوع فى الروعة والبهاء .

٤ ــ العمائر

الحمامات

أشاد كل من كتب فى القرنين الخامس والسادس بالإسكندرية والفسطاط وبما تحتويان عليه من مبان . فقال الإدريسى عن الإسكندرية(٢) : « حصينة

(١) ١٩٥ .
(٢) نزهة المشتاق ١٣٨ .

الأسوار ، نامية الأشجار ، جليلة المقدار ، كثيرة العمارة ، رابحة التجارة ، شامخة البناء» . وقال المقدسي عن الفسطاط(١) : « مصر مصر ، وناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام ، خزانة المغرب ، ومطرح المشرق ، وعامر الموسم . . »

وأكثر ما لفت نظر ظافر من العمائر فى البلدتين الحمامات . وقد كانت كثيرة كثرة بهرت المسلمين عندما فتحوا الإسكندرية ، وراعت من كتبوا عن الفسطاط فتخبطوا فى حصرها(٢) .

وقد رسم ظافر للحمامات فى عهده إحدى عشرة صورة ، كان فى أغلبها راضيا معجبا مادحا ، وفى بعضها ساخطا ذاما . وتعطينا هذه الصور — الراضية والساخطة — صورة دقيقة للحمامات فى العهد الفاطمى ، وما كان المصريون يحبونه فيها ، وما كانوا يكرهونه منها ، وما اعتادوه فى تشييدها ، وألفوه عند دخولها . فقد عنى المصريون فى ذلك العهد بتشييد الحمامات الرائقة حتى قال عنها المقدسي (٣) : « إلى حماماته المنتهى » . . ولعل أجمع بيت لما أحبه ظافر فى الحمامات قوله(٤) :

روضة العين ، لذة العقل والحسن ، جلاء القلوب والأجسام

فلم يمدح حماما إلا جعله روضة ، بل جنة فى بعض الأحيان ، تجتمع فيها الملذات والمسرات (٥) :

وروضة فى هجير وجنة فى سعير
خصت بكل نعيم ولذة وسرور

ولما كنا نعرف مدى شغف ظافر بالرياض ، ندرك من هذا التشبيه ما يعبر عنه من إعجاب الشاعر بالحمام ، وحبه ، وتصوره له . ولم يكن

---

(١) أحسن التقاسيم ١٩٧ .
(٢) المقريزى : ١ : ٢٦٨ ، ٣ : ١٢٩ .
(٣) أحسن التقاسيم ١٩٧ .
(٤) ٢٢٣ .
(٥) ٩٧ . وانظر ٩٦ ، ٩٧ ، ١٧٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ .

منساقا وراء الأوهام فى هذا التشبيه بل كان يتأمل ما طلى على أسقف الحمامات من نقوش ، فتخيل له الدقة أن ما يرى حقيقة واقعة . وكأن ما يراه على هذه الأسقف هو ما صوره هونفسه للروضة فى شعره ، وكأن الرسام استلهم قصائده فيا رسم . قال يصف ما رسم على الحمام الكافورى (١) :

فيه حسنٌ باد ، وحسن خفى ليس يبدو إلا لكل حكيم
وشموس قد جاورتها بدور ونجوم لكن بغير رجوم
وطيور تكاد تشدو ووحش رتع فى فواكه وكروم
وقيان تكاد تفضح بالإيـ ـقاع بين الثقيل والمزموم

وأعطاها صفة أخرى كان يحبها فى الرياض ، هى الرائحة العطرة كان يجدها فى الرياض فى نسيمها ، ووجدها هنا فى البخار (٢) :

تحت بخار عطر مثلما شبت بماء الورد مسكا فتيق

وعندما أراد الذم ؛ كان أكثر ما كره الرائحة غير الطيبة (٣) .

وعنى برخامها وحياضها فرسمها فى أكثر من صورة ، ووصفها بالصفاء وتعدد الألوان والزخرفة (٤) :

راقت حياضا ، فأقل القذى فيها كشمس تحت غيم رقيق
خصت بألوان الرخام الذى له بها كل طراز دقيق

ووصف الماء بالصفاء والغزارة (٥) :

والماء صاف غزير كأدمع المهجور
كأنما كل حوض مودة فى ضمير
تكاد تبصر فيه الـ ـقذاة عين الضرير

---

(١) ٢٢٩ .
(٢) ١٧٦ ، ٩٧ ، ٢٢٩ .
(٣) ٢٢٤ ، ٢٤٤ .
(٤) ١٧٦ ، ٩٧ ، ٢٢٩ .
(٥) ٩٧ ، ١٧٦ ، ٢٢٩ .

واعتدال الحرارة (١) :

أحرها الوقاد حتى غدا من أجلها الروح مثل الشقيق
فالماء فيها كحياة جرت بها العوافى والصبى فى العروق

وعندما أراد الذم ، وصف الماء بالبرودة والقلة (٢) . وقد جمع أكثر ما كره من صفات الحمام فى قصيدته (٣) :

أقل أوصافها ثلاث البرد ، والنتن ، والظلام
وبين جدرانها شقوق يكمن فى جوفها الهوام
وللبراغيث فى نواحى بيوتها عسكر الهام
كأنما سقفها مداد يقطر من دونه السخام
والماء فيها أقل شىء يدرك بالجهد أو يرام
وليس ذا كله عجيبا فيها بل الأعجب الرخام

وقد شارك شعر ظافر فى زخرفة بعض الحمامات الفاطمية . فقد طلب إليه أن ينظم قصيدة لتنقش على جدران الحمام الكافورى ، فنظم ميميته التى اقتبست آنفا أبياتا منها ،ودونت على الحمام فبقيت زمنا .

الدور

راعت الفسطاط من مدن مصر خاصة مشاهديها ، بكثرة السكان . وضخامة البيوت ، وعلوها وازدحامها . حتى قال ابن حوقل (٤): « الدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات ، وربما سكن فى الدار المائتان من الناس . وبالفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز بن مروان ، وكان يسكنها ويصب فيها لمن فيها فى كل يوم عهدنا هذا أربعمائة راوية ماء ، وفيها خمسة مساجد ، وحماءان ، وغير فرن لخبز عجين أهلها » .

(١) ١٧٦ ، ٢٢٩ .
(٢) ٢ ، ٢٢٤ .
(٣) ٢٢٤ .
(٤) صورة الأرض ١٤٦ .

ودار هذا القول عند من جاء بعده من الكتاب ، بل بلغ الأمر أن قال ناصر خسرو[1] : « وبمصر بيوت مكونة من أربعة عشر طابقا » . وقارن المقدسى [2] بينها وبين بعض البلاد الإسلامية الأخرى المعروفة بكثرة سكانها ، فقال : « آهل من نيسابور ، وأجل من البصرة ، وأكبر من دمشق » .

وكانت الدور الصنف الثانى الذى صوره ظافر فى شعره . وقد رسم لنا نوعين منها . رسم الدور التى شيدها الخلفاء الفاطميون والوزراء . وأفلح إلى غير حد فى تصوير ماحوت هـذه القصور من بساتين ومياه وطرق . وأخفق فى تصوير القصور نفسها ، تلك القصور التى كانت زينة الفسطاط والقاهرة ، ووحى المؤرخين ، وإلهام القصاص وخاصة ألف ليلة وليلة . فإنه عند ما تعرض للدور التى بناها الأفضل والمأمون وصفها وصفا متعجلا مبهما لا يقف عند شىء ، ولا يبرز سمة ، بل نستطيع أن نقول إنه لم يصفها . وقد اكتفى بأن قال [3]:

فيك من الحسن كل معنى   يقصر عن مثلـه الوجـود

وقال [4] :

يا ناظرا يعجب مـا رأى   غير الذى تبصره أعجب

والسبب فى ذلك أنه لم يرتبط شعوريا بهذه الدور ، وأنه لم يقصد إلى إبراز صورتها ، وإنما كان همه أن يمدح أصحابها ويدعو لهم [5] :

يا دار ، دارت بك السعود   كأنهـا منك تسـتفيد
فأنت بعض اقتراح مولى   للفضـل من كفه ورود
لا زال فى نعمة وعز   بينهمـا يهلك الحسود
صوره الله للعطايا   فطبعه نخوة وجود

---

(١) سفرنامه ٥٨ .
(٢) أحسن التقاسيم ١٩٧ .
(٣) ٨٧ .
(٤) ٤٨ .
(٥) ٨٧ ، ٨٦ ، ٢٣٨ .

فإذا كان قد أخنق فى تصوير دور الأمراء ، فقد أفلح فى تصوير الدور التى كان يسكنها هو وأمثاله من عامة الناس . فلا شك أن كثرة أهل الفسطاط التى نوه بها الكتاب أدت إلى ازدحام المنازل — مهما ضخمت — بهم ، فبدت ضيقة ، وناءت بهم ، ولم تستطع أن تحافظ على نظافتها . فقال المقدسى : « إلا أنه ضيق المنازل كثير البراغيث . . ودور قذرة وبق منتن » . ومصداق ذلك تجده فى الصور الساخرة التى رسمها ظافر لبعض الدور التى نزل بها ، وبعض الغرف التى بات فيها .

فكان أهم ما كشفه فى جميع صوره الضيق ، والازدحام ، وما نتج عنهما من حر وعرق وكرب ، حتى ظن أنه فى قبر ، أو أنه وأصدقاءه جماعة خراف رصت فى تنور (١) :

وحجرة من عدد القبور بت بها للقدر الضرورى
فى ليلة مسرفة الحرور كأرؤس الخرفان فى التنور
مطبق مطين مسجور

وتتبع الهوام التى اتخذت هذه المنازل سكنا لها ، فوجد منها البق والبراغيث التى ذكرها المقدسى ، ولكنها لم تنفرد بسكناها فقد عايشها فيها البعوض (٢) :

وللبق فيها والبراغيث خاطة كبزر قطونا ذر فى حب سماق
إذاما أرانين البعوض تجاوبت لنا وقعوا بالرقص إيقاع حذاق

ونستبين من هذا أن الروابط الشعورية بين ظافر والقصور كانت منقطعة فلم يفلح فى تصويرها ، ولم يأبه له ، وأن هذه الروابط هى التى أمسكت بيده ، وأجرتها على أوراقه ليرسم الدور التى سكنها ، وضاق بها وبما عاناه فيها . فلم يجد مفزعا ينفس عن كربه إلا شعره . وكشف الرجل فى وصفه لهذه الدور عن روح ساخرة ، لا تبين فى رسومه

(١) ١٠٢ .   (٢) ١٨٥ .

السابقة ، وعن اتجاه للسرد القصصى لم تفسح له الصور الوضاءة السابقة مجالا للبروز .

وصفوة القول إن ظافرا عاش ابنا للطبيعة فى الإسكندرية والفسطاط ، الطبيعة المطلقة التى لاتحدها قيود ، والتى عاش فيها أجمل لحظات عمره بالإسكندرية ، وأبأسها فى الفسطاط . فصور الرياض فى الإسكندرية فأبدع فى صوره الفسيحة لها ، وصوره الصغيرة ، وغشاها بأجمل المشاعر ومنحنا من معالم الإسكندرية قصورها وآثارها التى خلفها القدماء : ما بقى منها قائما ، وما أنحى عليه الزمن بمعول الهدم . وأجمل صور الإسكندرية هى التى رسمها فى الفسطاط معتمدا على الذاكرة المحبة المشوقة إلى مسقط رأسه ،لا تأتى من وقائعها إلا بكل جميل . وصور رياض الفسطاط ، صورا عامة ، لم يبلغ فيها المستوى الذى وصلت إليه صور الإسكندرية . لأنه لم يعتمد فيها على ذاكرة متحيزة ، ولم يدفعه إليها حرمان جائع ، ولم يثره شوق عاصف . بل كان يعيش فيها ، ويتمنى غيرها . وصوركثيرا من رسومها تلبية لطلب غيره . وصورها صورا جزئية ، تقف عند المنظر الواحد ، والزهرة المنفردة . فأفلح بعض إفلاح فى كثير منها . و لعل سبب نجاحه فى صور الإسكندرية العامة اعتماده على الذكرة ، التى لا بد أن تغفل التفاصيل أوكثيرا منها ، ونجاحه فى صور الفسطاط الجزئية وقوفه أمامها . وأخفق فى صورها العامة لأنه لم يستطع أن يرتفع بنظره فيشمل المناظر المتسعة الأرجاء أمامه ، وهو واقف فى مقابلها .

وعنى بعمائر الإسكندرية من آثار كالمنارة والسوارى والقصور (المعابد) القديمة ، وقصورها البيض الحديثة ، وبعمائر الفسطاط والجيزة من قديمة وحديثة . وكانت صوره لكل منها تزداد وضوحا وتحددا وإلحاحا عليه كلما اشتدت الصلة الشعورية بينه وبينها . فلا يأخذ بعضها

غير الإشارة الخاطفة على حين يقف بعضها الآخر مكتمل المعالم فى رسومه .

ويبرز ظافر فى وصفه رساما بارعا ، يعطى ما يرسمه معالمه وسماته فى الشكل واللون والحركة والصوت والملمس والطعم ، فيجعل المستمع يتلقى صوره خلال حواسه جميعا . وكأن ما يرسمه شىء حقيقى بين يدى المستمع . ثم يمنحه صورة وأكثر ، مستوحاة منه ، يغترفها من شكله بجميع جوانبه ، أو من ألوانه وحدها ، أو من غيرهما من جوانب الجمال فيه ، أو من الإيحاء الشعورى العام الذى يثيره فى مشاهده . وصوره المستوحاة من أجمل ما رسم ، ومن أدله على قدرته المبدعة ، وعلى مخيلته السريعة الخصبة التى لا تخونه ، والتى يتكىء عليها كثيرا فتعطيه القريب من الصور والبعيد ، ولا تنزف ولا تنتزح .

الفصل الثالث

موقفه من المجتمع

١ – الناس

كانت نشأة ظافر من عامة الناس ، وابتداؤه حياته من أسفل السلم الاجتماعي ، وصراعه الدائب الطويل ليحصل على اعتراف الناس—والأدباء خاصة — به أديبا ، كان كل ذلك ذا أثر بعيد فى ذهن الرجل ، وألقى ظلاله السوداء على الصورة التى انطبعت فى وجدانه للناس .

فقد تصورهم مفطورين على الشر ، لا يأتى الخير منهم إلا عرضا وخطأ (١) :

أرى الشر طبع نفوس الأنام ... يصرفها بين عاب وذام
وقد يبدر الخير من فعلها ... كما عرضت نبوة للحسام
فلا يغررنك ما أظهرته ... فتحت الرماد أحر الضرام
فأنفعهم لك من لا يضر ... ومن ليس يأخذ أوفى الذمام

جبلوا على الظلم ، وعيب غيرهم فى حضرتهم وغيبتهم ، ومخالفتهم(٢):

أرى الناس قد أغروا ببغى وغيبة ... وقدح ، إذا ما ميز الأمر عاقل
وقد لزموا معنى الخلاف ، فكلهم ... إلى كل من عادى الخلائق مائل

(١) ٢٤٠ .
(٢) ٣١٠ .

وعلى البخل ، والضن بما تملكه أيديهم من حقير من الأمور(١) :

أنت صديق الناس ما لم تكن ترغب فيما عندهم من حطام
فإن تعرضت إلى رفدهم كنت عدوا لهم والسلام

وصنفهم إلى قسمين لا يشذ عنهما أحدهم ، ولا يتطرق الخير إلى أحدهما (٢) :

وما الناس إلا شامت ، ومعاند وذو حسد قد بان منه التحامل

والقسمان — أو الناس جميعا — يلتقون عند التعامى عن الخير الذى يأتى به غيرهم و إنكاره ، والتربص لما يقع فيه من شر وخطأ وإشهاره :

إذا ما رأوا خيرا تعاموا وأخرسوا وإن عاينوا شرا فكل مناضل

وليتهم وقفوا عند هذا الحد، فإنهم إذا لم يجدوا الشر أو الخطأ اختلقوه ، وتأولوا كل ما يعمل غيرهم بحيث يستدلون به على الشر والرذيلة . فمحال أن ينجو من لسانهم خير أو شرير :

فليس امرؤ منهم بناج عن الأذى ولا منهم عن ثلبه متغافل
إذا كان ذا دين رموه ببدعة وسموه زنديقا وقالوا : مجادل
وإن كان ذا زهد يقولون : أبله وليس له حزم ، وما فيه طائل
وإن كان ذا صمت يقولون : صورة ممثلة للعى بل هو جاهل
وإن كان شريرا فويل لأمه لما عنه يحكى من تضم المحافل
وإن كان . . . .

ويتتبع الشاعر أمثال هذا اللون من التأويل فى صور متعاقبة تصل إلى قريب من ٢٥ بيتا . ويؤكد بعد هذه الصور الحقيقة التى قدمها أولا : إن أحدا لن ينجو من لسانهم ، ويختم بأن الواجب على المرء أن يسقطهم من اعتباره ، ويفعل ما يمليه عليه ضميره دون أن يأبه لما سيتقولون به (٣) :

فليس ينجيه من القول عاجل وليس ينجيه من الويل آجل
فلا تتركن أمرا مخافة قائل فإن الذى تخشى وتحذر حاصل

---

(١) ٢٢٧ .
(٢) ٣٩٩ .
(٣) ٣٠١ .

ولكنه يحذر أن يظن أحد أنه يدعو إلى الشر ، وعدم المبالاة بما يقول الناس ، فهو يرى أن الذم الحق أمر يجب أن يخشاه العاقل ويتجنب أسبابه (١) :

وأحـــزم العالمين من لا يحتقر الذم من لســـان

ويوصى أن يبتعد المرء عن الناس ويعتزلهم ففى ذلك عزته (٢) :

أوصيك بالبعد عن الناس فالعز فى الوحدة والياس
ووحدة الصمصام فى غمده خصته بالعزة فى الناس

وبالرغم من ذلك ، كان ظافر يعلم علم اليقين أن العزلة المطلقة محالة ، وأن المرء لا بد أن يتصل بغيره من البشر ، ويجتمع بهم ويعاملهم . فأراد أن يقلم أظفاره ، ويغاير بينه وبينهم ، ويجعل منه معينا للخير لا معولا من معاول الشر . فوضع أمامه مجموعة من النصائح الخلقية ، التى تجعل منه مثالا للخير والنفع . وذيلها بما يقرب بينها وبين القبول ، إذ أعلن أنه لا يريد عليها جزاء ولا شكورا ، فإنما هى خلاصة تجاربه يدونها فى غير تحبير ولا إعجاب ، ولا ادعاء بصدقها المطلق (٣) :

فخذها وصية من قصده بها الأجر لا حسن نفس النظام
فإن خلصت عند سباك العقول فسهم أصاب به غير رام
وإن زيفت فاعترافى يقوم شفيعا لها آخذا بالزمام

وجماع هذه النصائح الحلم والتواضع والصدق والاعتراف بالجميل والعفو عند القدرة والجود والإنصاف وكتمان السر والأمانة وملاحظة عيوب النفس واحترام الناس ومجاملتهم ، والقناعة التى ألح عليها فى أكثر

---

(١) ٢٤٩ .
(٢) ١٣٣ .
(٣) ٢٤٠ .

من مقطوعة (١) . وكأنه بهذا يكفر عن الطمع الذى غرر به فأخرجه من بلده ، وأحياه معيشة الحرمان العاطفى فى الفسطاط . قال (٢) :

فأصل وقوعك فيما كرهت ... من الناس من صحبة والتئام
فعش إن قدرت قليل الحديث ... قليل الجليس قليل الخصام
فلو أخطأ المرء فى صمته ... لكان له كصواب الكلام

ونستبين من هذا أن ظافرا كشف عن موقفه من الناس فى قصيدتين طويلتين ، وعدد من الأبيات التى ترك بعضها منفردا ، ونثر بعضها الآخر فى مواضع استوجبتها من قصائد مختلفة الغرض . وظهر الشاعر فى القصيدة ٢٤٠ ناصحا خلقيا ، مارس التجارب ، واستوحاها العظات ، ويقدمها لإخوانه من البشر فى تواضع كريم . وظهر فى القصيدة ٣١٠ متشائما ساخطا على البشر لا يرى بصيصا من الأمل فيهم ولا فى صلاحهم .

٢ ـ المرأة : العلاقة بينها وبين الرجل

لن نبعد عن الصواب ، إذا قلنا إن الشاعر العربى منذ الجاهلية اتخذ موقفا يكاد يكون واحدا من المرأة ، باستثناء أبى العلاء المعرى . فهى عنده الحبيبة التى أولع بها ، وسعى وراءها ، وطلب مودتها ، وخشى فراقها ، وبكى هجرها . وهى عند أمثال امرئ القيس وعمر ابن أبى ربيعة والعرجى تبادلهم حبا بحب ، وسعيا بسعى . . . بل قد تبدأ بطلب الود .

وقد منحنا ظافر فى إحدى قصائده صورة سريعة ، تبين جوانب موقفه من المرأة ؛ وتجمل قصة حبه ، وهى صورة تكاد تتفق مع جميع الصور التى رسمها فى قصائده الأخرى غير ما تعمده فيها من توضيح وتفصيل واقتصار على جانب واحد . قال(٣) :

---

(١) ٥٩ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٥ : ٢٤٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ .
(٢) ٢٤٠ . (٣) ٥٦ .

لى فى فنون الحب أعجب قصة
جاءت مفصلة على استدراج

أبصرت ثم هويت ثم كتمت ما ألقى ، ولم يعلم بذاك مناج

ووصلت ثم قدرت ثم عففت مع
شوق تناهى بى إلى الإنضاج

حتى رأيت البين جد وأعربت نغم الحداة بهم على الأدلاج

فوشت بى العبرات والزفرات لا
واشى ودائم لفظى اللجلاج

خانوا ودمت على الوفاء ولم أحل فى ذاك عن خلقى ولا منهاجى

فقصة الحب تعتمد عنده على إبصار ، فحب خفى ، فهوى متبادل فى عفة ، ففراق حزين .

أما هذا الإبصار ، فلم يكن جاهلا به وبعواقبه ، بل كان جد عارف . ولذلك كان دائم الحذر أن ينزلق به بصره إلى حب . ولكن هذا الحذر خانه ، وتولى عنه عندما أبصر من أبصر (١) :

حذرت الهوى مذ كنت حتى استفزنى
بوجه كأن الشمس تحت نقابه

وأما من أبصر ، فهو الذى أنساه حذره وأوقعه فى حبه ، وهو الذى أفاض فى وصفه ، فنال القسط الأكبر من غزله . وقد دعاه — كما فعل القدماء — بالغزال (٢) :

واقصدا منه غزالا باسما عن شتيت كالأقاحى شنب

والرشا (٣) :

وغدا غريم غرامه من مقلتى رشأ ، كمال الحسن بعض صفاته

(١) ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٠ : ١٦٤ .
(٢) ٣٤ : ١٥٨ .
(٣) ٥٠ ، ٩٠ ، ١٦٤ .

والشادن (١):

قمر ، شمس ، نقا ، غصن   شادن يفتر عن برد

والظبي (٢) :

ويسرى إلى البدر وهو ممنع   ويغدو إلى الظبي وهو شرود

ومنحه فى أوقات نادرة وصفا عاما باكتمال الحسن ، وعجز الوصف عن إيفائه حقه . ولكنه ركز بصره على قامته ووجهه، لم يهملهما فى قصيدة له . ولا تتغير الصورة التى يرسمها لقده ، فهو مؤلف من قد فى اعتدال الغصن ، وأرداف فى ضخامة الكثيب . وهى الصورة التقليدية فى الشعر العربى ، يتلاعب فى ألفاظها ، ويغاير فى تركيبها ، ولكنها تبقى فى جوها العام دون تغيير (٣) :

فأبصر كثبانا وهن روادف   عليهن أغصان وهن قدود

فإذا مل هذا التكرار ، لجأ إلى صورة تقليدية أخرى تجعل من القد رمحا لا غصنا (٤) :

وقناة ذاك القد كيف تقومت ؟

وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه ؟

ولما كان خصره نحيلا ، فقد قاسى العذاب من هذه الأرداف الثقال (٥) :

والغصن يقلق فى الكثيب تذريا   بيسير ما يحكيه من حركاته

يمشى فيلقى خصره من ردفه   مثل الذى ألقاه من إعناته

ويمده اجتماع خصره النحيل وردفه الثقيل بصورة تقليدية أخرى (٦) :

(١) ٧٣ ، ١٥٤ .

(٢) ٧٧ ، ١٢٥ : ١٥١ .

(٣) ٧٧ . وانظر ٣٥ ، ٣٦ : ٥٠ ، ٥٦ : ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٠ : ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٣٠٥ .

(٤) ٩٠ ، ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٥) ٥٠ . وانظر ٣٥ ، ٢٤٥ .

(٦) ٢٥٢ ، ٢٧٠ .

بى ما بخصرك من سقم ، وموجبه

صد كردفك تعنيفا وعدوانا

ولما اكتملت هذه الصفات من اعتدال القد ، ونحول الخصر ، وضخامة الأرداف ، فى حبيبته صارت الحقيقة بأن توصف بالهيف (١):

فيهن هيفاء القوام كأنها غصن ترنح فى نقا رجراج

والرشاقة(٢) :

رشـــيقة يثنى قدها هيفـــا كالخوط مال بعطفيه النسيم ند

وامتشاق القد (٣):

ممشوقة القد ، خود ، كلما طرحت

سهم الهوى وجدت قلبى له غرضا

وأكثر ظافر من الحديث عن وجه الحبيب فى عمومه ، وتفاصيله ، على الرغم أنه لم يذكر اسمه مرة واحدة . وأكثر ما تمثل له الوجه بدرا أو شمسا أو قمرا أو هلالا (٤) ، بل قد يخجل الشمس (٥) :

وهـــلالا فى قضيب نـــاعم يتثنى فى نقـــا مضطرب

يخجل الشمس أضاءت فى الضحى

ذاك ما زال ، وذى لم تغـــب

فهو أعلى من الشمس والبدر جمالا ، عند من يحسن تقدير الجمال ، والتمييز بين المتصفين به (٦) :

والبدر والشمس المنيرة دونه فى الحسن حين يحرر التمييز

وتمثل له فى بعض صوره صباحا مشرقا (٧) :

تريك ليلا على صبح على غصن

على كثيب كموج البحر مطـــرد

---

(١) ٥٦ ، ٧٦ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ٢٦٠ .

(٢) ٧٦ . (٣) ١٤٤ .

(٤) ٥٦ . وانظر ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٩ .

(٥) ٣٤ . (٦) ١٢٥ .

(٧) ٧٦ ، ٢٧٠ .

وأوحى له فى واحدة بالخمر الرائقة (١) :

وينم ما ألقت عليـــه نقابها كالخمر راقت فى صفاء زجاج

وتلك من الصور النادر ، الرائقة ، التى ينفرد بها الشاعر ، فلا يأخذها من التراث الشعرى . ويماثلها فى ذلك الصورة التى ماثل فيها بين وجه الحبيب والروضة النضرة ، واتاها الربيع ، فأشاع فيها الجمال ، وأغناها بالألوان (٢) :

بوجه أنى بفنون الـــربيع ورياه تصـــحيف مـــا يقلب
به الورد والآس والأقحـــوان ولكن ناطوره عقـــرب

وأكثر ظافر من الوقوف عند العيون، وتأملها ، ورسم الصور لها . فأتى فيها بالمقل ، والحدق ، والأجفان ، واللحاظ ، ولكنه خلط بينها وخاصة المقل والحدق والأجفان . فأعطاها صفات واحدة . فهى عنده مريضة (٣) :

فى لحظها مرض للتيه ، تحسبه وسنان أو كقريب العهد بالرمد

ذابلة (٤) :

كم نظرة نالت بطرف ذابل ما لا ينال الذابل المهزوز

فاترة (٥) :

لعمرك ، لو نظرت مقلتاك فتور العيـــون من البرقع
لأنباك قلبـــك أن الملام — إذا استحكم الحب — لم ينفع

فيها خنث وخفر (٦) :

بى منكم خنث الجفون يشوبها خفـــر أقام قيـــامة المتنبه

---

(١) ٥٦ .
(٢) ٤١ .
(٣) ٧٦ ، ٩٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ .
(٤) ١٢٥ .
(٥) ١٥٨ .
(٦) ١٠ .

وقد خلعت عليها هـذه الصفات رداء الجمال ، فصارت كعيون الظباء (١) :

كالبدر لما أن بدا ، كالظبي لما أن رنا ، كالغصن لما أن سعى

ولكنها تخفى وراء هذا الجمال الظاهر ظلما لا رحمة فيه (٢) :

لجمالها خبر النساء ويوسف ولمقلتيها سيرة الحجاج

وتخفى وراء هذا المظهر الضعيف خطرا عظيما ، وقوة عارمة . أما الخطر فيكمن فى ذلك السحر الذى قد لا يحس به الرائى ولكن يشهد عليه ما خلفه فى من سقم وألم (٣) :

لا تنكرن السحر فهو بطرفه ودليله ما فىّ من نفثاته

وأما القوة فما تملكه من أسياف وأرماح وسهام (٤) :

هى أسياف وتدعى حدقا يا لقومى من عيون العرب
فاتق الأضعف منها فلقد نقضت عاداتها فى الحسب
واحذر الأضعف من أجفانها فالمنايا بين تلك الهدب

بل إنها أقوى من الرماح ، تفعل ما لا تفعله ، ولا وقاية ولا علاج من آثارها (٥) :

حكم العيون على القلوب يجوز ودواؤها من دائهن عزيز
كم نظرة نالت بطرف ذابل مالا ينال الذابل المهزوز
فحذار من ملق اللواحظ غرة فالسحر بين جفونها مركوز

فالموت كامن بين أهدابها ، يرمى سهامه ، فمن أصابته قتلته (٦) :

يا قاتل الله عينيها فكم قتلت عمدا ، ولم تخش من ثأر ولا قود

فإن لم تقتل أسرت (٧) :

رفقا بمن أسرت لحاظك قلبه فقتيل سيف اللحظ من لا يودى

---

(١) ١٥١ ، ٧٨ .
(٢) ٥٦ .
(٣) ٥٠ ، ١٢٥ .
(٤) ٣٤ ، ٩٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ .
(٥) ١٢٥ .
(٦) ٧٦ .
(٧) ٧٨ ، ١٠ ، ٣٤ .

فما أجدر أن توصف بأنها شرك القلوب (١) :

هلال في قضيب في كثيب لواحظ طرفه شرك القلوب

ونستبين من هذه الأوصاف التي خلعها ظافر على عيون حبيبته أنها ليست جديدة علينا ، فقد رأيناها جميعها في التراث الشعري ، لم ينفرد الرجل بشيء منها . ولكننا نستبين أيضا أن بعض الصفات القديمة قد اختفت أو كادت ، مثل الحور والدعج والكحل ، والتشبيه بعين البقر . وبرزت صفات الفتور ، واللحظ القاتل . ولكن هذه الظاهرة لا ينفرد بها الشاعر أيضا ، بل تعم شعراء عصره ، فهي وليدة التطور الذي خضع له المجتمع الإسلامي في عصوره المختلفة . وبالرغم من ذلك ، نجد لهذه الصورة حلاوة، تأتي من هذا الكساء اللفظي العذب الذي ألبسها إياه ، ومن هذا التلاعب في العبارات التي تؤدي كثيرا من الصور ليبعد الملل ، ومن الإلف بيننا وبينها .

ووقف وقفة طويلة عند ثغر الحبيب ، وأطلق هذا اللفظ على الأسنان وحدها . ولكنه تحدث عن الأسنان والريق حديثا طويلا ، وأتى بإشارات غامضة إلى اللثة ، وفعل ذلك كله دون أن يذكر واحدا من الألفاظ الثلاثة .

وأهم ما أحب من الأسنان (الثغر) التفرق (الفلج) ، فأكثر من تشبيهها بالأقحوان لتفرق أوراقه وتحددها (٢) :

وأرشف منه ثغرا كالأقاحي وألزم منه قدا كالقضيب

وأغرم ببياضها الوضاء ، فماثل بينها وبين الدر واللآلى (٣) :

دريلوح بفيك : من نظامه ؟ خمر يجول عليه : من نباذه ؟

فلا عجب أن (٤) :

تجلو الظلام ببارق من ثغرها فكأنما فرت الدجى بسراج

---

(١) ٣٦ ، ٦٣ .
(٢) ٣٦ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٦٤ ، ٢٣٤ .
(٣) ٩٠ ، ١٥١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ .
(٤) ٥٦ .

وماثل بينها وبين البرد أيضا (١) :

ومن برد يفتر عنه وكيف لم   يذب وهو مغمور بشهد رضابه

ووصفها بالشنب (تحدد الأطراف) والبرد (٢) :

إذا جال سمهما فى الفؤاد   فدرياقه البــارد الأشنب

وأطلق على الريق لفظ الرضاب ، فى كل موضع تحدث عنه فيه (٣) :

وترشفت رضـابا كلما   علنى عدت كأن لم أشرب

ووصفه بالشهد مرة (فى البيت السابق) . وبالخمر فى أكثر المواضع التى تعرض له فيها (٤) :

بفيه لآل ، فى عقيق ، كأنها   أقاحى رمل فى سلاف مدام

وأشاد برائحته الطيبة أكثر من مرة (٥) :

تنبيك نـكهته بأن رضابه   خمر يشوب المسك حين تضوعا

ولم يطلق على اللثة اسما معينا ، وإنما أوردها مقرونة بالأسنان . وأكثر من وصفها بالحمرة ، فكأنها العقيق (٦) :

يبدى التبسم منه عند تهدى   درا لطيفا فى العقيق مرصعا

أو المرجان (٧) :

يفتر عن شبم الرضاب كأنه   در لها صدف من المرجان

وقرن هذه الحمرة مرة بسمرة (لعس) (٨) :

يفتر عن نور الأقاح إذا   وافى ندى سحرا به فصفا
كالدر لكن صاغ ناظمه   بالمسك من لعس به صدفا

---

(١) ٣٥ ؛ ٧٣ .
(٢) ٤١ ، ٧٧ .
(٣) ٣٤ ، ٣٥ : ١٥١ ، ٢٤٥ .
(٤) ٢٣٤ ، ٣٤ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٥١ ، ٢٤٢ .
(٥) ١٥١ ، ٥٥ ؛ ١٥٤ .
(٦) ١٥١ ، ١٦٤ .
(٧) ٢٤٥ .
(٨) ١٦٤ .

وأطال الوقوف عند الخد ، الذى حوى من الحسن ما لم يحوه غيره[1] :

لله خد بدت من حسنه حجج تريح عاشقه من عتب لائمه
قد أودع الحسن فيه ما يضن به واحتاط فالخال فيه طبع خاتمه
كفحمة عم صبغ النار ظاهرها وغادر البعض من مسود فاحمه

ولفته منه لونه الأحمر ، فشبهه غير مرة بالورد[2] :

وأقطف ورد الخد وهو مضرج وأجنى أقاح الثغر وهو برود

وبالشقيق مرة[3] :

أمعير بدر التم وجها ، والظبا حدقا ، وأغصان الرياض قدودا
والمسك نشرا ، والأقاح تبسما والخمر ريقا ، والشقيق خدودا

وبالخمر أخرى فى اللون والرائحة[4] :

ولخدها لون السلاف وفعلها ونسيمها لكن بغير مزاج

وبالنار كثيرا ، وخاصة إذا كان ذا خال ، فإن تجاور اللونين الأحمر والأسود استهواه كما استهوى غيره من الشعراء ، وذكره بالفحم حين تستشرى به النار ، وبالعنبر يوضع على الجمر للبخور ، وبالمسك ينثر على الجمر[5] :

انظر إلى الخال على خدها ولونه الأسود فى الحمره
كطابع من عنبر حطه مبخر فى وسط الجمره
أو قطعة من نثر مسك علت طافية فى رائق الخمره

ووقف مرة أخرى عند هذا التجاور ، فرأى فيه خرزة سوداء رصعت فى كرة من عقيق ، وأمعن فى الخيال فرأى فيه زهرة الشقيق الحمراء وما فيها من سواد مستحب . ثم جمح به الخيال فجسد له من الخال زنجيا أحدقت به نيران الخد ، فاستغاث مذعورا[6] :

كوجه زنجى بدا من خلا ل النار يدعو بالحريق الحريق

---

(١) ٢٢١ .
(٢) ٧٧ ، ٢٤٢ .
(٣) ٧٨ .
(٤) ٥٦ .
(٥) ٩٤ ، ٢٢١ .
(٦) ١٧٤ .

أو أحد ملوك الزنج حاصرته جيوش الروم ، وأضرمت النار لتحرقه ، فلجأ إلى مرتفع لعله يجد فيه الحماية المرتجاة (١) :

ملك من الزنج قد وافى على شرف والروم قد أضرمت نارا لتحرقه

وفى بعض الصور رسم الوجنات وحدها ، ولم يتناول الخد كله ، فأعطاها من الصفات ما أعطاه له ، فهى حمراء كالورد (٢) :

وجـنى ورد فوق وجنته يحمر ، ثم يعود إن قطفـا

أو كالنار (٣) :

وفى خـده نار وماء تألفا ومن عجب ماء خلال ضرام

ووصف مرة إشراق الوجنات وصفا معنويا جميلا ، قال (٤) :

حين استتم جماله ، وأضاء فى وجناته نور الشباب مشعشعا

وفى صورة رسم الصدغ (٥) :

حمت عقرب من صدغه ورد خده فيلدغ من أبدى له لحظ قاطف

وفى أخرى الهزمة الصغيرة فى الخد ، التى سماها القدماء نون الحسن ، ونسميها اليوم الغمازة (٦) :

وقد كتب الحسن اسمه فوق خده ولم يبد إلا نـونه من كتابه

وتبين هذه الصور أن اللون خاصة هو الذى ملك عليه لبه ، وأراد أن يخلده فى صوره المختلفة ، وأن ظافرا منح الصفة الواحدة عدة صور ، كرر بعضها ولم يكرر غيرها ، وأن هذه الصور كان منها القريب ، ومنها البعيد الذى يحتاج إلى كد الذهن . ولكن النوعين لم يجشما الشاعر الكثير ، لأنه أخذها من التراث الشائع فى عصره . وأجمل ما رسم صورة نور الشباب الذى تشعشع فى الوجنات فأكسبها بهاءها وحسنها التام .

(١) ١٧٥ .
(٢) ١٦٤ ؛ ١٧٣ .
(٣) ٢٣٤ .
(٤) ١٥١ .
(٥) ١٧٣ .
(٦) ٣٥ .

ووقف الشاعر بعض وقوف عند الشعر، الذى وصفه بالطول السابغ، والسواد الحالك، وتمثله فى ذلك ليلا أو ليالى الهجر خاصة (١) :

كأن ليالى الهجر طولا وظلمة ... حكيْن فى الحالين منه فروع

ومثله مرة بالثعبان فى طوله (٢) :

وأسود كالأسود المستطيـ ... ـل يلدغ ذاك وذا يلسب

ولم يقف عند شىء آخر من الوجه. فقد انتقل بصره إلى الجسد عامة. فرآه ناعما مرهفا، لايطيق شيئا فوقه. فخشى عليه من ملابسه أن تجفو عليه بالرغم من كونها غلالة رقيقة أو من الحرير الصينى (٣) :

رفقا بجسمك لايذوب فإننى ... أخشى بـأن يجفو عليه لاذه

ورأى النعيم قد رواه فأنماه وأتمه وأحسنه (٤) :

ريان من ماء النعيم فلو دنـا ... من جسمه الصخر الأصم لأينعا

وكأن الحبيب دمية افتن فيها الجمال (٥) :

من كل رائقة الجمال كدمية ... فى مرمر أو صورة من عاج

ونقل الشاعر بصره فى حبيبه فلم يقف عند شىء آخر غير البنان الذى أعطاه لمحة خاطفة أعجب فيها بخضابه (٦):

فعسى وحى سلام خلسة ... ببنـان من دمى مختضب

وبقيت صفتان فى الحبيب، أعجب بهما ظافر وسجلهما فى شعره أكثر من مرة.

فظافر المولع بالحديث لابد أن يشترط فيمن يحب أن يكون عذب الحديث. وقد سجل ذلك فعلا فى بعض صوره (٧) :

حلو الحديث، فما يروقك منظرا ... بجمالـه إلا وراقك مسمعـا

وظافر المشغوف بالرياض يقضى فيها أجمل لحظات عمره، لابد أن يكون حبيبه طيب الرائحة، طلب ذلك فى ثغره وخده، وطلبه منه عامة. كما

---

(١) ١٥٤، ٧٦، ٢٧٠.
(٢) ٤١.
(٣) ٩٠، ١٢٥.
(٤) ١٥١، ١٠.
(٥) ٥٦.
(٦) ٣٤.
(٧) ١٥١، ٣٤، ١٥٨.

رأينا فى أبياته السابقة . فهو حبيب إذن توفرت له فنون الحسن جميعا ، فالحواس كلها تشترك فى التمتع به ، حتى يختلط الأمر عليها فيجور كل منها على غيره (١) :

ماء يموج به النعيم لطافة ... لـــولا غلالته لفزت بشربه
يبدو فتستحلى العيون مذاقه ... نظرا ، وتحترق القلوب بحبه

وجلى من هذا أن ظافرا عنى عناية كبيرة بالوصف الجسدى للمرأة التى أحبها ، ولكنه لم يعدل فى توزيع هذه العناية على مفاتنها جميعا . فقد نال القد والوجه أكبر قسط منها ، ثم أعطى مابقى للجسم والبنان . ولم يعدل أيضا فى توزيع عنايته على أجزاء الأعضاء التى اهتم بها . فقد ظلم الخصر فى حديثه عن القد ، وأهمل الشفاه ، وجار على الشعر فى حديثه عن الوجه .

ولم يعن ظافر فى كثير من الأحيان بأن يحدد مايتحدث عنه : بأن يعطيه اسمه ، أو يخطط معالمه ، أو يبين مجاله ، وإنما التفت فى أغلب الأحيان إلى لون ما يصف ورائحته وإيحاءه .

ولم يبتكر الرجل فى الصفات التى منحها للمرأة ، ولا فى الصور التى رسمها لهذه الصفات ، ولا فيما استلهمه منها . واقتصر على الاغتراف من التراث الشعرى الشائع فى عصره . واكتفى بالتلوين اللفظى الذى ألبسها إياه .

ولكنه عنى عناية فائقة باستيحاء كل عضو يرسمه صورة أو أكثر ، تؤكد لونه ، أو تبرز إيحاءه . فما من شىء وصفه دون أن يقرنه بما يشبهه . ولم يأبه أن يأخذ أكثر هذه الصور من غيره . ولكنه بلغ إلى درجة فائقة من البراعة فى بعض الصور التى رسمها ، وإلى ابتكار قليل من الصور الرائقة .

هذا النهج الذى اتبعه ظافر فى صوره أكسبها خصائصها . فقد جعلها أقرب إلى الصور التأثرية التى تستهدف تسجيل التأثر الذى أحس به المشاهد حيال المنظر الذى رآه ، لا تسجيل معالم هذا المنظر بأبعاده المختلفة .

---

(١) ١٠ .

وأبعدها ذلك عن أن يحس المشاهد أنها تمثل امرأة معينة ، ذات معالم محددة : فالأحاسيس التي تنطبع في وجدان الرجل حين يأتي المرأة التي يحبها تتماثل أو تكاد مهما اختلفت صفات هذه المرأة . ونزهها ذلك عن الحسية المفرطة ، بالرغم أن الرجل بالغ في ترديد الحديث عن غصن القد ، وكثيب الردف مبالغة ممجوجة .

ولم يطل ظافر الوقوف عند الصفات الخلقية للمرأة التي أحبها ، وإنما ذكر لها ثلاث صفات ، كرر منها الصلف (١) :

صلف توقفت المطامع دونه فالشمس أيسر مطلبا من قربه

وذكر القسوة والعجب مرة واحدة (٢) :

مالي بليت بقاس معجب صلف يرضى إذا بت بالهجران غضبانا

وأورد صفة أخرى ليست بالجسدية ولا الخلقية وإنما هي صفة اجتماعية وأعتقد أن ظافرا لم يقصد إلى معناها الحرفي ، وإنما أخذها من التراث الشعري القديم اتباعا فنيا : تلك هي صفة الممنعة (٣) :

ويسرى إلى البدر وهو ممنع ويغدو إلى الظبي وهو شرود

التي تحميها الرماح والسيوف (٤) :

حفت بهن ذوابل ومناصل ومشت بهن رواتك ونواج

فالصور التي رسمها في القصيدتين كلها اتباعية ، تحتذى الشعر القديم احتذاء جليا ..

❊ ❊ ❊

وإذ نفرغ من استقصاء الصور التي أبان فيها ظافر تصوره للمرأة التي يحبها ، ننتقل إلى استقصاء صوره التي أبان فيها حاله حين وقع في حب هذه المرأة . وقد كشف هو نفسه عن معرفة بالشعر القديم ، والعرف الذي اتبعه أصحابه عند التعبير عن هواهم (٥) :

---

(١) ١٠ ، ١٦٩ .
(٢) ٢٥٢ .
(٣) ٧٧ ، ٢٥٩ .
(٤) ٥٦ .
(٥) ٣٣ .

فهل تعاطاه فحل في فصاحته إلا بكى سكنا أو ناح أو ندبا

فهو واع إلى أن الغزل بكاء من الرجل لما يعانى من المرأة . وذهب الرجل إلى أبعد من ذلك ، فأعلن أن للغزلين سنة لا يحيدون عنها فى غزلهم ، تلك وصف المحب نفسه بالسقم والحزن والدمع(١) :

إيه دموعك ، إنما سنن الهوى جسم يذوب ، ومدمع هتان

وتمثل ظافر هذه السنة وامتثلها . فجمع بين صفتى البكاء والسقم ، وأطلقهما على نفسه فى أكثر من موضع ، بل فى كل موضع وصف فيه حبه(٢) .

وأعلن أنه لقى من العذاب ما يهون معه الموت(٣) :

هل الموت إلا دون ما أنا وارد وإن كنت أستحلى بكم ما أكابد

فقد عانى من الآلام ما أفقده الحس بالألم(٤) :

لقد تخوف حتى لا يخاف أسى وقد تألم حتى ما به ألم

وقد أفقده الحب عقله (٥) :

يا ساكنى مصر ، أما من رحمة لمتيم ذهب الغرام بلبه

وقلبه(٦) :

يا صاح ، أين مضى قلبى فأطلبه قد غاب مذ غاب عن عينى معذبه
قد كنت أندب قلبى بعد ساكنه فصرت أندب أحبابى وأندبه

وصبره وجلده(٧) :

ففنى صبرى لموعده وانقضى فى خلفه جلدى

وأحرق فؤاده وكواه(٨) :

عسى تنقضى لوعة فى الفؤا د أو تنطفى جمرة تلهب

---

(١) ٢٥٩ .
(٢) ٦٣ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٣٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ .
(٣) ٧٥ . (٤) ٢٣٥ .
(٥) ١٠ .
(٦) ٤٩ ، ١٠ ، ١٤٤ ، ١٥٨ ، ٢٣٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ .
(٧) ٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٣٥ .
(٨) ٤١ ، ٧٥ ، ١١٩ ، ١٨٣ ، ٢٤٥ .

وضلوعه (١) :

يا تاركي ما بين جاحم لوعة ... تكوى الضلوع ومدمع نضاخ

وكبده (٢) :

بالرغم ما كابدت بعد النوى كبدى ... وبالضرورة من قلبى تقلبه

وأشكى أعضاءه كلها(٣) :

لله من أناصب فى محبتهم ... ومن بهم كل عضو يشتكى مرضا

وأشاب شعره (٤) :

لا تحسبي شيب رأسى كان من كبر ... لكنه فيض ما استودعت فى كبدى

قد أذابته حرارة الحب والحرمان(٥) :

وأنى ليعرونى غرام تذيبنى ... حرارته والماء بالقر جامد

وأعطش حتى لا أفيق من الظما ... وقد طفحت مما بكيت الموارد

فأضنته وأسقمته (٦) :

وسقم إذا أخفيت ما بى تأكدت ... به حجج للعاشقين وبرهان

ونقف عند وصف السقم لأنه عنصر أساسى فى الغزل عنده . فقد اكتفى أحيانا بذكر سقمه ، أو أن الواصف لا يستطيع أن يفيه حقه من الوصف (٧):

هوى زاد حتى جل عن كل واصف ... وفرط سقام دونه نعت واصف

ثم بالغ قليلا فادعى أن هذا السقم لم يبق منه إلا رسيسا (٨) :

لم يبق فيه مع الغرام بقية ... إلا رسيسا تحتويه جذاذه

أو عظما تعرى عن كل لحم (٩) :

لم يبق منى السقم ما يبقى سوى ... عظم يعرقه يغير مخاخ

---

(١) ٦٣ ، ٤٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ .
(٢) ٤٩ .
(٣) ١٤٤ .
(٤) ٧٦ ، ٣٥ ، ٤٩ .
(٥) ٧٥ .
(٦) ٢٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٣٥ .
(٧) ١٧٣ .
(٨) ٩٠ .
(٩) ٦٣ .

ثم بلغ النهاية في المبالغة فذكر أن السقم براه حتى صار غير محسوس ولا مرئى (١) :

أنحلنى حبك يا منانى وزادنى الشوق فلم أعرف
وذبت حتى لو رمى بى الهوى فى ناظر الناظر لم يطرف
وجلت فى ناحية طولها كعرض حد الصارم المرهف

ونصل إلى العنصر الثانى من عناصر الغزل فى تصور ظافر ، وهو البكاء . وقد نوع فى صوره ، وبالغ أيضا . فقد اكتفى فى أبسط صوره بأن دموعه قد فاضت (٢) :

إذا ذكرته النفس فاضت مدامعى على الزفرات الصاعدات اللوافح

ثم بالغ قليلا فشبهها بالماء الزاخر (٣) :

يهيج البكا من عبرتى كل زاخر ويبدى الأسى من زفرتى كل عاصف

أو المتدفق (٤) :

هبنى قدرت على لسان صامت ما حيلتى فى دمع عين ناطق
لو كان يقطر لاعتذرت بعلة ما حيلتى فى ذى غروب دافق

ثم أغرق فى المبالغة فجعله مطرا دائما ، غير أنه مختلط بدم قلبه الذائب (٥) :

هبنى اعتذرت لسقمى أنه مرض ما حيلتى فى دموع وبلها ديم ؟
دمع ، وأحسب قلبى ذاب بعدكم شوقا ، ففاضت به عيناى وهو دم

والنتيجة الطبيعية لهذا السقم والحزن أن يفقد الشاعر النوم ، ويبيت الليل مسهـدا (٦) :

كم ليلة أطلعت فيها فجرهـا ويدى على كبدى من الخفقان
أخلو بذكرك ثم يقلقنى الأسى فأعض من أسف عليك بنانـى

(١) ١٦٥ ، ١٣٥ .
(٢) ٦٠ ، ٦٣ .
(٣) ١٧٣ .
(٤) ١٨٣ .
(٥) ٢٣٥ ، ٢٦٢ .
(٦) ٢٤٥ .

فيطول الليل عليه وكأنه لا صباح له (١) :

قد ملنى الليل مما بت أسهره ... ورق لى النجم مما بت أرقبه
قدشبت فى طول هذا الليل من أسف ... أما ياوح له صبح يشيبه ؟
كأنما الليل يغشى الصبح مغربه ... فكلما هم أن ينشق يشعبه
أو النجوم عطاش وهو موردهم ... فكلما فاض نور منه تشربه

وبالرغم من ذلك ، لذ له العذاب الذى يقاسيه ، وأحب ما يعانيه ، إذ ظن أنه مؤد إلى رضى الحبيب ، بل إنه يطلب زيادته إن كان هناك سبيل إليها (٢) :

يكفيك أن غرامى لو أردت به ... زيادة فوق ما ألقاه لم أجد
إنى ألذ عذابى فى مسرتها ... فيا صبابة زيدى ، ويا عذاب قد

ولو وجه إليه اللوم لائم فان يسمع له : إما لأنه فقد الأداة التى كان الرجاء أن تنصت إلى اللوم وتزنه وتتبع ما صح لها من نصائحه (٣) :

عتبت ولكننى لم أع ... وأين ملامك من مسمعى ؟
ومادام عتبك إلا وأنت ... تقدر أن فؤادى معى
فؤادى فى غير ما أنت فيه ... فخذ فى ملامته أو دع

أو لأنه فقد القدرة على الابتعاد عن الحب الذى سبب له كل هذا الألم ونسيانه ، إذ خانته جوارحه وآزرته عليه (٤) :

ولقد عزمت على السلو مصمما ... فإذا الجوانح كلها من حزبه
وإذا هواه أحاط بى فكأننى ... فيه على التحرير نقطة قطبه

وبهذه الصورة ينتهى ظافر من الرسوم التى خططها للرجل الذى أحب المرأة ، وهى رسوم غير متعددة ولامتغايرة ، بل تدور حول مخطط واحد : إغراق فى حب المرأة لاانفلات منه ، وعذاب لاأمل ولا قدرة على التخلص منه أو تخفيفه ، وبكاء يبدأ قطرات ولايلبث أن يهمى مطرا ، وسقم يستفحل حتى يمحق صاحبه .

---

(١) ٤٩ . (٢) ٧٦ .
(٣) ١٥٨ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ١٥١ ، ٢٥٨ ، ١٦٤ .
(٤) ١٠ ، ١٧٣ .

قد يبرز فى صورة ما واحدا من هذه التفاصيل أكثر من بقيتها . ولكنها برمتها تبقى ثابتة فى ذهنه ، لايغفل عنها ولا تغفل عنه ، وتبحث عن الفرص لتخرج إلى الضوء فى صوره . فإن لم تحظ بالبروز الكافى ، قنعت بألا تحذف تماما . بل قد تزدحم على ذهنه فلا يستطيع أن يختار ما يورده أولا منها ، فيضطر إلى إبرازها معا(١) :

ولكن أطاع البين منى أربع : فؤاد،ونوم،واصطبار ،وسلوان
ودمع إذا كفكفته فهو وابل وشوق إذا أخفيته فهو إعلان
وسقم إذا أخفيت ما بى تأكدت به حجج للعاشقين وبرهان

ويحس المرء ، إزاء هذا أن الشاعر لايعانى ألما واحدا منها — أريد لايقاسى حالة واحدة منها — لا يعانى السقم وحده ، ولا الحزن وحده ، ولايحس بلوعة القلب وحده ، ولا فقدان الصبر وحده . ولايشعر بألم منها ، أعظم من غيره ، ولا أن حالة منها هى التى أخذت بتلابيبه أكثر من غيرها . ولذلك أعتقد أنه يعانى هذه الحالات أو الآلام فكريا لا واقعيا ، أعنى أن ذهنه يرى أن المحب الوفى — إذا أراد أن يعبر عن حب صادق — لابد أن تتعاوره هذه الآلام . فإذا ما أراد أن يظن به الوفاء والصدق فلا بد أن يقاسيها ولابد أن يعبر عنها .

ويتجلى للمرء حين يتابع هذه الصور أن الشاعر كان فيها أقل توفيقا من صوره التى رسمها للمرأة . فقد كانت هذه الصور الأخيرة أكثر تنوعا من صوره للمحب ، وأقرب إلى الدقة ، وأدنى إلى واقعية الرجل العادى، الذى يحس بطبيعته اندفاعا نحو المرأة عامة ، ونحو نساء معينات وضعتهن الصدف فى طريقه ، ولو لم يبلغ فى ذلك مبلغ الحب الملتهب الذى يصوره التراث الشعرى . وأدى به دأبه إلى رسم صور رائقة وفريدة .

وبالرغم من ذلك ، يبرز ظافر فى بعض صوره قد تخلص من سلطان هذه الصورة التقليدية للمحب . فرسم صورا مشرقة وضاءة ، جفت فيها الدموع ، وبرأ السقم ، وامتلأت بالبهجة والنعيم . يتواضع فى بعضها

(١) ٢٦٢ .

فيأخذ لذته من تلك الوعود التى تبعثها إليه غمزات العيون ، والحلاوة التى تقطر من ألفاظ العتاب منه والتنصل من حبيبته، والعذوبة التى تجرى، فى حديثه المجرد، وشكواه المفتعلة ، ودلاله الظريف . ويبالغ فى بعضها فيقتنص اللذة من الوصل الذى اختلسه على غير تدبير سابق ، ولا ترقب آنف، ومن مظاهر الشغف به بيديها من أحبه، يهبه فيها ما أراد من شواهد الحب وعلائم القرب (١):

وصار خفى سر الوعد غمزا	إليه بالجفون من النقاب
وأبصر كيف تتحفه الليالى	بأوقات الخلاعة والتصابى
ومختلس الوصال بغير وعد	لصب بعد صد واجتناب
وألفاظ التنصل حين تبدو	بلطف فى مذاكرة العتاب
ورشف أقاحى الثغر المندى	منوره بمعسول الرضاب
وضما بات يلثمه التزاما	وتأباه النهود من الكعاب

ووقف ظافر عند إحدى لذات الحب فأطال الوقوف معجبا مبهورا، فمنحها الرسوم الخاصة التى لم يقرب فيها لذة أخرى ، تلك هى التقبيل . فقد رسمه فى عدة مقطوعات ، مفتنا فى تسميته ، وكأن كل اسم له يكتسب من متعته متعة ، فأراد الشاعر أن يتذوقها جميعا (٢) . فإن أراد زيادة فى هذه المتعة لم يضف واحدة أخرى من متع الحب ، وإنما لجأ إلى الطبيعة لتمنحه هذه الزيادة . فجعلها روضة غناء ، تهديهما المنظر الجميل والريح العذب (٣) :

وليلة بات فيها البدر يفضحنى	غيظا على قمرى إذ بات يفضحه
وقد تكامل فى أعلى مطالعه	عساه يسرق معنى منه يربحه
والروض يبدى إلينا من سرائره	معنى يدق ولفظ الريح يشرحه
وكلما نفحتنا من أزاهره	ريا ، فمنا نسيم المسك ينفحه
وقد تناهى بنا ضيق العناق إلى	حد كمنطبق الجفنين أفسحه
كأنما قصد قلبينا لقاؤهما	دون الوسائط من أمر نصححه

---

(١) ٤٥ ، ١١١ .

(٢) ٤٥ ، ٥٨ ، ٦٠ .

(٣) ٥٨ ، ٦٠ .

أوجعاها سحرا شاعت فيها البرودة المنعشة (١):

وما أنس لا أنس طيب العناق ... ولا سيما عند برد السحر
وقد أفرط الضم ما بيننا ... فكون من بشرينا بشر
كماءين من صببى هضبة ... ألما فضمهما مستقر

والغريب أن الطبيعة تؤدى دورا غريبا فى متعة الحب عند ظافر. فكثيرا ما يختلط حديثه عن متعته بها بحيث لا نستطيع التفرقة بينهما ، فلا ندرى أين يتكلم عن الطبيعة وأين يتكلم عن الحب . فبينما هو يتحدث عن الحبيب الذى بعد عنه ، ويتمنى أن يقاربه ، فتعود ليالى المسرات ، إذا بهذه المسرات تنتقل به دون أن يفطن إلى مسرات الطبيعة . فيقول (٢) :

ترى يزول بعاد صار يبعده ... عنى ويرجع لى قرب يقربه
لله در ليال كن من قصر ... يأتى أوائلها بالصبح يجنبه
وما تغنت حمامات العشى لنا ... إلا وجاوبها فى الصبح مطربه
وللصبا خلل الأغصان وسوسة ... كالصب للحب يشكوه ويعتبه
والروض يبعث مسكا من نوافجه ... والطل يفتقه والريح تجلبه

. . .

فتنعمه بالحبيب من تنعمه بالطبيعة ، أو الحبيب والطبيعة هما مصدر نعيمه ، أو حبيبه الذى نعم به هو الطبيعة . ولذلك لا يستطيع أن يتذكر حبه الماضى ، وملذاته السالفة ، إلا فى هذه الطبيعة . فهما إن استطعنا أن نعدهما أمرين لا ينفصلان (٣) :

أين العهود التى كانت بكاظمة ... عيناك أوهمتانى أنها ذمم
حيث النسيم عليل ، والعشب ند ... والروض حال، وعقد الطل منتظم
والطير تشدو على الأغصان مطربة ... كما تغنت بألحان لها العجم

. . . .

(١) ١٠٤ .
(٢) ٤٩ .
(٣) ٢٣٥ ، ٤٩ ، ١٢٥ ، ٢٦٢ .

فإذا أنعمنا النظر فى هذه الصور التى رسمها للطبيعة التى كانت مهدا لحبه ، وجنة لنعيمه ، ثم ذكرى يهفو إليها قلبه ، أو الطبيعة التى كانت حبه الذى لم يجد متعة فى غيره ، ولم يشتق وجدانه لسواه ، إذا أنعمنا النظر فى هذه الصور وقلبنا صفحات هذا الكتاب عائدين إلى الوراء وجدناها صور الإسكندرية . وإذن « فالإسكندرية » هى طبيعته ، هى حبيبته التى منحته من النعيم ما لم يمنحه حبيب آخر ..

٣ ـ الرجل

يعيش الإنسان فى مجتمع من البشر ، يعبر كثير منهم على حياته دون أن يخلف فيها أثرا ما ، وكأنهم النسيم يشيع الاضطراب على وجه الماء ولا تحس به الأعماق . ويتلاقى سيره مع أفراد آخرين . فتتقاطع بهم الطرق وتتصادم الوجهات ، فيكونون خصوما ، أو تتفق طرقهم وتتوازى ، فيكونون خلطاء . ويكون من الخلطاء ذوو المكانة العالية ، يتطلع المرء إلى مخالطتهم لإشباع رغباته ومطامحه ، فيكونون رعاة له ، وذوو المكانة المماثلة يخالطهم لإرضاء مشاعره وتعميق إنسانيته ، فيكونون أصدقاء .

يصدق ذلك على كل رجل . وهو أكثر صدقا ــ إن أمكن ذلك ــ على كل شاعر . وهو صادق كل الصدق على ظافر . فقد كان له الرعاة ، والأصدقاء ، والخصوم ، وكان له موقف من كل منهم ، يتفق مع ما يحمل له من مشاعر ، وما يرجو منه من مطالب .

الراعى

فإذا بدأنا بمن رعوه ، وتقبلوا شعره ، وأثابوه ، رأينا خليطا من « الرعاة » : فيهم القضاة ، والولاة ، والقواد ، والوزراء ، والخلفاء ، أو بعبارة المقريزى « أعيان الدولة الآمرية والحافظية » . ورأينا من رعاه فى الإسكندرية ، ومن فعل فى الفسطاط .

والموقف الذى اتخذه ظافر منهم الموقف الذى اتخذه الشاعر العربى منذ جعل شعره أداة توصله بالرعاة ، وتقربه إليهم ، وتكسب له « نوالهم » ، موقف الشاعر المادح . ولما كان شعر المدح أداة يكسب بها المادح النوال من الممدوح ، كان واجبا عليه أن يجعل شعره أداة مرغوبة من الممدوح ، يراعى فيها ذوقه ، ويضمنها ما يحبه . فتمثل قصيدة المدح بذلك ذوق الممدوح من حيث الشكل ، وما يحبه من صفات من حيث المضمون .

ولـمـا كان أكثر الممدوحين من الرجال « العامين » أو « رجال المجتمع » ، كانوا حريصين على ود المجتمع واحترامه ، ساعين أن يكون فى صفهم ، رأيا ونظرة إن لم يكن عملا . فكانوا حريصين أن يسبغ عليهم الشعراء من الصفات ما يكسب لهم ما يريدون من قلوب المجتمع وعقوله ، فمثلت قصيدة المدح بذلك ذوق المجتمع وما أحبه من صفات ، أو المثل الأعلى للرجل فى نظره .

ولما كان الشاعر يتخذ من هذه الصفات التى يريدها الممدوح ومجتمعه مادة لفنه ، يختار منها ، ويعطيها الشكل الذى يريد ، وكان الشاعر مقيدا فى ذلك بذوقه الذى اشترك فى صنعه ما حصل من تراث فنى ، وثقافة علمية . كانت قصيدة المدح ذات جذور عميقة فى الأدب العربى ، وروابط وثيقة بالتراث التقليدى .

ولكن الشاعر كان يحس أن ذلك كله عبء يثقله ، وغل يقيده ، ويضيق مجال إبداعه الفنى ، ويحدد حركته فى التعبير عن نفسه ؛ فأخلد بعض الشعراء إلى هذه القيود ، وتحرك فى المجال الذى رسمته له ، واصطدم بها بعضهم ، وغالبها ، وأراد لنفسه مجالا أفسح وحركة أوسع .

وقد أسهمت هذه العوامل كلها فى حركة قصيدة المدح ، وما طرأ عليها من تغير فى مضمونها وشكلها ، لأنها كانت نتاج التصارع والتآلف بينها ،

بحيث أننا فى كثير من الأحيان نخطىء إذا نسبنا الصورة الأخيرة لقصيدة المدح إلى الشاعر وحده أو الممدوح وحده أو واحد من المجتمعات . فهى تحمل بصماتها مجتمعة .

فإذا بحثنا عن المادة التى استخدمها ظافر فى تشكيل مدائحه وجدنا أربعة عناصر رئيسية ، هى قدر الممدوح ، وصفاته وأخلاقه ، وجدارته بالسلطة ، وعلاقته به ، مرتبة تبعا لعنايته بها وإكثاره منها .

١ ــ فأهم العناصر عنده ، وأعظمها تمثلا فى شعره ، وأشدها تنوعا ، وأكثرها احتواء على الأفكار والصور ، ما يمكن أن نسميه قدر الممدوح ومنزلته . وطبيعى أن تتفاوت عنايته بهذه الأفكار والصور ، فتتردد عنده مجموعة لها ارتباط خاص بشخصه ، وتكثر مجموعة فى مدح رجل بينما تقل فى مدح آخر . ولكننى لن أرتبها حسب كثرتها كما فعلت فى العناصر ، لارتباط كل منها بالآخر ارتباطا شديدا ، بحيث تكون التفرقة بينها لفظية :

ونستطيع أن نبدأ بالأخبار التى ذاعت عن قدر الممدوح ، وأعماله ، وما قد يتسرب إلى خلد سامعها من شك فيها ، أو شعور بأن قدرا كبيرا من المبالغة شابها . ولكنه ما إن يعاين الممدوح حتى يفاجأ بأنها لم تفه حقه ، بالرغم أن الشاعر لم يكثر من ترديد هذه الفكرة (١) :

وعظمت وصفا فى السماع فمذ بدا   للعين خبرك هانت الأخبار

فقد جمع ممدوحه كل فضل (٢) :

ثغر تجمع خير الأرض فيه كما   جمعت من كل فضل كل منفرد

وهذه إحدى الأفكار التى عاشت مع الشاعر حياته كلها ، فأطلقها على الأمير السعيد فى بيته السابق ، وعلى كثير غيره من الممدوحين ، حتى انتهى بها عند الأفضل (٣) :

جمعت فنون الفضل فاخترت   كل ما انفردت به من لبه ولبابه

---

(١) ١١٤ ، ٤٥ ، ١١٣ ، ٢٥٠ .

(٢) ٧٦ .

(٣) ٣٥ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ١٣١ .

وقصد الغريب من الفضل ، الذى يبتكره ، ويعجز غيره(١) :

أغربت فى استنباط كل فضيلة ‏ ‏ تعيى الورى بأقلها وتحاجى

أخملت ذكر السابقين ببعضها ‏ ‏ فمد يحهم مهما ذكرت أهاج

فلا عجب أن تتسم محاسن الممدوح بسمتين عند ظافر . فهى من حيث العدد لا يستطاع حصرها (٢) :

ويبدو له منك الكمال الذى حوى ‏ ‏ محاسن لا تحصى على أنه فرد

وهى من حيث البروز كالشمس لا يستطاع إخفاؤها ، فقد أنارت الدنيا وأعشت عيون الناس ، وعقلت ألسنتهم . فلم يستطيعوا لها رؤية كاملة ، ولأبعادها إدراكا تاما ، ولتصويرها نعتا شاملا (٣) :

بهـــرت محاسنـــك الورى ‏ ‏ فأعادت الفصحاء لـكـــنا

وسبب ذلك أن أفعال الرجل بلغت مبلغا نظلمها فيه إذا نعتناها بالعظمة وحدها ، فتلك صفة قاصرة عنها (٤) :

الأفضل الملك العدل الذى عظمت ‏ ‏ أفعاله ولها يستحقر العظم

فإنه لم يجد سبيلا يؤدى إلى العلى إلا سلكه، ولا بابا يوصل إليه إلا ولجه ، مهما كلفه ذلك من أعباء (٥) :

شرى طيب الثناء بكل سعر ‏ ‏ وسار إلى العلى من كل باب

فكانت النتيجة المحتومة أن أدرك العلى وبسط سلطانه عليه ثم (٦) :

لم يرض أن ملك العلياء أجمعها ‏ ‏ حتى بنى باللهى والسيف والقلم

والعزم والحزم والآراء صائبة ‏ ‏ والعلم والحلم والتوفيق والشيم

---

(١) ٥٦ ، ٣٣ ، ١٥٠ ، ٢٣٦ . ‏ ‏ (٢) ٨٣ .

(٣) ٢٥٣ ، ٧٩ ، ١١٤ ، ١٣١ ، ٢٦١ .

(٤) ٢٣٥ ، ٢٣٢ .

(٥) ٤٥ . ‏ ‏ (٦) ٢٣٢ .

فارتفع عن العلا ، وصارت نهايته أرضا لقدميه ، وصار أخمصه تاجا لها (١) :

الأفضل الملك الذى فاق العلا شــرفا فأخمصه لها كالتاج

وحينئذ سما عن كل مرتبة ونال الكمال الذى خص به (٢) :

بل الكمال لعمرى رتبة بعدت فلم ينلها امرؤ إلا ابن عثمانا
شيخ الرياسة ، كهل المكرمات ، فتى الإحسان ، ترب العطايا ، كن كما كانا

وعجزت الكائنات أن تحصل على جزء منه (٣):

هيهات جزء من كمالك عاجز عنه الخليقة إنسها والجان

وعندما طرأت هذه الفكرة على بال الشاعر ، كان طبيعيا أن تمثل أمامه صورة الممدوح فى جانب ، وصورة الناس فى آخر ، والعلاقة بينهما. وعندئذ يذكر الصورة المماثلة التى رسمها أبو نواس ، وتنقلت بعده عند غيره من الشعراء ، فى قوله (٤) :

وليـس لله بمستنـكر أن يجمع العالم فى واحـد

فاستوحاها استيحاء مباشرا فى قوله (٥) :

ما زلت حتى رأيت الناس كلهم فى واحد ، وجميع الأرض فى بلد

ثم ألحقها فى قول آخر بما يوضح معناها ويحدده (٦) :

هو الناس طرا : فى اعتزام وقدرة وفى الجود والفضل العميم وحيد

ثم ولد منها صورا أخرى تكمل معناها ، وتوسع مجالها ، وتعطى الشاعر حق الإبداع ، قال يصف الدار التى شيدها الأفضل (٧) :

هو الورى ، وهى الدنيا ، وساعتها عمر ، وزائرها للأمن فى حرم

---

(١) ٥٦ ، ٣٢ ، ١٣٨ .
(٢) ٢٥٢ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٢١٨ .
(٣) ٢٥٠ .
(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٨٢٥ .
(٥) ٧٦ .
(٦) ٧٧ .
(٧) ٢٣٢ .

ثم استقل دلالتها وأراد أن يبالغ فيها ، فقال (١) :

هو واحد، والناس طرا بعضه   ما عازه فى الخلق غير عديله

وهنا تلح على الشاعر صورتان تترددان فى كثير من قصائده ، وفى مدح أكثر من واحد ، هما عدم وجود نظير للممدوح ، وتفوقه على الناس جميعا . أما الصورة الأولى فقد وردت صريحة بسيطة فى أمثال البيت الآنف . وأطنب فيها فى قول آخر ، فسرها فيه ، بأن أورد واحـدا واحدا ممن أنف الناس أن يضربوا بهم المثل عند المدح وفى كمال الصفات، ليبين أنهم لا يعدون أمثالا للأفضل(٢) :

يا من تنزه أن يقاس بمن مضى   أين الأعاجم منك والعربان؟

من أحنف ؟ من حاتم ؟ من يعرب؟   من عنتر ؟ من قس ؟ من سحبان ؟

من أرسطا طاليس ؟ من إسكندر؟   من قيصر أم من أنـو شروان ؟

وعللها فى قول بعلة خارجية فى الزمان ، الذى أصيب بالبخل بعد مولد الأفضل ، فلم يهبنا مثيلا له (٣) :

مـالى بخلت بكم كبخل زماننا   للأفضل المحيى الـورى بضريب

وفى قول بعلة ذاتية فى الأفضل ، قال له (٤) :

لقد تطولت حتى طلت عن شبه   مهلا فجودك معط مثل مـا سلبا

وأما الصورة الثانية فقد تلاعب بها كثيرا ، وأخرج لها عدة رسوم ، ومنحها كثيرا من الأشكال والألوان ، وإن بقيت الدلالة الأخيرة واحدة . فاقتصر على التفضيل الساذج للممدوح على الناس ، كما رأينا فى عدة أبيات سابقة . وأفاض فى بعض الصور ، فوسع مجالها بحيث شملت عدة رسوم صغيرة تكشف كل منها عن جانب من جوانب التفضيل (٥) :

أجل الورى قدرا ، وأحسن سيرة   وأشجعهم نفسا ، وأكرمهم كفا

وأعظمهم ملكا ، وأكـبر همة   وأصلبهم عـودا ، وألينهم عطفا

---

(١) ٢١٢ .
(٢) ٢٥٠ .
(٣) ٣٠ .
(٤) ٣٣ .
(٥) ١٦٦ .

وكشف فى صور أخرى عن أسباب هذا التفوق فقال (١) :

لعمرى ، لقد فقت الأنام بأربع — وما دونها من بعد ذلك تابع
فجودك مبثوث ، وعدلك شامل — وحلمك موفور ، وبأسك رائع

وإن العين النافذة إلى الحقيقة لو أبصرت الممدوح وأنعمت النظر فيه لتمثله عينا بصيرة ، أما بقية الناس فأهداب وجفون لاتبصر ولاترى . قال عن المأمون (٢) :

نظر الإمام له بعين حقيقة — لم ترمها بين الشكوك ظنون
فـرآه عينا للزمان بصيرة — والناس هدب حولها وجفون

ووقف ظافر وقفة طويلة عند فئة من فئات الناس ، قارن ممدوحه بهم وفضله عليهم ، تلك هى فئة الخلفاء والملوك . فإن كان الممدوح الآمر جعله (٣) :

خير الخلائف من أبناء حيدرة — وفاطم ، أى آباء وأولاد

وإن كان وزيرا فضله على الملوك ، وكانت تلك الكلمة تطلق على الوزراء ، وجاء بالصور المتعددة للتدليل على هذا التفضيل . وأكثرها ورودا عنده صورة مأخوذة من الرسوم التى فرضها الخلفاء الفاطميون على من يمثل بين أيديهم ، وهى صورة السجود وتقبيل الثرى التى تدل على الخضوع والطاعة والتبجيل (٤) :

وكم لـثم التراب لديه منهم — عزيز ، طبعه أنف ورفض

فهم يعرفون أنه قد علاهم ، كأنه الجبل وهم السهول ، وأنهم تحت ركابه ، لايرون غضاضة فى الاعتراف بذلك ، لأنهم كالنفل ، وهو كالفرض ، يقترضون منه سلطتهم ، ويسعون إليه فرضا محتوما عليهم ، ويتفيئون ظلاله فى الملمات . قال للأفضل (٥) :

---

(١) ١٥٠ . — (٢) ٢٦٠ .
(٣) ٧٩ ، ٢١٢ .
(٤) ١٣٨ ، ٣٥ ، ٧٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٢ ، ٢٦١ .
(٥) ١٣٨ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ١١٣ ، ٢١٢ ، ٢٥١ .

كأن ملوك أهل الأرض نفل | إذا اعتمدوا الفخار وأنت فرض
نفوسهم وما ملكته منه | لكفك يستفاد ويستنض
إذا افتخروا بملك ثم ملك | فمنك كلاهما لاشك قرض
يسكن أمرك الحركات منهم | فيخفت خوفه نفس ونبض
فقد ناداهم جدواك حتى | حداهم نحوه سعى وركض
وفرض السعى محتوم عليهم | إليك وقد أتو زمرا ليقضوا

وعندما فرغ ظافرمن تفضيل ممدوحه على معاصريه ارتد به إلى الوراء. وفضله على الملوك السابقين، إذ أنه أخملهم وكشف زيفهم. ثم بالغ فرأى أن أعلى رتبة يمكن أن يدعيها فرعون هي العبودية (١) :

لو رأى فرعونها وجهك ما | علق الدعوى بقول الكذب
ورأى الأولى به أن يدعى | أنه عبدك، أعلى الرتب

ثم أغرق فى المبالغة بحيث خرج إلى الصورة الممجوجة التى رسمها فى قوله للأفضل (٢) :

وإذا الملوك تفاخرت | برفيع أقدار المناصب
فلعبد عبدك فيهم | فخر الأسود على الثعالب

ثم وقف ظافر وقفة فيها شيء من الطول عند صورة أخذها من التراث الشعرى. فقد ألف الشعراء العرب أن يقارنوا بين ممدوحيهم والنجوم والكواكب فى الرفعة، فسار ظافر على دربهم. والفكرة التى أعطاها جل اهتمامه تفضيله على الكواكب جملة، فى حديثه عن دار الأفضل (٣):

قد رفع الله لمن شادها | منزلة من دونها الكواكب

(١) ٣٤ .
(٢) ٣٢ .
(٣) ٤٨، ٣٢، ٨٦ .

والفكرة الأخرى التى كررها أن النجوم تود أن تكون موطئا لقدميه . قال عن أرض دار الأفضل (١) :

ثرى تود نجوم الأفق لو جعلت
حصباءه ، وعلا منها على القمم

وقازن ممدوحه بالشمس أيضا وفضله عليها من جميع الأنحاء (٢) :

إن كنت خنتكم المودة ساعة — أو ملت بعدكم لقول العذل
فزعمت أن النيل عند كماله — أوفى وأغزر من نوال الأفضل
أو قلت : إن الشمس تدرك شأوه — فى النفع أو فى النور أو فى المنزل

ولما كان ممدوح ظافر عنده على هذه الصورة كانت الثمرة الطبيعية أن افتخرت به الفسطاط خاصة ومصر عامة ، إذ اتخذها وطنا له (٣) :

فخرا لفسطاط مصر إذ حللت به
مستوطنا ، ولوادى النيل من واد

بل حسنت به الدنيا كلها وتاهت فخرا وسعدت (٤) :

تتيه بملكك الدنيا افتخارا — كما تاهت بزينتها الحسان

تلك مكافأة الطبيعة لممدوحه ، وبقيت له مكافأة ممن خالطه من الناس فأفاد منه ، أو سمع عنه فراعته أخباره . وقد وقف ظافر عند هذه المكافأة وقفته عند سابقتها ، إذ أن تلك كشفت عن قدر الممدوح عند الطبيعة ، وهذه تكشف عن قدره فى القلوب . فقد كسب له فضله قلوب الناس ، على رغم العدى (٥) :

ملكت القلوب ، فأما عداك — فسعدك يلقى عليهم نحوسا

---

(١) ٢٣٢ ، ٢٦١ .
(٢) ٢٠٨ .
(٣) ٧٩ .
(٤) ٢٥١ ، ٣٤ ، ١١٢ ، ٢١٨ .
(٥) ٢٧٤ .

وأعطاه مفاتيحها ، فسيطر عليها ، وضمن ولاءها الأكيد ، وحبها الخالص (١) :

عليك ثناء العالمين فصيح   وفيك ولاء العارفين صحيح
تبرعت بالإحسان للناس كلهم   فحبك فى سر القلوب صريح

وارتفع لك الدعاء المستجاب من كل فم (٢) :

أوليته برا فأخلص دعوة   نجحت وأنت بها المجيد الأسعد

وآية هذه المنزلة السامية التى يشغلها الممدوح فى القلوب ، وما تحمله له النفوس من الاعتراف بالفضل ، ما ترفعه إليه من شكر ، وما تقدمه له من حمد ، وما تذيعه عنه من ثناء ، وما تنظمه فيه من شعر . وكانت وقفة ظافر عند هذا الثناء طويلة ، ثرية ، متنوعة ، بحيث يمكن أن نجعلها عنصرا مستقلا ، يقرن بالعناصر الأربعة الأخرى فلا يتخلف عنها كثرة ولا تنوعا .

وكشف أول ما كشف أن الممدوح كان مولعا بالثناء ، حريصا على اكتسابه حرص غيره من الملوك على اكتساب الغنى (٣) :

إذا ادخر المال الملوك فإنما
جزيل الثنا والحمد جل اكتسابه

وسلك من أجله كل سبيل ، وأغرى به جوده ، الذى فوضه حق تبديد كل مال لتجميعه عنده (٤) :

يفرق المال فى جمع الثناء له   جوده ، ويعتد جمع المال حرمانا
فما حوت كفه عينا ولا عرضا   إلا ليجعله للحمـــد أثمانا

(١) ٦١ .
(٢) ٨٤ .
(٣) ٥٣ .
(٤) ٢٥٢ .

ولم يقيده بحد ما ، بل طلبه بأى سعر ، مما أدى إلى غلائه ، وكان فى ميسوره أن يتحكم فى سعره ، لأنه المشترى الوحيد ، وكل الناس تريد أن تبيع له (١) :

أغليت سعر الشعر بل أعليته لما بذلت لأهله الأثمانا
أجرت لهاك بفيضها لهواتنا مدحا ، فكل قد حوى طوفانا

وقد أعجب الشاعر بهذه الصورة فكررها ، أكثر من مرة فى مدائحه .

وأول ما وصف ظافر هذا الثناء به الكثرة ، وهى صفة عنى بها عناية فائقة ، ومنحها من الصور أكثر مما منحه غيرها ، وأعظم تنوعا . فقد جمعت نعمه التى فرقها بين الناس — بل بعضها — جمعت له شمل الثناء ، حتى صار طوفانا(٢) . فعمرت الأرض به ، وعم جميع الناس ، وجال فى الأفواه ، وجرى على كل لسان (٣) :

تعمرت الدنيا بشكرك ، والتهى به أهلها حتى الحمام السواجع
فمدحاك ما يجرى به كل منطق وحبك ما تحنى عليه الأضالع

فإذا ما أردت له تدوينا احتجت إلى أن تتخذ البحر مدادا ، ووجه الأرض ورقا ، والأيام كتابا ، وما استطعت أن تتم عملك ، فسيرته أفسح من كل كتاب (٤) :

آيات شكرك فى الأفواه جائلة كأنها لنفوس الخلق أنفاس
محاسن كلما مرت على بصرى ومسمعى فعلت ما تفعل الكاس
تلهى المحدث عن أولى الحديث به كأنها لعقول الناس أمراس

---

(١) ٢٦١ ، ٤٥ ، ١٥٠ .
(٢) ٢٦١ ، ٢٣٢ .
(٣) ١٥٠ ، ١٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٤) ١٣١ .

ضاقت بها الكتب ، فالأيام ناسخة

والبحر نقس ، ووجه الأرض قرطاس

هذا على أن كتب الفضل قاطبة

فى بعض سيرتك العلياء كراس

وقد يعجب المرء كيف تجمع هذا الطوفان ، ويميل إلى انكاره . ولكنه حين يعرف مصادره يتوقف عن هذا الإنكار . فإن الشاعر يكاد يجعل كل شيء فى الحياة يثنى على ممدوحه (١) :

وقد أثنت الدنيا عليك وأهلها فأنسيت من أثنت عليه الحقائب

فيبدأ بأشرف الأحياء وأفصحهم (٢) :

وتنافست فى مدح ساكنك الورى

من بين مثن لا يمل وحامد

ويخص منهم الشاعر والناثر بل كل فصيح (٣) :

لازال خاطر رب كل فصاحة يهدى إلى علياك من حسناته

فيفيد أفراد الجواهر بهجة وتطيب ريح المسك من نفحاته

مدح تكرره الرواة ومطرب الأل

حان والحادى لدى فلواته

ولو تآمر الناس عليه ، وغمطوا حقه وسكتوا عن مدحه ، أو عجزوا عنه ، لتغنت به المآثر والفضائل ، من مجد وفضل ومعال وحق (٤) :

جلت محاسنها عما تضاف له مستغنيات عن المثنى وإن دربا

لو لم تجد شاعرا فى الأرض ينظمها

عجزا لأنشد فيها الحق واختطبا

---

(١) ٣٧ ، ٦١ ، ٨٦ ، ١٧٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٣٨ .

(٢) ٨٦ .

(٣) ٥٠ ، ٣٣ ، ٣٤١ .

(٤) ٣٣ ، ٧٧ ، ١٥٠ ، ٢١٤ ، ٢٧٩ .

وغردت الطيور (١) :

إن الـــذى صدح الحمـــا ... م به ثنـــاؤك حين غـــنى
وأظن ذاك مـــوجبـــا ... طرب القضيب إذا تثـــنى

وتأرجت الأزهار (٢) :

ثناؤك ماتهدى الرياض لناشق ... ولولاه ما فاح الخزام ولا الرند

وسارت الرياح (٣) :

وسار بشكرك حـــتى الرياح ... وغنى بمدحك حتى الحمام

وأعجب الشاعر من هذه الصور باثنتين : صورة الناس ، تتنافس فى الثناء على الممدوح ، وتحار فى التقاط ما تشيد به من محاسنه ، وتتغنى بما تنظم فى كل مكان ، يشارك فى ذلك فئاتهم المختلفة ؛ وصورة الطير تشدو بشكره ، والحمام يسجع بحمده . فكررهما كثيرا فى مدائحه ، ورسمهما لأكثر من واحد من ممدوحيه .

وعلى الرغـــم من كثرة هذا الثناء ، واشتراك أنواع الأحيـــاء والمعنويات فيه ، وصفه الشاعر بالتقصير عن إيفاء الممدوح حقه ، والعجز عن الإحاطة بما يتحلى به من مناقب ، والكمال فى رسمها مهما كد وجاهد (٤) :

وما ينتهى فيكم ثنا الشعر غاية ... ولكنه حسب الذى يبلغ الجهد

فإن المثنى إذا أراد التمام فى وصفه حار : من أين يبدأ ، وإلى أين ينتهى ، وماذا يلتقط ، وماذا يهمل ، وماذا يقول ، وحار معه الشعر كيف يواتى صاحبه ليستطيع القول الذى يريده (٥) :

أقل ما فيـــه من فضل ومن كـــرم
تحـــار فى وصفه الأشعار والحكم

---

(١) ٢٥٣ ، ١٥٠ ، ١٧٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠ .
(٢) ٨٣ ، ١١٤ .
(٣) ٢٣٧ .
(٤) ٨٣ ، ٣١٤ .
(٥) ٢٣٥ ، ١١٤ ، ٢٣٧ .

إذا أولو الفضل غالوا فى مدائحه
منها فقد جهلوا أضعاف ما علموا

على الرغم من أن صفاته بارزة كل البروز ، تأخذ العين ، وتجذب النفس إليها ، وتضع اليد عليها (١) :

لمدحك بين النظم والنثر بهجة ... تجمل منها خطبة وقصيد
صفاتك تهدى المواد حين أنظمها ... فكل أديب قال فيك مجيد

فمهما قال المرء فى مدحه ، ومهما بالغ وأغرق ، لم يكذبه أحد ، لأنه لم يعدُ الصدق بل لم يزين الممدوح فى شىء (٢) :

هو الملك المخصوص بالفضل دائما ... فكل تغال فى مدائحه صدق

ولذلك يبدو كل ثناء عليه مختصرا ، مهما أطنب صاحبه ، مقصرا مهما برز ، عاجزا مهما أجاد . وتبدو هذه الفكرة أكثر أفكار ظافر إلحاحا عليه وأشدها بروزا فى شعره ، فى المدح والوصف وغيرهما من فنون شعره ، حتى إنه ليكررها فى القصيدة الواحدة ، ويطلقها على كل ممدوح سمت درجته أودنت . قال فى مدح أبى البركات بن عثمان (٣) :

جمعت تفاريق الفضائل نفسه ... فالوصف يقصر عن مدى غاياته

وقال فى مدح الحافظ والفاطميين (٤) :

ياأهل بيت الوحى ، أما مدحكم ... مع فرط دربتنا فقد أعيانا

ولايعجز عن الوفاء بمدح الممدوح هو ومعاصروه من الفصحاء وحدهم ، بل من عرف بالفصاحة من السابقين مثل قس بن ساعدة الإيادى وسحبان وائل (٥) :

سارت فضائله فى الخلق واشتهرت ... فكل قلب حوى منهن ديوانا
عجزت عنها وعن وصفى ، ولو ظهرت ... فيما مضى أعجزت قسا وسحبانا

---

(١) ٧٧ .
(٢) ١٧٨ ، ٣٣ ، ٢٥٠ .
(٣) ٥٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٤) ٢٦١ .
(٥) ٢٥٢ ، ٢٦١ .

والصفة التي خلعها على هذا الثناء الجمال ، لأن المعاني والألفاظ تهرع إليه مشتاقة لما تناله على يديه من الشرف (١) :

إلا مدائح شاهنشاه لابرحت تشرف اللفظ والمعنى إذا اصطحبا

فيختار منها الألفاظ البديعة ، ويمنحها حلاوته (٢) :

لا يسكن اللفظ البديع حلاوة حتى يكون ثناك من أركانه
ويظل بيت الشعر قفرا خاليا ما لم تكن بالمدح من سكانه

ويؤلف منها الأشعار والخطب ، فيكون حلية لها وزينة (٣) :

أبدا تسمو ، وذكراك حلى زنة الشعر وسجع الخطب

ويفتن في وصف جمال الثناء على الممدوح ، فيصوره بكل ما أحب من صور . فهو أحيانا خمر تطرب المستمع (٤) :

تخل في كل ناد من مدائحه راحا ترقرق في النادي وريحانا
يديرها فيهم الراوي فيطربهم حتى يظل الحليم اللب نشوانا

وهو في أكثر الأحيان زهرة أو روضة تحوى ما يخجل الرياحين (٥) :

روض له أرج يسرى الثناء به فيخجل الورد والنسرين والآس

فسيرته قد عطرت كل قطر ، بل كل ما قربت منه ومسته ، سواء رواها فم ، أو دونها كتاب ، أو حوتها الدنيا بأسرها (٦) :

سارت له سيرة ، أدنى مناقبها قد عطر الأرض والأفواه والكتبا

وعند هذه الصورة الجميلة يفرغ ظافر من العنصر الأول من عناصر المدح ، تحدث فيه عن قدر الممدوح ، فأبان قدره في ذاته بما تحلى به من صفات ، وأتى من فضل ، وصنع من مآثر ، وقدره بين الناس عامة والملوك خاصة ، وقدره في الطبيعة وفي القلوب ؛ وما أثمره ذلك من حمد له وثناء

---

(١) ٣٣ ، ٨٣ .
(٢) ٢٥٤ .
(٣) ٣٤ ، ٧٧ ، ١١٤ ، ٢٥٠ .
(٤) ٢٥٢ ، ١٣١ .
(٥) ١٣١ .
(٦) ٣٣ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٢١ .

عليه . فأطال الحديث عن فضله ، والمقارنة بينه وبين الخلفاء والملوك ، وشكر الناس له . وأكثر من الأفكار ، حتى التى كررها حاول التجديد فيها ، إن لم يكن بزيادة المعنى أو تكملته أو تفريعه أو قرنه بصورة أخرى مماثلة له ، كان بالتجديد فى الرداء اللفظى الذى يكسوه إياه . واتخذ من بعض الأفكار القديمة ، التى عثر عليها فى التراث الشعرى ، قاعدة لمدحه ، إما بالأشارة الصريحة ، أو التوليد القريب ، أو الاستفهام المبتكر . واعتدل فى كثير من أفكاره ، ولكنه بالغ فى بعضها ، فانزلقت به المبالغة المفرطة فى أحيان قليلة إلى صورة غير مستساغة . .

٢ـ والعنصر الثانى الذى وقف عنده ظافر ، وأطال التأمل ، وأفاض الحديث يمكن أن نسميه صفات الممدوح وأخلاقه ، تلك الخلال التى أحلته المنزلة التى رأيناها فى العنصر الآنف . ولا غرابة أن تكون الخلة الأولى التى نتناولها الجود ، لأنها نالت من عناية الشاعر أكثر مما نالت أية خلة أخرى. ولاعجب فى ذلك لأنها الخلة التى نالت من شعر المدح العربى القسط الأوفى ، لأن الصفة الأولى فى الراعى يجب أن تكون الكرم ، حتى يستظل به الشعر والشعراء الذين يعيشون فى كنفه . ولكن هذا ضيق على الشعراء كثيرا لأنهم رددوا الأفكار والصور الدالة على الكرم وكادوا يستنفدونها . حتى الصور اللفظية بلى كثير منها لكثرة ارتدائه . .

ونستطيع للتيسير أن نجمع ماأتى به ظافر تحت هذه الخلة فى أقسام ، نقدم منها حديثه عن « قاصدى الممدوح » ، الذين أوقف عطاءه يناديهم فهرعوا إليه(١) :

فقد ناداهم جدواك حتى حداهم نحوه سعى وركض

واجتمعوا من الأنحاء المختلفة على بابه ، تراهم بين قادمين طالبين وعائدين غانمين (٢) :

---

(١) ١٣٨ .

(٢) ٧٧ ، ٢٣٢ .

إليك وعنك الناس آت وراحل فقصدك بين البيد ليس يبيد
يبشر ماض قادما عنك بالغنى ويلقى وفودا من نداك وفود

إذ لجأ إليه المحتاج والملهوف ، ولاذ به طلاب النوال ، وقصدته الآمال ورجاه الغمام ، واستجداه العيد المبارك (١) :

إذا الآمال أمرضها إياس فأمست ذات أنفاس ضعاف
فجدوى راحتيك لها طبيب يعافى بالعطايا غير عاف

فلم يحجب طالب فضل ولم يخيب وافدا(٢) . فأدى ذلك إلى أن فقد السائلون ، كما كرر ظافر (٣) :

ووهبت أهل الأرض حتى (م) لم تجد فى الخلق طالب

وأن تطهرت الأرض من الفقر (٤) :

لايلبث الفقر فى أرض وراحته مما يجود فيغنى الإنس والجانا
فما حوت كفه عينا ولا عرضا إلا ليجعله للحمد أثمانا

وأن أبى السائلون على ما يملك(٥) :

فليس يترك صوت المستميح له مالا على عظم مايحوى ولانشبا

ويتجلى فى وصفه « لقاصدى الممدوح » ، أن الشاعر كان على صلة وثيقة بقصيدة المدح العربية حتى الجاهلية . فقد اعتمد على زهير بن أبى سلمى فى تصوير الوفود الغادية والرائحة على باب الممدوح ، غير أنه أجرى شيئا من التغيير والتطوير على هذه الصورة بحيث جاءت بنت عصره ، ووليد فكره . ويتجلى أنه كان يحاول التنويع فى أوصافه للجانب الواحد ، بأن ينظر إليه من أوضاع شتى . .

---

(١) ١٧٠ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٨٤ ، ١١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ .
(٢) ٤٧ ، ٢٣٥ .
(٣) ٣٢ ، ٣٧ ، ١٢١ .
(٤) ٢٥٢ .
(٥) ٣٣ .

ونأتى إلى القسم الثانى من مشاهد الجود عنده ، ونخص به « النوال » ، الذى أعطاه الشاعر صورا كثيرة ومتنوعة . أبان فى بعضها الأشياء التى كان يعطيها إبانة صريحة . فأعلن أنه أعطى المال ، والذهب(١) ، فلما فقدها أعطى الإبل والخيل والمدن (٢) :

وكل شيء نفيس من مواهبه والأرض والخلق طرا بعض ما كسبا
أعطى المدائن والجم الهجائن والـ ـجرد الصواهل لما استنفد الذهبا

ولما فقد كل شيء ، لم يجد من عبيده وأملاكه غير الجود فجاد به(٣) :

وأن الحيا والبر والجود والندى عطاياه أو مالك له وعبيد

وأبهم فى بعض قصائده ، فاكتفى بأنه أعطى النفيس من الأمور ، أو الجابل من النعم ، أو ما عظم فى نظر الملوك ، وإن حقر فى نظره هو ، أو أشرف مازكا ، أو ما يقترح القاصد عليه (٤) :

مثل بوهماك شاهنشاه واقترح الـ ـجدوى عليه وخذها غير متهم

وانفرد فى بعضها بوصف ممدوحه أنـه يعطى « الجـاه » . قال للمؤتمن (٥) :

يفيدك جوده مـالا وجاهـا ويشرف عن مطال وارتقاب

ولعل مرد ذلك إلى أن من وصفهم بذلك توسطوا له عند وزير من الوزراء ووصلوه به ، أو إلى نشأة الشاعر المتواضعة ، وما لقيه فى قصور القاهرة من الرواء ، وما أحس به من ارتفاع فى المكانة عندما اتصل بالخلفاء الفاطميين المحجبين ووزرائهم .

وتدرج فى ذكرى المستفيدين من نوال الممدوح . فبينا مدح ابن نجيب الدولة بأنه أعطى المطيعين (٦) :

فللمؤالف إنعام يقابله وللمخالف سياف يعصبه

---

(١) ٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٧٩ .
(٢) ٣٣ . (٣) ٧٧ .
(٤) ٢٣٢ ، ٤٥ ، ١١٤ ؛ ١٣٨ ، ٢٥٠ .
(٥) ٤٥ ، ٢٥ ، ٤٧ ، ٥٠ .
(٦) ٤٩ .

مدح المأمون باعطاء الضعفاء ، وابن عثمان بإعطاء كل حر ، ومدح الأفضل والحافظ بإعطاء الملوك ، والآمر بإعطاء القريب والبعيد (١) . ولكن أكثر الأفكار إلحاحا عليه شمول « نوال » الممدوح ، وعمومه الناس جميعا دون تمييز . فقد ردده في كل قصائده ولم يستثن منها ممدوحا (٢) . ثم تجاوزها فأعلن أنه أعطى الأنام والحيوان والجان ، بل أعطى ما عرف بالجود من غير البشر مثل شهر رمضان المعظم ، بل أعطى كل شهر . ثم بلغت المبالغة عنده غايتها في مدح الأفضل في قوله(٣) :

يا أيها الملك الذي تحيا بـه ... أزمان والأذهان والأبدان

عمت مواهبك الأنام كأنما ... من جود كفك يرزق الحيوان

وغدت لك الآمال وهي من الطوى ... هزلى وراحت عنك وهي سمان

تتنافس الآمال فيك ، فما أتى ... فرح ، وما فارقته أسيان

وليس بدعا أن يعطي الممدوح الورى ، فقد كان نواله غدقا لا ينضب ، سقى البلاد ، المنخفض منها والمرتفع ، فقد غمر الدنيا حتى أغرقها(٤) :

حتى وليت فما في الأرض مرتفع ... حتى ارتوى وهو في الطوفان ماشربا

واتخذ ظاهر من « الماء » ملهما ، استمد منه عدة صور ليصف غزارة جود ممدوحه ، كما فعل من قبله من الشعراء . فأكثر من الصور التي استلهمها من ماء السماء ، الذي سماه آونة مطرا ، وأخرى غيثا ، وثالثة حيا ، ورابعة ديمة(٥) :

وكان جودك ديمة ، ومديحنا ... نشر ، ونحن الزهر حين سقانا

---

(١) ٣٥ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ١٢١ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٥٢ .

(٢) ٣٢ – ٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ : ٢٠٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠–١ ، ٢٧٩ .

(٣) ٢٠٠ .

(٤) ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ١١٤ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ .

(٥) ٢٦١ ، ٤٧ ، ٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٣٠٥ .

وأكثر من الصور التى استلهمها من ماء الأرض أيضا ، إذ وصف النوال بأنه كالبحر أو البحار (١) :

نوال كالحيا والبحر هام وعزم كالمثقف والحسام

ووصفه فى مرات بالطوفان والسحاب والسيل (٢) :

يدى حياء محياه ، وراحته حيا كوافد سيل جاء من صبب

وكل هذه الصور تقليدية ، نرى أمثالها عند كثير من الشعراء السابقين على ظافر ، والمعاصرين له . ولكن الشاعر حاول أن يعوض ذلك ؛ فعنى بالرداء اللفظى الذى كساها إياه ، فأخرجها فيه على قدر كبير من الحلاوة والعذوبة ، يباعد مابينها وبين نظيرها من الصور بعض البعد ، حتى يحس المستمع للوهلة الأولى أنها صور جديدة . وقد وصل الشاعر فى أحيان قليلة إلى صور مبتكرة . رفع فيها نير التقليد عن كتفيه حين التفت إلى صفات غير الغزارة . فوصف النوال مثلا بالدوام وسرعة التلبية فقال (٣) :

أبدا يسابق جوده أنفاسه بالمكرمات فما لهن سكون

ويسلمنا هذا إلى القسم الثالث ، ونجعله « للممدوح » ، الذى منحه بعض الألقاب والصفات العامة الدالة على الكرم ، وتكشف عن البراعة اللغوية مثل فتى الإحسان ، وترب العطايا ، ورحمة الله ، وأكرم الورى كفا ، الذى ورث الكرم عن آبائه ، وصوره الله للعطايا فاستعبد الجود وأطاعته الأمانى ، فبقؤه خصب ورجؤه سعادة واصطناعه رحمة (٤) . سل عنه من شئت ، وما أردت من أدوات الحرب أو مظاهر الجود ، تنبئك بالخبر اليقين (٥) :

---

(١) ٢٣٦ ، ١١٤ ، ٢٥٠ .
(٢) ٢٥ ، ٣٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ .
(٣) ٢٦٠ .
(٤) ٤٧ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٦٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ .
(٥) ٥٧ .

الله يبقيه للدنيا ، فدولته للجود والعز والإنصاف والفرح

وقد تخلص فى بعض شعره من هذه الصفات العامة التى يمكن أن تلصق بأى شخص نريد أن نمدحه ، وأتى بأوصاف يبدو فى ظاهرها العموم ، ولكنها ذات مدلول خاص على ممدوحه . قال يمدح الأكمل (١) :

فأحيا نفوسا ، وأذهب بوسا وأخلى حبوسا ، وأجلى مكوسا

وهى صفات انطبقت على الأكمل دون بقية من مدحهم من الوزراء ، وعرفها عنه المؤرخون . قال ابن القلانسى عنه(٢) : «جرى على منهاج أبيه الأفضل رحمه الله فى حب العدل وإيثاره ، واحتواء الجور وإخماد ناره ، وأعاد على التناء والتجار ما اغتصب من أموالهم وقبض من أملاكهم ، وأمن البر التقى ، وأخاف المفسد الشقى» .

واستعار الصور المائية التى رسمها لنوال الممدوح وأطلقها عليه ، فجعله بحرا لا يفنى ، وسحابا عذب العطاء ، وغيثا ، وسيلا ؛ وجعل النيل يحاكيه ؛ إذ أن الجود خلق لراحته فصارت مهدا للفضل وموردا(٣) .

ولم يقتنع بهذا بل أراد أن يفضل ممدوحه على كل كريم . فبدأ بالبشر ، وأعلن أن ممدوحه فضلهم جميعا ، وشذ عنهم ، فهو(٤) :

يعطى إذا بخلوا ، يدرى إذا جهلوا يأوى إذا رفضوا ، يبنى إذا هدموا

وأن عطاءه من الغزارة بحيث أنسى كرم القدماء ومحق كرم المحدثين وجعلهم يبدون إلى جواره بخلاء ، فهو بحر وهم غدران (٥) :

ومبخل الكرماء أيسر جوده فكأنما حسناتهم أوزار

---

(١) ٢٧٤ .

(٢) ٢٢٩ . النجوم الزاهرة ٥ : ٢٣٧ .

(٣) ٢٥ ، ٣٤ ، ٣٥،٤٥،٤٧ ، ٧٦ ،٨٣،١٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ .

(٤) ٢٣٥ .

(٥) ١١٤ ، ٣٧ ، ٢٠٠ .

ولو أن حاتما — الذى عرف فى الدنيا بالكرم — رآه لاعترف بالبخل[1] :

ولو رأى حاتم الطائى أيسر ما   يعطى لأيقن أن الشح مذهبه

وقد يظن ظان أنه فاق كل هؤلاء ، لأنه يشغل منزلة لا يشغلونها ، ويجد من الثروة ما لا يجدونه . فلكى يبعد هذا الظن الآثم ، فضله على نظرائه من الملوك (٢) :

وردت بها بحر النوال مشرقا   وغرب غيرى آملا لسرابه

ثم فضله على جميع ما وصفه الشعراء بالجود ، من بحار وأمطار وسحب ، وأضاف إليها النيل . وكرر أنه فضحها وأخجلها وأزرى بها ، وأنها تحاول التشبه به (٣) :

أين ماء النيل من كفك إذ   أخجل البحر وردق السحب
ولهذا كان فى العام له   وقفة من خجل أو رهب
ثم حاكى من أياديك ندى   فانتحى الأرض بجرى مغرب
فهو لولا خيفة تزجره   منك أودى فيضه بالسحب

ولكن هيهات ، فلو اقتدت البحار به لأغرقت السفن ، ولو جاد النيل جوده لعلا ماؤه فوق النجوم . فلا وجه للمقارنة بينه وبين النيل ، فإنه ليس له إلا بعض منزلته . وربما قاربه وقت الفيضان ، ولكن ذلك أمر غير مقطوع به (٤) . ولا وجه للشبه بينه وبين السحب والمطر ، فهو يعطى إذا ضن السحاب ، ويعطى على علاته : واجدا ومعدما ، على حين لا يعطى الغيث إلا عند توفره . وعندما يعطى يغنى عن المطر ، ويجعل السحب تحتقر عطاءها ، والناس تصمها بالبخل والشح (٥) :

---

(١) ٤٩ ، ٦١ .
(٢) ٣٥ ، ٤٧ .
(٣) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٠٠ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ .
(٤) ٣٣ ، ٣٥ ، ١٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢٦٠ .
(٥) ٢١٢ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٢٣٦ ، ٣٠١ .

أغنت هباتك قطر مصر عن الحيا جودا ، وأغنى نيلها عن نيلــه

مد الحياء على الحيا حتى انثنى عنهـــا ، ودام النيل فى تطفيله

ولقد يريد تشبها بك فى الندى وأقل جود يديك مثل جليلـــه

ونداك أدوم ثم أحلى موقعـــا منه فما ينفك عن تخجيلـــه

ويتضح فى هذه الصور أن الشاعر اتخذ من التراث الشعرى القديم إطارا يحدد حركته ، ولكنه مده أقصى ما أمكنه من مد ، فترك له مجالا فسيحا يمرح فيه كيف شاء ، ورقعة شاسعة يملؤها بما أراد من صور . فاتخذ من الصور الشعرية القديمة ملهما له . ولكنه أدخل عليها من الألوان والأصباغ ، وكساها من أردية اللفظ ، ما أكسبها العذوبة والرواء .

ورسم صورة أخيرة للممدوح اتخذها من التراث القديم أيضا ، ومن شعر زهير بن أبى سلمى خاصة ، تلك هى صورة الممدوح وهو يعطى قاصده النوال . فقد سجل زهير هذا المشهد فى صورة رائعة ، حازت من إعجاب العروبة مالم يزل أو ينقص على السنين . واتخـــذ ظافر من هذه الصورة مثالا ، استخرج منه تفاصيل شتى . فقد ذكر أول ماذكر أن ممدوحه يعطى بلا من ولا وعد ولا طلب(١) :

أعطى الجزيل بلا من ولا عدة ولا سؤال فأغنى الناس عن طلب

وكرر أنه لا يحتاج أن يسأله الطالب ليعطيه ، لأنه يعطى قبل أن يواجه بالسؤال . فإن بدره به قاصده تهلل وجهه بشرا فى خفر حتى لا يحرجه ، وإن كان يود لو أعطاه قبل السؤال (٢) :

وانظره عند سؤاله ، فلوجهه خفر يشوب البشر فى صفحاته

ويود لو يبدو لحاجة سائل من قبـــل أن تجرى على لهواته

---

(١) ٢٥ .

(٢) ٥٥ ، ٤٥ ، ٧٧ : ١٥٥ .

فإن سمع الطلب لم يقل لا ، ولا تأد ولا مطل ، بل أعطى بدءا وعودا لأنه لايمسك شيئا ، ولو لمست يده الصخر لأثمر(١) :

وجدت بدءا وعودا غير متئد كأن مالك للقصاد أحباس

وإنما يقضى الحاجات دون كبر ولاسأم ، وينظر إلى ما أعطى فى احتقار ، ويرجو قاصده ملحا أن يخفى ماصنع(٢) :

ذو همة ساعدتها نخوة عظمت لو أنهـا ماء بحر كان طـوفانا

تعطى فتحقرما تعطى ، ولو وهبت كقدرها وهبت أضـعاف دنيانا

هـذا على أنه يخفى صنـائعه فينا ويأبى لمـا أخفاه إعلانـا

ونخلص عند هذا من الصور التى رسمها ظافر للصفة الأولى التى حلى بها ممدوحه ، وهى صفة الكرم . وقد كشفت صوره عن اطلاع الرجل اطلاعا واسعا على التراث الشعرى ، وإدراك عميق لعناصره ودلالاتها ، وقدرة فائقة على استلهامها ، وبراعة جذابة فى تحليتها بالأصباغ والأردية . فلم يفقد احتذاء الرجل التراث القديم شخصيته إلا فى بعض الصور . أما فى غالبيتها فقد أضاف إليها اللمسة المعبرة عنه وعن شخصه ، والتوقيع الدال عليه وعلى عصره .

وكشفت صوره أنه أحاط بالجوانب التى يمكن أن توصف تحت الكرم فلم يهمل منها جانبا ، ولاعنى بواحد منها أكثر من غيره . ربما فعل ذلك فى الصور الجزئية . ولكن الأقسام الكبيرة تكاد تتعادل عنده .

وكشفت الصور أنه لم يتخذ من المبالغة متكأ لجميع صوره ، وإنما لبعضها فقط . وكانت هذه الصورة من أضعف ما رسم ، وخاصة الصور المائية ، ولم يخفف من غلوائها غير العذوبة الغالبة عليها من روح الرجل وعبارته .

* * *

---

(١) ١٣١ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٢٣٥ .

(٢) ٢٥٢ ، ١٥٠ ، ٢٣٥ .

التقى ظافر و التراث الشعرى فى رفع صفة « الكرم » ، وجعلها الصفة الأولى فى « الممدوح » . أما الصفة الثانية فى التراث فهى « الشجاعة » دون أدنى شك . فإذا بحثنا عن الصفة الثانية عند ظافر لم نصل إليها فورا . فالصفة التى تنال من الحديث عنها أكثر من غيرها هى « الهيبة » ، غير أن الصفة التى جعلها توءم الكرم هى ماسماه « البأس » فكثيرا ماقرنهما معا ، ووصف بهما ممدوحـــه (١) :

لله همتك العلياء كم جمعت من خلة عاش منها الفضل والباس
تمكن النجح من آمـــال سائلها كما تأكد من حسادها الياس

وحين نبحث عن كلمة « البأس » فى شعره نجدها قليلة الدوران ، لم يعطها غير صفة واحدة هى الروعة ، إذ قال فى مدح الأفضل (٢) :

فجودك مبثوث ، وعدلك شامل وحلمك موفور ، وبأسك رائع

ولكننا — إلى جانب ذلك — نجد حديثا طويلا عن صفات أخرى تحلى بها الممدوح ، وأعمال أتى بها ، وهى ذات صلة وطيدة بالبأس أو صادرة عنه ؛

فاقتران الجود بالبأس قابله عنده اقتران القلم بالسيف . ولما كان وزراء عصره من أرباب السيف ، بعد أن كانت الوزارة لأرباب القلم قبل بدر الجيوشى ، فقد أحب هؤلاء الوزراء أن يوصفوا بأرباب السيف والقلم معا . فاستغل ظافر ذلك ، جاعلا القلم فى أغلب الأحيان فى مقابل الكرم ، وإن كان ذلك غير مقصود فى اللقب الوزارى . قال فى مدح المؤتمن(٣) :

له بالسيف والقلم افتخار تعاظم فى الكتيبة والكتاب
فيغنى خطه يوم العطايا ويفنى سيفه يوم الضراب

واستوحى كثيرا من الصور من هذا الاقتران ، أتى بها فى مدح أكثر من واحد من ممدوحيه (٤) .

---

(١) ١٣١ . (٢) ١٠٠ .
(٣) ٤٥ .
(٤) ٣٥ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ .

ويمكن أن نضع تحت البأس : الإقدام ، الذى مدح به المأمون فى قوله[١] :

فى جرأة السيف من إقدامه شبه　　　وفى ندى الغيث من إعطائه شيم

ولما عرف عن الممدوح بأسه ، وانتشرت أخباره ، ملأت هيبته القلوب ، ولفتت أنظار الشاعر وارتبطنها . فوقف عنده وقفة طويلة ، يتملى جوانبها جميعا ، ويحاول أن يصور منها كل شىء . فذكر أن هيبته انتشرت فى الدنيا كلها ، لم يخل منها ركن من الأركان[٢] :

وسار خوفك فى بدو وفى حضر　　　فلم تدع منهما من لا تهذبه

واستبد خوفه بالناس جميعهم ، وخاصة الملوك والجبارين والظلمة وأعدائه[٣] :

يخرذو المالك من تذكاره رهبا　　　عن السرير ، ويفنى خوفه البهم

وانتقلت هيبته من البشر إلى ما اتصل بهم من أشياء ، وإن كانت رمزا للقوة والغلبة ، مثل الرماح والسيوف[٤] :

ملك تطيع العوالى أمره أبدا　　　فالسيف والدهر يخشاه ويرهبه

ولم ينج الحيوان من هيبته ، سواء كان حيوانا جويا أو بريا أو بحريا[٥] :

تبيت من أجلها العنقاء خائفة　　　والعصم فى النيق ، والآساد فى الأجم

والفتخ فى الجو ، والنينان فى لجج　　　والشهب فى أفقها ، والجن فى الظلم

وشملت هيبته الأرض ، وما يجرى فيها من أنهار ورياح ، وما يطل عليها من شهب . ثم غلا الشاعر فجعل هيبته تلحق الحوادث والليالى ، بل الزمان والدهر والقدر فتطيعه فيما أمر ونهى[٦] :

يخافها القدر الجارى فتأمره　　　بكل ما تبتغيه أمر محتكم

---

(١) ٢٣٥ . (٢) ٤٩ .

(٣) ٣٠ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ١١٣ - ٤ ، ١٥٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ - ١ . (٤) ٤٩ .

(٥) ٢٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ١١٣ ، ١٣١ ، ١٥١ .

(٦) ٢٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٩ ، ٧٧ ، ١١٣ - ٤ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ .

يكفى أن يتفوه بما شاء لتقف صروف الدهر حتى يأذن لها بالجرى (١) :

ويعوق صرف الحادثات بلفظه ... حتى يمن عليه بالإفراج
ذو هيبة يثنى الجحافل ذكرها ... فتعود ناكصة على الأدراج
صحبت مخافته العدى حتى اغتدت ... ومما مذ انتهلت من الأمشاج
يقفوا لردى فى كل هول سيفه ... فهو الدليل لها بكل عجاج

ويطيل الشاعر الوقوف عند الموت ، فقد خشى الممدوح وأطاعه وتبعه(٢) :

وما الموت إلا تابع ماأمرته ... على أنه من حر سيفك جازع

والتفت ظافر إلى مظاهر هذه الهيبة ، فوجد الرعب قد ناب عن الممدوح فى حروبه ، وضمن له النصر فى معاركه . فإن ذكره كاف لهرب الجيوش ، وهلاك الأعداء(٣) :

ناب عنه الرعب حتى أنه ... يقتل القرن وإن لم يضرب
وإذا عن فأقصى نظرة ... منه تودى بالخميس اللجب

ومن أجمل ما رسم فى « الهيبة » صورة العدو ، الذى ذكر أمامه الأفضل ، فتملكه الرعب ، وأسرع وجيب قلبه ، وجفاه النوم (٤) :

كفاك الرعب أن تلقى عدوا ... وقد عاداه مضجعه الأقض
ومهما مر شاهنشاه ذكرا ... أطار فؤاده هم ونفض

ونخرج من دراستنا هذه أن البأس عند ظافر يقوم مقام الشجاعة عند الشاعر العربى القديم ، وأن ظافرا لم يقف طويلا عند البأس نفسه ، وإنما فعل ذلك عند ماأشاعه من خوفه . والسبب فى ذلك أنه استخلص للهيبة مظاهر محسوسة يمكن أن يسجلها صورا مرسومة . فمنحنا صورا لما فعلت هيبته فى الناس والحيوان والطبيعة . وغلا فى بعض رسومه فجعل

---

(١) ٥٦ .
(٢) ١٥٠ ، ٣٢ ، ٧٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٧ .
(٣) ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ٧٧، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٥١ .
(٤) ١٣٨ .

من القدر والدهر والموت خدما للممدوح ، تخشاه وتلبي أوامره . وكرر في هذه الرسوم تصوير خشية الموت ، وأصناف الحيوان والدهر له ، أما بقية الصور فاكتفى منها بواحدة أو اثنتين .

الصفة التالية التي أكثر الشاعر من الحديث عنها ، هي العدل . وقد ربط الشاعر بينها وبين البأس ، وأبان أن العدل لا يقـــوم بدون بأس ، ينشر كلمته ، ويدافع عنه ، ويقوم من يحيد عنه . ويتضح من الكتب التي تعرضت لمصر في عهد الفاطميين أنهم عنوا بنشر العدل في البلاد عناية كبيرة ، وأن يسجل ذلك لهم في مدائحهم ، وفيما كتب عنهم . فقد قال المقدسي عن المصريين (١) : « وهم في عدل وأمن ، لأنه سلطان قوى غني ، والرعية في راحة ، وثم سياسة ، ونفاذ أمر ، وكل سامع مطيع » . وقال ناصر خسرو الذي زار مصر في عهد المستنصر (٢) : « السلطان لا يظلم أحدا ولا يطمع في مال أحد » .

وفي أيام ظافر ، اشتهر بالعدل من الوزراء الأفضل وابنه الأكمل . فما من مؤرخ تعرض لهما إلا وصف عدلهما . وبلغ من حب الأكمل في العدل أن كان من ألقابه (٣) : « ناشر جنـــاح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين . . . ورافع الجور عن الأمم » . أما الأفضل فبلغ من تمسكه بالعدل مع رعيته أن روى ابن الأثير عنه الطرفة التالية (٤) : « حكى أنه لما قتل وظهر الظلم بعده ، اجتمع جماعة واستغاثوا إلى الخليفة . وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا الأفضل . فسألهم عن سبب لعنهم إياه ، فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلده لعدله ، فقد أصابنا بعـــده هذا الظلم ، فهو كان سبب ظلمنا . فأحسن الخليفة إليهم وأمر بالإحسان إلى الناس » .

(١) أحسن التقاسيم ٢١٢ .
(٢) سفرنامه ٦٢ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٣٥ .
(٤) الكامل ٨ : ٣٠٣ . ابن القلانسي ٢٠٤ .

أما المـأمون فلم يصفه المؤرخون بالعدل ، بل قال عنه الذهبي (١) بعد توليه الوزارة : « ظلم وأساء السيرة » . وكذلك وصف الخليفة الآمر بالفسق والظلم والجبروت والتظاهر بالمنكر واللهو .

ومهما يكن من شيء ، فقد وقف ظافر طويلا عنـد صفة العدل فى ممدوحيه ، وأكثر من الإشادة بها . واتفق مع المؤرخين فأكثر من وصف الأفضل به . ولما كانت قصائده فى الأكمل نادرة لم يتردد الوصف عنده ، ولـكنه وصفه به فيها . وخالف المؤرخين فى الخليفة الآمر فوصفه به . كذلك وصف به الأمير السعيد وابن نجيب الدولة .

ونظر ظافر أول ما نظر إلى الممدوح الذى رعاه ، وأطلق عليه لقبا عاما ، فهو أعدل الناس (٢) :

يا أفضل الناس أفعالا وتسمية ... وأعدل الخلق نفسا حرة وأبا

وكشف عما قام به تجاه العدل حتى استحق هـذا اللقب : فقد أدال الحق ، وأعدم حى الظلم ، وأحيا دفين العـدل ، ووفاه حقه ، ومد بسـاطه (٣) :

ومد بساط العدل حتى توقرت ... أسود الشرى فى القفر قبل ذئابه

والتفت ظافر إلى مظاهر العدل الذى بسطه راعيه : فـكان أكثر ما وصفه به أنه عدل عم الناس جميعا . قال للآمر(٤) :

عمرت جميع الخلق بالعدل فانتهى ... عن الوحش والطير الكواسر والأسد

وهذبت أفعال الزمان وأهله ... فلا خطأ فـيما يضر ولا عمـد

ووصل إلى كل مكان ، قال للأفضل(٥) :

يا مالك الدنيا الذى من عدله ... فى كل أرض عسكر جرار

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ١٧٠ ، ١٧٤ . ابن خلكان : الوفيات ٢ : ١٢٨ . ابن القلانسى ٢٢٨ .

(٢) ٣٣ .

(٣) ٣٤ ، ٣٥ ، ٧٧ ، ١١٣ ، ١٣١ .

(٤) ٧٩ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ٢٦١ .

(٥) ١١٤ ، ١١٣ .

فقد أخلى الحبوس ، وأجلى المكوس ، وقوم المعوج ، وهذب الزمان فرعى بذلك الدين والدنيا(١) :

وبيض مسود الليالى بعدله ... وأيامها من قبل ذلك سود
فقوم معوج الليالى بعــدله ... وذلل صعب الدهر وهو كنود

فممدوحه لا يميل به عن العدل مائل ، من حب أو كره أو طمع(٢):

ونفسك ليس تستهوى بفان ... ولا يغتالها مقــة وبغض
رعيت الدين والدنيا بعدل ... فحبك فى قلوب الخلق محض

ولو مكن راعيه من الزمن الماضى لقال كلمة الحق فى جرائمه الكبيرة، وثأر للمظلومين من أهله (٣) :

وسار عدلك فى الدنيا، فلو لحقت ... أيامه وائلا ما عاش جساس
عدل به بان وجه الحق فهو له ... فى كل فن مدى الأيام قسطاس

وعندما فرغ ظافر من وصف مظاهر العدل ، وصف نتائجه وآثاره . فقدخلت الأرض من الشاكين(٤) :

وأنصفت حتى ليس فى الأرض مشتك ... وأغنيت حتى ليس فى الأرض معسر

وأشرقت الأرض ، وزهت ، ورقصت ، كأنما تحتفل بعيد (٥) :

أفرض على الدنيا سوابغ عدله ... ففى كل يوم للسعادة عيد

وخافه الأقوياء ، فائتلفوا مع الضعفاء (٦) :

وأضاء العدل حتى لم تجد ... ظلم الظلم له من سبب
فلياليه حكت أيامه ... فكأن الشمس لم تحتجب
وبغاث الطير فى أفنانها ... آمنات من ذوات المخلب
وتوخى الليث إكرام الظبا ... واتقى السرحان ظلم الثعلب

---

(١) ٧٧ ، ٨٣ ، ١٣٨ ، ٢٧٤ .
(٢) ١٣٨ .
(٣) ١٣١ ، ٣٤ ، ٢١٢ .
(٤) ١٢١ .
(٥) ٧٧ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٧٦ .
(٦) ٣٤ ، ١٥٠ .

وتسلمنا هذه الصورة التى أكثر الشاعر من رسمها مجملة ومفصلة إلى نتيجة هامة من نتائج ما اتصف به الراعى من بأس ، وما أشاعه من عدل ، تلك هى استتباب الأمن فى البلاد . وقد عمل الفاطميون على نشر الأمن ، وإشاعة الطمأنينة ، وسهروا من أجل ذلك ، حتى اشتهرت مصر بالهدوء الذى يغلب عليها . وأشاد واصفوها بما يلفها من سكينة وراحة بال . قال المقدسى يصف المصريين (١) : « آمنوا من غاغة الأشرار . . قاضيهم أبدا خطير ، والمحتسب كالأمير ، ولا ينفكون أبدا من نظر السلطان والوزير » . وقال ناصر خسرو يصف البلاد ، كما رآها فى عصر المستنصر (٢) : « بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر . ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء منها . . » وقال الإدريسى (٣) يصف ما نعم به المصريون من أمن ، وأثره فى حياتهم : « لا تشتغل نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم ، لكثرة أمنهم ، ورفاهة عيشهم ، وانبساط العدل والحماية فيهم » .

لم يكن بد أن يترك هذا صداه فى الشعر ، وشعر ظافر الذى اتصل بحماة الأمن والساهرين على الطمأنينة خاصة . فلفت الأنظار إلى ما تجشموه حتى أمنت الدنيا بهم (٤) . وتغنى فى هذا الصدد بجهود بدر الجيوشى ، الذى استدعاه المنتصر لما ضعفت الخلافة ، وسقطت هيبتها ، وعاث الأمراء فسادا ، ونشروا الإرهاب والظلم . فجاء من عكا ، وأخمد الفتنة ، وأعاد للبلاد بهاءها . قال يمدح الأفضل (٥) :

(١) أحسن التقاسيم ١٩٧ .
(٢) سفر نامه ٦٤ .
(٣) نزهة المشتاق ١٤٢ .
(٤) ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٧٤ .
(٥) ٣٣ ، ٣٤ ، ١٥٠ .

يا ابن محيي الملك من بعد التوى . . . .

ومجير المولة الغـراء من	جور باغ رامهـا بالسلب
ومنير الأرض بالأمن وقد	أصبحت من خوفها في غيهب
والذى لبى مجيبا صوتهـا	بعـد أن نادت بمن لم يجب
فأتاهـا سـيله محتمـلا	كل ذى لب على ذى لبب
شب نار الحزم فيها فإذا	كل باغ عندها كالحطب

ووصف ظافر رعاته بأنهم سدوا الطرق أمام المخاوف ، فلم تجد لها منفذا إلى قلوب أحد من المصريين ، ما عدا الجبارين والعصاة والبغاة الذين لا يقر بهم قرار(١) .

لآمنت حتى ليس فى الأرض خائف	وروعت حتى ذل من يتجبر

وحين فرغ رعاته من إنصاف الناس من الناس ، سموا إلى حمايتهم من غوائل الدهر ، وجور الزمان ، وتصاريف الأيام والليالى ، قال فى الأفضل (٢) .

يا دوحة الفضل ، التى فى ظلها	للخلق من جور الزمان أمان
قد طاب أصلك فى المكارم مغرسا	وتفننت لك فى العلى أفنان
وروى ثراك سحاب كل فضيلة	وعلاه روض نوالك الريان

ورسم ظافر صورة البلاد بعد أن نفى منها الظلم ، وعمها العدل ، وشملها الأمن ، فصارت كالبيت الحرام ، يأمن كل من حل به ، حتى الحيوانات . وعندما وصل إلى هذه الصورة وردت إلى خاطره الصورة التى كررها فى حديثه عن البأس والعدل ، صورة الحيوانات المفترسة تعيش مع الحيوانات الأنيسة ، فلا يبغى قوى منها على ضعيف ، ولا يخشى ضعيف منها قويا ، وإنما يلفها الهدوء والاطمئنان (٣) :

ويحيى رضاه النفس بعد فنائهـا	ويفنى سطاه الليث داخل غابه
إذا ما عتا شيطان أرض ، وإن نأت	فأقرب شىء منـه نار شهابه

(١) ١٢١ ، ٣٣ ، ٣٤ . (٢) ٢٥٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٢١٢ .
(٣) ٣٥ ، ٣٤ .

أجار من الأيام ، فالحر آمن على نفسه من صرفها وانقلابه
ومد بساط العدل حتى توقرت أسود الشرى فى القفر قبل ذئابه
فما الحرم المشهور بالأمن فى الورى بآمن من صحرائه ويبابه

وأنت هذه الصور بنقائضها ، فما تتصف به من دعة وإشراق من فضل الممدوح ، ولولاه لحل الظلام ، وعـدم الأمن ، وأكل الناس ، قال للآمـر (١) :

لولا هداك وعدل أنت باسطه أضحى الورى نقدا ما بين آساد

فانتشر الفزع ، وغلب على الناس ، فطارت القلوب من الصدور ، والأرواح من الجسوم ، والنوم من العيون(٢) :

ولـولا أنت لم يلمم بغـين لمخـلوق من الثقلين غمض
ولم تسكن نفوس فى جسوم ولم يثبت لأعظمهن مخـض

وكانت الصورة النهائية لبأس الممدوح ، وعدله، وسهره على الأمن ، وكرمه ، أن عاد إلى البلاد رونقها وبهاؤها ، ورجعت روضة بعد يبس وذبول ، بل صارت جنة(٣) :

كأن الأرض من عدل وأمن وإنعـام تواصله جـنان

وطاب العيش لأهلها وعذب (٤) :

حكت لنا العيش فى أيام دولته لطيبه كاسـا كررته عـذبا

إذلان ورفه ، وابيضت ليـاليه ، وأشرقت أيامه ، وعمت الفرحة أوقاته ، فكأن أهله يخرجون من عيد إلى عيد ومن فرح إلى فرح ، قال للأفضل(٥) :

بقاؤك زهرة الدنيا ، فمهما بقيت فعيشنا خصب وخفض
وعصرك زهرة الدنيا ، وباق عصور قد خلت حلب ومخض
فأعراس المسرة فيـه شتى وأبكار المحاسن تستفض

ونخلص من هذا أن ظافرا ربط العدل والأمن وطيب العيش برباط

---

(١) ٧٩ .
(٢) ٣٣ ، ١٣٨ .
(٣) ٢٥١ ، ٢٧٤ .
(٤) ٣٣ ، ١٢١ .
(٥) ٣٤ ، ١٣١ ، ١٣٨ .

وثيق ، فالأمن توءم العدل ، وطيب العيش وليـــد الاثنين . وربط ظافر بينها وبين البأس وما يشيعه من هيبة صاحبه، لأن البأس سند العدل ، ولذلك لايمكن التفرقة بينها في شعره ، ومنحها صورا واحدة في بعض شعره ، مثل صورة الحيوانات الرائعة معا في جووبر وبحر . فقد جعلها مثالا للهيبة وللعدل ، وللأمن .

واغترف ظافر فيما رسمه من صور تحت هذه الصفات من التراث الشعرى القديم . فكشف عن معرفة وثيقة به ، وإدراك عميق لاتجاهاته ، فأحسن استلهامه . وأضاف إلى ما استلهمه منه اللمسات الصادرة من مخيلته ، والمغلفة بإحساسه .

وارتبط أيضا بالواقع الجارى أمامه . فالتقط من الصفات ماتوفر في ممدوحيه ، وما عنى به المجتمع المصرى ، وعرف عنه . وسجل من المظاهر ماأتى به رعاته حقا . فكان شعره في هذه المواقف أوثق ارتباطا بمجتمعه وعصره من شعره الذى نظمه في الجود . ولعل السبب في ذلك كون الجود خلة قديمة فخر بها العرب منذ جاهليتهم ، وأعطوها القسط الأوفى من عنايتهم ، فاستنفدوا الكلام عنها أو كادوا . أما العدل فلم يكن الأمر الذى يحرصون عليه في جاهليتهم ، ولا كان الأمن بالذى يرغبون فيه ، فحياتهم غارة في إثر غارة .

ولما تحرر الشاعر من التراث القديم في هذه الخلال ، استطاع أن يعطينا من الرسوم مايرتبط به ؛ ويعبر عنه ، ويدل عليه ، فهو نتاج تفكيره وتخيله . فكشفت هذه الرسوم عن مخيلة غنية وقادرة .

***

وأعجب ظافر ببعد الهمة ، وافتخر باتصافه به ، فلا غرابة أن يخلع هذه الصفة على الراعى الذى أحبه ، وجعله هماما ؛ لايقاس بهمته شيء (١) :

تقاصر دون همتك ارتفاع   وضاق ببعضها سعة وعرض

(١) ١٣٨ ، ٢٥ ، ٢٣٦ .

فقد فاقت كل همة تحلى بها إنسان ، واتصفت بالقوة والسرعة فضاقت عنها الأرض(١) :

ذو همة لو يلقى بعض ماحملت طود من الشم أدنى ساعة نكبا
ذو همة لو تلاها البرق وانية لاستعجزته على إسراعه وكبا

فإذا هم صاحبها بشيء امتنع عنه النوم خيفة فواته ؛ وخاصة أنه جمع — إلى بعد الهمة — النخوة والعصبية والعزم(٢) :

الفضل بعض صفاته ، والحمد بعـ ـض رواته ، والجود بعض هباته
والعزم من آلائه ، والحزم من أدواته ، والشكر من أقواته

* * *

ويسلمنا هذا إلى صفة أخرى كثيرا ما خلعها الشاعر على رعاته ، ولاتنفصل عن بعد الهمة كثيرا ، تلك هي العزم الذى لايماثله عزم ، ولايفارق صاحبه فى وقت من الأوقات(٣) :

هو الناس طرافى اعتزام وقدرة وفى الجود والفضل العميم وحيد
ترى العزم فى حرب وجود شريعة تحرم وعد عندها ووعيد
فجود عميم ينبت العز والغنى وعزم له هام الكماة حصيد

ووصف هذا العزم بالنفاذ كأنه السيف ، بل إن السيوف والدروع لاتستطيع أن تعوقه(٤) :

لك العزمات النافذات إذا انبرت إلى مقصد لم تمنع البيض والسرد

وبالسرعة التى تفوق الريح والبرق(٥) :

وجيش اعتزام تظلع الريح خلفه وتقفو أوالى البرق أخرى عرابه

وبالقوة فلا يضعف أبدا ، وكأنما هو الجيش الجرار ، أو النار التى

---

(١) ٢٥ ، ٣٣ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ٢٣٢ .
(٢) ٥٥ ، ٢٥٢ .
(٣) ٧٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ .
(٤) ٨٣ . (٥) ٣٥ .

تحرق الأبطال وتنشر الرعب فى النفوس (١) :

صوارم أضرمت فيها عزائمه نارا تعود بها الأبطال كالحمم
عزائم مايشيم الدهر وامضها إلا تخوف منها خوف منتقم

***

ووقف ظافر عند الحلم وقفة على شىء من الطول ، وتبينه فى ثلاثة من رعاته : الأمير السعيد ، والآمر ، والأفضل . وغريب أنه لم يتبينه فى الخليفة الحافظ ، الذى قال عنه ابن تغرى بردى (٢) : « وكان الأغلب على أخلاق الحافظ الحلم » . فحلم السعيد هو الذى ثبت الأرض التى اهتزت فرحا به (٣) :

طاشت سرورا به الدنيا، فوقرها بحلمه ، فلذاك الأرض لم تمد

وحلم الآمر بسط جناحه على الناس جميعا ، حتى كسب العفو للجانى قبل محاكمته (٤) :

وحلمت حتى إن عفوك يسبق الـ جانى إلى الغايات من تأمليه

وحلم الأفضل شامخ ، أعظم من الخطوب ، أتعب الأرض . قال وهو يعزيه (٥) :

لئن عظم الخطب الشديد محله فحلمك أعلى منه قدرا وأكبر
لقد زعزعت شم الجمال رزية ألمت ، ولكن طود حلمك أوقر

والتفت ظافر إلى بعض الصفات الخلقية الأخرى ، ولكنه لم يمنحها وقفة خاصة . فمدح جماعة من رعاته بالتواضع ، وأخرى بالحياء ، وثالثة بالعفاف ، ورابعة بالأمانة . ولكنه اكتفى بالإشارة إليها مرة واحدة كالعفاف أو مرات قلائل كالحياء .

***

والتفت الشاعر أيضا إلى الصفات غير الخلقية ، ووقف وقفة خاصة عند سداد الحلس ، ورجاحة الرأى . وأحسن وصف له فى هذا الصدد

(١) ٢٣٢ ، ٧٧ ، ١٢١ ، ٢٥٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٤٥ .
(٣) ٧٦ . (٤) ٢١٢ .
(٥) ١٢١ ، ٣٤ ، ٧٠ ، ١٥٠ ، ٢٣٢ .

أعطاه للمأمون االذى نعته فى وزارته بصواب الرأى ، وقبلها بتوقد الخاطر ، ونفاذ الذهن ،وبعد الرؤية ، وحسن الاستدلال (١) وقال فى ابن أبى شجاع :

يكاد خاطره لولا ندى يده   إذا تكرر فيه الفكر يضطرم
تبدو شموس المعانى من بديهته   إذا دجت فى رويات النهى الظلم
يرى من اليوم ما يأتى به غده   والشهر والعام حتى ليس ينخرم

أما الحافظ فنعته بأن مرآة رأيه من الصقل بحيث تظهر له الدقيق من الأمور . وأما الأفضل الذى وصفه ابن القلانسى بأنه كان (٢) « صائب الرأى والتدبير ، ثاقب المعرفة ، صافى الحس ، صادق الحدس » ، فاكتفى بنعته بصواب الرأى والبديهة . فإذا زاد على ذلك ، ذكر أن هذا الصواب كان فيما أظلم وأبهم فلم يهتد الناس إلى وجه الصواب فيه ، وإن رأيه جاء بالعز والسعد (٣) :

والعز والسعد فى رأى تشير به   وأنت من حادثات الدهر فى حرم

وكما فعل فى الصفات الخلقية فعـــل هنا أيضا ، فالتفت إلى بعض الصفات ، معطيا إياها أدنى عناية ، ومشيرا إليها مرة أو اثنتين أو أكثر قليلا مثل العلم والفصاحة (٤) .

***

وألقى ظافر نظرة سريعة على وجه راعيه ، ومنحه إشارة خاطفة إلى إشراقه وسطوع الضوء من جبينه ، فماثل البدر ، بل أخجل البدر أحيانا . وأكثر من مدحه بذلك الخليفة الآمر ، الذى قد نفهم من بعض وصفه أنه يقصد إلى أمر معنوى لا إلى وصف جسدى ، مثل قوله له (٥) :

وما الناس إلا كالدجى وصباحها   أئمتها ، والشمس آخر ما يبدو
إمام تبدى للورى من جبينه   ضياء به تشفى بصائرها الرمد

---

(١) ٢٣٥ : ٢٦٠ .
(٢) ٢٠٤ . ابن خلكان ١ : ٢٢٢ .
(٣) ٢٢٥ ، ٥٦ ؛ ٧٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ .
(٤) ٤٩ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ .
(٥) ٨٣ .

ولكن يتعذر علينا ذلك فى أوصافه الأخرى ، مثل قوله (١) :

يبخل جوده ديم الغوادى ويخجل وجهه بدر التمام

فنعجب أن يصف الشاعر الآمر بذلك على حين يصفه ابن تغرى بردى بأنه كان(٢) « شديد الأدمة جاحظ العينين » . ولا يبرئه من الإنكار عليه إلا كونه وصفا تقليديا فى كثير من الشعر. كذلك كرر وصف الأفضل بمثل ما وصف به الآمر ، غير أنه لم يخجل البدر منه وإنما أعشى الشمس(٣) :

لغرة وجهك الميمون نور لعين الشمس تحت سناه غض

وأطلق هذا الوصف على المرتضى بن الأفضل ، فى الاحتفال بزواجه، وعلى أبى الفضل ، وتغنى بجمال وجوه بنى أبى شجاع(٤) .

وبذلك تكتمل الصورة الخلقية والخلقية للراعى عند ظافر ، فيعلن ذلك إعلانا صريحا(٥) :

فقد تكاملت فى خلق وفى خلق حتى تنافس فيك السمع والبصر

وبرز من بين الناس فردا ، « أوحد الناس فى خلق وفى خلق » (٦).

* * *

فإذا أضاف الشاعر إلى هذا الكمال سعدا يتبع الراعى ، وتوفيقا يؤاخى عزمانه ، وليالى تابى أمره ، ودهرا يخدمه ، وسعادة عرفت عنه جعلت النيل يفيض فى نسق فيجلب الخير العميم ، وأتت بكل أمرهم به قبل أن يتفوه باسمه ، إذا فعل هذا لم يبق من صورته «رجلا » شيء ، وإن بقى من صورته « سلطانا » أشياء(٧) :

إذا همت بقصد فى الضمير أتت به السعادة قبل الأمر بالكلم

---

(١) ٢٣٦ ، ١٠٣ .

(٢) ١٧٣ .

(٣) ١٣٨ ، ١٥٠ .

(٤) ٤٥ ، ١٣١ ، ٣٠٥ .

(٥) ١١٢ ، ١١٣ ، ١٨٤ .

(٦) ٢٥٢ .

(٧) ٢٢٥ .

وقد تبين خللا فى الصورة ، إذ لم يعن الشاعر بالوصف الجسدى بل الوجه الذى التفت إليــه لم يعطه حقه من الالتفات . ولكنه فعــل ذلك عن عمد ، فما كان شيء من الوصف الجسدى لراعيه يهمه ، ولا يهم راعيه ، ولا يهم المجتمع كله . ولولا التقليد الشعرى ما التفت إلى ما التفت إليه من إشراق الوجه ، وسطوع نوره . ولولا المناسبة والتقليد الفنى ما التفت إلى تشبيه المرتضى بالبدر فى الاحتفال بأعراسه .

ولم يطل الوقوف عند بعض الصفات ، من رجاحة عقل ، ووفرة علم ، وفصاحة لسان ، وحياء وجه ، وعفة خلق . ولكنه فعل ذلك لأن المجتمع نفسه — فى عهده — لم يكن يعطيها أكثر مما أعطاها ظافر من الاهتمام فى الحاكم ، ولأن الشاعر المادح كان يبحث عن صفات غيرها فى راعيه .

وتضخمت الصورة فى الجود خاصة ، وتكرر كثير من تفاصيلها ، دون زيادة أو تغيير . وسار كثير منها على نمط صور سابقة من قلم غيره من الشعراء . فلم تختلف عنها فى قليل أو كثير أحيانا . واختلفت فيما ارتدت من الألوان فى أحيان أخرى . ولكن الشاعر كان مضطرا إلى ذلك ، لأن « الجود » هو الخيط الذى يربط — أول ما يربط — بين الراعى والمادح فإن وهى كادت الصلة بين الرجلين تنقطع ، وإن أحكم فتله ، وقوى دعمه ، زادت العلاقة وثاقة وإحكاما .

وحملت الصورة أوضارا من التقليد ، الذى نأى بها عن الواقع الجارى أحيانا ، وأوقعها فى حمأة الرتابة أحيانا أخرى ، وأفقــدها رواء الشخصية فى أحايين .

ولكن عندما تقع عليها العين الشاملة النظرة تجد منظرا عاما يختلف عن المنظر العام الذى تراه مثل هذه العين فى الشعر الصادر من عصور سابقة ، وفى مجتمعات مختلفة . فإذا كان الجود احتفظ بمكانه فى الصورة العامة ، فإن الشجاعة الفردية تخلت عنه لنوع من الشجاعة الاجتماعية قد نسميها مع الشاعر « البأس » الساعى إلى خدمة المجتمع كله .

وبرزت فى الصورة عناصر أخرى لم تكن تأخذ حيزا جليا فى الصور التى رسمها الشعراء القدماء ، مثل الهيبة والعدل والأمن . وعبر الشاعر فى هذه العناصر عن مجتمعه فأحسن التعبير . فقد كان المجتمع هو الذى أهداها للشاعر ، وأشعره بخطرها ، وحببه فيها .

وتنبه الشاعر إلى خصائص فيمن مدحهم تفردهم عن غيرهم ، فالتقطها ، وجلاها فى الرداء الذى استطاع أن يلبسها إياه ، فأحسن الجلاء .

والتقط أفكارا صغيرة جعل منها لمسات شخصية فى الصور التى احتذاها ، كيلا يقنع بالتقليد المجرد ، ويضيف إليها ولو لونا واحدا جديدا ، ويضع فيها بذرة تدل على شخصه .

***

وقف ظافر عند الممدوح « الرجل » وقفة طويلة ، استغرق فيها صفاته الخاصة والعامة ، الخلقية والخلقية ، أو ما أراد منها ، ولكن ذلك لم ينسه أن ممدوحه « صاحب سلطة » ، وأن ذلك يقتضى من الشاعر نظرة عامة إلى جوانب أخرى ، غير صفات الممدوح الخاصة ذات الأثر البعيد فى سلطته وفى مجتمعه .

ولعل أول ما يتصل بهذا الجانب أحقية الممدوح بالسلطة ، وهو عنصر هام من عناصر مدح ظافر لمن يمدحه ، من الخلفاء والوزراء ، بسبب الظروف التى قامت فيها الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر السنية ، وما واجهها من مصاعب ومشاكل .

وقد اعتمد الفاطميون فى إثبات حقهم فى الخلافة على الدين ، أو على الدم والدين . أما الدم فقد أعلنوا منذ إقامة دولتهم فى المغرب أنهم علويون ، وأن المهدى أول خلفائهم هو عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . ولكن هذا الإعلان لم يجد قبولا عاما ، بل ووجه بمعارضة شديدة ، بلغت إلى درجة نسبة القوم إلى اليهود ، وإصدار الدولة العباسية وثيقة أعلنت على الملأ تنفى علويتهم وتشكك فى إسلامهم . وطبيعى أن يواجه الفاطميون هذه

الحملة عليهم بحملة مماثلة تؤكد علويتهم ، وتدعمها فى عقول الناس . وكان الشعر واحدا من أهم أسلحتهم فى حملتهم .

وكان مثل ظافر مثل بقية شعراء الفاطميين فى هذه القضية . نسبهم مرة إلى الحسين فقال عن الحافظ (١) :

أخلاقه نبوية علوية ... حسنية ، أعظم بها من شانا

وردد فى أكثر القصائد علويتهم (٢) :

خير الخلائف من أبناء حيدرة ... وفاطم ، أى آباء وأولاد

ولم يخل قصيدة من قصائده فيهم من نسبتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) :

فيا ابن رسول الله ، هذا أوانكم ... وعدتم به ، والآن ينتجز الوعد

وعندما كان يصل إلى هذه الفكرة ، كان يورد مناقب الرسول ؛ إذ وجد فيها منقبة ومفخرة لهم . وردد من هذه المناقب انتصاره فى بدر وأحد ؛ وما صوره القرآن من نصر الملائكة له ، وقصة المعراج لما تحوى من تشريف الله لرسوله ، أكثر من ترديده غيرهما من المناقب ، قال للآمر (٤) :

وتقول مكة عند ذاك وطيبة ... هذا ابن حيدرة الرضا وبتوله
هذا ابن من أدناه منه إلهه ... كالقاب من قوسين فى تمثيله
هذا ابن من نطق الذراع بجده ... إذ سمه الكفار فى مأكوله
من آمنت جن البلاد به ، وقد ... سمعت كلام الله فى تنزيله
مازال ينقله الإله مطهرا ... عن ظهر مثل ذبيحه وخليله
وتوارثته الأنبياء وسادة الـ ... ـخلفاء حتى حان وقت حلوله

واستلهم هذا النسب فى مدح العلويين عامة . فإلى جانب مناقب الرسول

---

(١) ٢٦١ .
(٢) ٧٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦١ .
(٣) ٨٣ ، ٧٩ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٦١ .
(٤) ٢١٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٦–٧ ، ٢٦١ .

التى لهج بالتغنى بها ، عادا إياها من مناقبهم ، لقبهم آل وحى الله ، وآل المناسك(١) :

وآل الحجر والحجر المعلى وأرباب المقامة بالمقـام

ونعتهم بالهداية والكرم المتوارث ، من كان منهم بالمشرق أوالمغرب(٢) :

حوى شرف المناقب باختراع له ، وبإرث آباء كرام
هداة كالكواكب ، وهو بدر وعقد ، وهو واسطة النظام
شموس أشرقت فى الغرب لكن مطالعها من البيت الحرام

واستلهم ذلك كله فى مدح الخليفة . فأعلن أن الله بعث بالآمر آباءه ، عرف ذلك الدانى والقاصى ، حتى تشوقت إلى رؤيته البقاع التى رأت هؤلاء الآباء الكرام ، وشاهدت مناقبهم ، وودت لو منحها دو زيارة أو لو استطاعت هى انتقالا إلى مصر لتستعيد برؤيته ماضيا عزيزا عليها(٣) :

أنت الذى بعث الإله لنا به آبـاءه فتمثلوا بمثوله
حتى لقد ود الحجاز تشوقا لوزاره برسومهم وطلوله
فيرى اوجهك مارأى من حقهم فيما مضى بجماله وجميله

ورد المنزلة التى سما إليها الآمر إلى أمرين ، المرتبة التى شغلها هؤلاء الآباء ، والجهد الدائب الذى بذله دو (٤) :

له على شرف العلياء مرتبة منيفة ذات أطناب وأوتاد
علياء ، أسسها آباؤه ، وبنى فيها بغر الأيادى فوق أطواد

فصار من علو المكانة كالبدر وهم الكواكب ، أو الواسطة بين حبات العقد .

واحتاج الحافظ إلى زيادة فى الدفاع عن أحقيته فى الخلافة . فلم يكن ابنا للآمر ، وإنما كان ابن عمه ، ولم يرث الخلافة الفاطمية عن غير أبيه

(١) ٢٣٦ ، ٨٣ ، ٢٦١ .
(٢) ٢٣٦ .
(٣) ٢١٢ .
(٤) ٧٩ ، ٢٣٦ .

أحد قبله . ولم يكن وليا للعهد بل نصب وصيا . ثم تولى الخلافة بدون نص معروف من الخليفة السابق وذلك أمر ضرورى عند الفاطميين . فدافع الشاعر عنه بأنه مثل أبيه الإمام على الذى ورث الخلافة عن ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أجدر الناس بها لأنه أقدرهم على تحمل أعبائها ، وأجمعهم لشروطها (١) :

إن الخلافة لم تزل عن أصلها ... بل أصبحت فى ملك ناظم شملها
صارت إلى من لوحواها غيره ... ما كان مضطلعا بأيسر ثقلها
ورث ابن عم محمد من بعده ... حق الخلافة منصفا فى نقلها
وورثت أنت عن ابن عمك حقها ... فجرى قياس خلافة فى شكلها
والله ، مااختارتك إلا بعد ما ... وجدتك أولى وارث من نسلها
حتى لو اجتمع الخليقة كلها ... من شيخها أو طفلها أو كهلها
لم ينهضوا بدقيقة من حمله ... وجدتك أنهض من يقوم بحملها

واتبع الشاعر النهج نفسه فى مدح الوزراء والكبراء . فأشار كثيرا إلى طيب الأصل والفرع ، وجودة الثمر ، وعظمة محاسن الأسرة . قال يمدح الأفضل (٢) :

إن كان هذا الخلق أصل وجوده ... طين ، فأصلك جوهر ونضار
لاشك لما طاب أصلك فى العلى ... والمجد طابت هذه الأثمار
ثمر جيوشى المغارس أفضلى ... الفرع ، للفضلين فيه شعار

وردد — فى مدح الأفضل — الإشارة إلى أبيه بدر الجيوشى ، وما قدم من خدمات للخلافة التى كادت تسقط لولا نصره إياها بعد قدومه من الشام (٣) :

أما أبوك الذى ردت عزائمه ... للملك فيما مضى الحق الذى اغتصبا
وأمن الأرض بالخوف الذى نهبت ... أدنى سراياه فيها أمن من نهبا

(١) ٢١٨ .
(٢) ١١٤ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ١١٣ — ١ ، ١٣١ ، ١٥٠ ، ٢٥٠ .
(٣) ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٢ .

ونعته بأنه ـ كالخلفاء ـ ورث السلطة عن هذا الأب ، فأخذها مستحقا لها(١) :

ماحويتم ملككم ظلما ولا دفعت منكم ان لم يجب
بل بحق ظاهر برهانه ما أضاءت شمسه لم تغرب
كل من أحيا مكانا ميتا حازه ملكا بفتوى المذهب

وبالرغم من ذلك لم يتكل الأفضل ولا ابنه الأكمل على المجد الذى كسبه بدر الجيوشى بل لم يذكره كل منهما ، وجد فى ابتكار المآثر والتفوق على الماضى التليد(٢) :

يرى فخره عيبا إذا لم يكن بما تجدده من راحتيه الصنائع

أما الدعامة الثانية التى اعتمد عليها الفاطميون فى خلافتهم فتستند إلى أن الخلافة منصب دينى ، وأن الخليفة إمام للدين ، فهو الذى يؤم الناس فى الصلاة . ويلقى خطب الجمع والأعياد ، وينوب عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حماية الدين وإقامة فرائضه وتنفيذ الشريعة .

ويعد الشيعة الخلافة من أركان الدين ، وعلى بن أبى طالب الوريث الشرعى لها بعد الرسول بنص القرآن والسنة ، وتعيين الإمام من أبناء الحسين بن على واجبا بلا رجوع إلى الأمة .

وتأثر الفاطميون (٣) فى تصورهم للإمام بالأفلاطونية الحديثة وبتصور الفرس لأكاسرتهم . فذهبوا إلى أن الله أبدع القلم ، وجعلوا له الصفات التى وصف بها الفلاسفة العقل الكلى . وأضافوا إليها أسماء الله الحسنى بعد أن نزهوا الله تعالى عنها . فالقلم أو العقل أعلى الحدود الروحانية مرتبة وأقربها إلى الله تعالى . ويليه «اللوح» الذى جعلوا له صفات النفس الكلية عند الفلاسفة . وتطبيقا لنظرية المثل والممثول التى آمن بها الفاطميون قالوا بوجود حدود جسمانية بإزاء هذه الحدود العلوية . فالنبى فى عصره مثل العقل ، والوصى مثل النفس ، فإذا

---

(١) ٣٤ ٥٦ ١٥٠ .
(٢) ١٥٠ ٢٧٤ .
(٣) محمد كامل حسين : نظرية المثل والممثول ٧ .

انتقل النبى إلى العالم الآخر أصبح الأئمة مثلا للعقل،وحججهم مثلا للنفس. وقالوا إن كل حد جسمانى له نفس الصفات التى لمثوله فى الحدود العلوية .

وكان شعراء الأئمة شغوفين بالإلمام بالعقائد الإسماعيلية الفاطمية فى شعرهم ، إما عن عقيدة دانوا بها كالذى نراه فى شعر تميم بن المعز والمؤيد فى الدين ، أو تقربا للأئمة بقصد العطاء كالذى نراه فى شعر عمارة اليمنى . فإذا قرأنا قصائد المدح فى شعرهم نراهم قد مدحوا الأئمة بصفات العقل .

ولم يشذ ظافر عن شعراء عصره غير أننا لا نجد عنده تعمقا فى فلسفة الفاطميين أو إمعانا واعيا وراء معتقداتهم ، وإنما نجد عنده صدى لليسير الواضح القريب منها . فقد أعطى الإمام الألقاب التى أطلقت عليهم ، مثل عروة الله ، وحجة الله ، والحجة العظمى ، وباب الله ، وضياء الله ، وإمام الحق ، والمقصد الأقصى . قال للحافظ(١) :

يا حجة الله التى وجبت على أهل الزمان بفرعها وبأصلها
ياعروة الله التى لم ينتفع إلا امرؤ علقت يداه بحبلها

وأعطاه بعض الصفات النبوية مثل الهادى والشفيع ، قال للآمر(٣) :

ياعروة فازت المستمسكون بها
أنت الشفيع ، وأنت المرشد الهادى

ولما كان يريد أن يمدحه ، ولا يجد سبيلا إلى ذلك عجزا منه ، فقد فطن إلى أن القرآن قد سبقه إلى مدح الرسول وآله ، وأن القرآن معجز فلن يبلغ مدحٌ مبلغ مدحه . وردد هذه الأفكار كثيرا حتى قلما خلت منها قصيدة له فى الخلفاء ، سواء أراد بها خليفة معينا كما فعل فى أكثر

---

(١) ٢١٨ ، ٨٣ ، ٢١٢ ، ٢٦١ .
(٢) ٧٩ ، ٨٣ .

الأحيان أو آل الرسول جملة كما فعل في أفلها . قال للآمر (١) :

مدحتك واختصرت، وذاك معنى ... أشير به لأفهام لطاف
لأني إن أطلت المدح جهـدى ... فبالتقصير آخره اعترافى
ومدحك فى كتاب الله نص ... وحسبك منه كاف أى كاف

وعبر عن رأى الشيعة إن الامام عليا وأبناءه بعده هم الورثة الشرعيون للخلافة ، وإن أبا بكر الصديق والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين اغتصبوهم حقهم ، مستدلين بتأويل بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى فى سورة الزخرف : « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » ، وببعض الأحاديث النبوية مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » . فقال(٣) :

لأنت وارث ملك الأرض قاطبة ... ومدعيه سواك الغاصب العادى
وسوف تكمل ما استوجبت حوزته ... بمنزل الوحى لا إخبار آحاد

وعبر عن آراء الفاطميين فى مركز الخليفة بالنسبة للدين . فالخليفة هو قوام الدين والدنيا ، به استقر الحق ، واتضح الهدى ، وانقشع الضلال ، وبذكره وآله تكمل الصلاة ، ولولاه ماعرف الحلال والحرام(٤) :

هو السبب الذى لولاه فينا ... لما عرف الحلال من الحرام

ووقف طويلا عند أمرين : وجوب طاعته ونصره . وكان الفاطميون(٥) يرون أن الله عز وجل فرض طاعتهم على عباده فى كتابه ، وقرنها بطاعته وطاعة رسوله ، فقال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فينبغى لمن خصه الله بأن كان من أتباعهم أن يعتقد إمامتهم اعتقاد من يرى ويعلم

---

(١) ١٧٠ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٢١٢ ، ٢٦١ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢٥٤ . مشرفة : نظم الحكم بمصر ٥٥ .
(٣) ٧٩ ، ٨٣ .
(٤) ٢٣٦ ، ٧٩ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ – ٠٧
(٥) القاضى النعمان : الهمة ٣٨ – ٠٩

أن رضاهم موصول برضاء ربه، وسخطهم مقرون بسخطه ، فيتحرى من ذلك مايرجو به رضا الله الذى جعـل الجنة ثوابه ، ويجتنب ما يوجب سخطه الذى جعل النار عقابه ، ويستغفر الله لما عرض له فى ذلك ويعلم أنه ذنب عظيم من الذنوب ، ويسلم لهم فى كل الأمور عالما أنه إن لم يفعل ذلك وخالفه أو شيئا منه لم يكن مؤمنا لقول الله جل من قائل : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجـدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . فهذا فرض من الله جل ذكره على المؤمنين لرسوله الذى قرن طاعته بطاعته وطاعة الأئمة بطاعته .

وصدى هذه الآراء واضح فى شعر ظافر . فطاعة الإمام عنده دين ، أو واحد من فرائض الدين، هدى الله الناس إليه . فمن أداه نصره الله وأدخله جنته ، ومن عصاه أباده . قال فى مدح الآمر (١) :

فمن عاش أحياه نداه ، ومن يمت ... على حبه طوعا فمسكنه الخلد

أطاعته أسرار القلوب ديانة ... فما لامرئ لم يعتقد حبه رشد

ورأى الفاطميون(٢) الجهاد فى سبيل الله مع أولياء الله فى أرضه ومن أقاموه من عباده على من خالفهم من مسلم أو كافر فرضا من الله بين عباده ، وأن له حدودا جماعها تقوى الله وطاعة الأئمة ومن نصبوه ، وبذل النصيحة والاجتهاد فى اجتياح أعداء الله ، وأن النصر الأخير لهم اعتمادا على قوله تعالى: «وإن جندنا لهم الغالبون »، وأنه ما من نبي بعث ولا وصى ظهر إلا أشار إلى الأئمة ولوح بهم .

---

(١) ٨٣ ، ٢١٢ ، ٢١٨ .

(٢) الهمة ٥٩ – ٦٢ . رسالة المعز إلى الحسن بن أحمد القرمطى (اتعاظ الحنفا ٢٥٤ ؛ ٢٦٠) .

وتلقف ظافر بعض هذه الآراء وصاغها شعرا ، فأعلن أن الكتب السماوية نطقت بنصر الأئمة ، قال للآمر (١) :

ومبيد ملك الروم بالنصر الذى نطقت به الآيات من إنجيله

وردد فى كثير من قصائده نصر الملائكة للخليفة الفاطمى كما نصرت أباه صلى الله عليه وسلم فى مغازيه(٢) :

وإن خفقت راياتك الحمر سبحت لنصرك أعلاها ملائكة جند

وختم بأن الدين يلزم أتباعه أن ينصروه(٣) :

له أربع فى الناس نيطت بأربع فما لامرئ عنها فكاك ولا بد
فطاعته فرض ، وخدمته تقى ونصرته دين ، ومرضاته جد

ويسلمنا هذا إلى موقف الخليفة من الحروب الصليبية . أما الحافظ فلم يتحدث عنها فى قصيدته فيه . وأما الآمر فقد أطنب فى الجهود التى بذلها لصدهم ، وحماية الدين من عدوانهم . فأعلن أنه أعد لهم جيشا جرارا من الملائكة المسبحين ، والمقاتلين الزاهدين فى الحياة المتمنين للموت وزوده بالعدة والعتاد ، وبثه فى البر والبحر (٤) :

وإن خفقت راياتك الحمر سبحت لنصرك أعلاها ملائكة جند
وخطية سمر وبيض صوارم ومسرودة زغف ، ومقربة جرد
وقوم مناياهم مناهم إذا اقتضت رضاك ، وفى طيب الحياة لهم زهد

---

(١) ٢١٢ ، ٢٣٦ .
(٢) ٨٣ ، ٧٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ .
(٣) ٨٣ .
(٤) ٨٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ .

وذكر أنه قاوم الكفر المستفحل الخطر . وبشره بالنصر القريب الذى وعده الوحى به ، فيمحو الفرنجة، ويبيد الروم ، ويستعيد الشام ، وبذلك يثأر للإسلام(١) :

لابد للشرك من يوم تعيد له ... فيه سيوفك فعل الريح فى عاد
ما الشام إلا كماء فوقه شرك ... والروم سرب قطا جاءت لإيراد
وقد أضر بها من دونه ظمأ ... وحد سيفك فيهم أى صياد

ولما رأى بعض تباطؤ منه حثه على المعركة ، والمبادرة إليها ، فقد طال تشوق الأسلحة والجنود إليها ، فعبر بذلك عن أمانى الجماهير(٢) :

بادر بيوم مثـل بدر إن يكن ... لأبيك ذاك فإن ذا لسليله
واجر الجياد ، فكل طرف سابح ... شوقا لهذا النصر جل صهيله
وشم السيوف إذن ، فكل مهند ... لرقاب أهل الكفر فرط نحوله

ونفرغ بهذا من تتبع وقفة ظافر عند الخلفاء الفاطميين ، وتصوره المذهب الفاطمى لهم ، وجهودهم من أجل الدين وحمايته من هجمات الصليبيين ، فيتبادر إلى أذهاننا هل كان لذلك صدى فى موقفه من الوزراء . وفعلا ، نجد شيئا من التشابه فى موقفه من الفئتين ، غير أنه لا يقف عند آراء الفاطميين فى الوزارة . ولعل الإشارة الوحيدة التى تمت إلى هذا الموقف قوله إن الله هو الذى اختار الأفضل لمنصبه ، وهو يمدح القائد محمد بن أبى شجاع باختيار الأفضل له(٣) :

فاختاره الله ، واختارتك همته الـ ... عليا التى عجزت عن بعضها الهمم

---

(١) ٧٩ ، ٨٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ — ٧ .
(٢) ٢١٢ .
(٣) ٢٣٥ .

أما وقفته الطويلة فكانت عندجهود الأفضل وأبيه فى سبيل حماية الدين ، وصراع الأفضل مع الصليبيين . فقد نعت الأفضل بعصمة الدين ، إذ لبى صارخه ، وشمر للدفاع عنه حين نكس كل حاكم آخر ، فأغاثه فى نكبته ، ولولا سيوفه لهدت أركانه(١) :

أمغيث الدين نصرا حين لم ... يبـق مـنه منكب لم ينكب
وملوك الأرض كل غافـل ... عنـه فى التقصير أوفى اللعب
قمت لله احتسابا صـادقا ... ناهضـا فيه بعبء متعب
مستمر الجـد فى استصلاحه ... آخـذا مـنه بجمع أرحب
ليس يلهيك مـرام دونه ... لا ولا يثنيك طول الدأب
جاهدا تقدم حـتى رده ... حزمك الثبت لأعلى منصب
فجزاك الله عن إسلامـه ... خير ما جازى به من يجتبى

وكما فعل مع الآمر ، فعل مع الأفضل ، ومآل الفعلين واحد ، إذ ذكر أنه أعد جيشا لجبا ملأ البر والبحر (٢) :

يضايق وجه الأرض طورا بجيشه ... فأعوز شىء جلسة فى رحابه
وثار به فى ساحة الجو قسطل ... فضاقت على عقبانه وسحابه
وأطرف طرف الشمس حتى كأنها ... وقد خفيت وسنى لفرط ضبابه
وبث على البحر الأساطيل جحفلا ... بأكثر من نيرانه ودوابه
فضم متون اللج منتظم القنا ... كما يتراءى شبههم فى إهابه

وانفرد الأفضل عن الآمر بغزواته التى شنها على الصليبيين ، فحاز فيها النصر ، وسر جموع المسلمين (٣) :

تضمنت غزوات كلما ضحك الـ ... إسلام عنهن ناح الكفر وانتحبا
أرضى المساجد والزهاد عنه ألا ... لله ما أسخط الرهبان والصلبا
وللأذان سرور فى مواطنه ... تبدى النواقيس منه الويل والحربا

---

(١) ٣٤ ، ٧٧ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ .
(٢) ٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٠ .
(٣) ٣٣ .

ثم بشره بالنصر – كما فعل مع الآمر – وحثه على معاودة القتال ، والاستبسال فيه إلى النهاية :

ضمر خيولك للنصر التي وعدت ... وثقف السمر حزما وارهف القضبا

أبشر فعدات وفد النصر قادمة ... كالجيم من بعد خمس وافت القربا

واسفك لا دمافى ط الأعداء منتظرا ... فلو أشارت له أسيافك انسكبا

ونخلص من هذا إلى موقف الوزراء من الخلافة . وقد مهد لوصف هذا الموقف – فى مدحه للمأمون وحده – بإبانة فضل الخلافة عليه ، إذ اصطفته بعد تجربة ، وغرسته فوجدته ، ولذلك ألقت أعباءها على أكتافه واعتمدت عليه (١) :

غرستك فى النعم الغزيرة ناشئا ... فتفرعت لك فى العلاء غصون

فجنت لها منك التجارب مجتنى ... كل الأطايب حين تذكر دون

ثم منحه الألقاب العامة التى تكشف عن مكانته من الخلافة ، فهو نعم الذخيرة لها ، وهو كفيلها ووزيرها ، وهو سيفها ، وهو جنانها ولسانها ويمينها . وكان أكثر هذه النعوت من نصيب المأمون لا الأفضل . قال له(٢) :

إن هم فهو جنانه ، أو قال فه ... و لسانه ، أو صال فهو يمين

أصبحت سيفا للخلافة حاليا ... حيث ازدهى بك عاتق وجبين

فافخر فأنت وزيرها ومشيرها ... وأمينها وظهيرها الميمـــون

ثم تتبع ما عمل فى سبيل إعلاء شأنها ، فقد كفاها ما كان وما يكون ، ونصحها فأحسن النصح ، وثبتها بالحزم وحمى أصدقاءها ، وأفنى أعداءها . ووزع هذه الأعمال على الأفضل وأبيه والمأمون . قال للأفضل(٣) :

أنت ابن من نصر الخلافة عزمه ... بالسيف بين منافق ومـــداج

وأصاب فيها الرأى والألباب لم ... تظفر برأى قبل غير خـــداج

---

(١) ٢٦٠ ، ٨٤ ، ٢٥١ .
(٢) ٢٦٠ ، ٨٤ ، ٢٥١ .
(٣) ٥٦ ، ٧٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ .

ثم أفرد الأفضل بأن أباه ذو فضل عميم على الخلافة إذ لبى دعوتها بعد أن يئست من كل نصير ، فأجارها من الظالمة وجمع شملها المشتت ، ووطد ما تزعزع منها ، واسترد مانهب من حقوقها ، فأعاد إليها الحياة (١) :

فيا ابن مغيث الملك بالرأى والقنا　　فقصدك للنوعين منه سديد
أبوك الذى شد الخلافة بعدما　　تزعزع منها بالنفاق عمود
فأبقاك للدنيا وللدين عصمة　　تجرد حربا فيهما وتجيد

ونتهى بذلك من الدعامتين اللتين أقام عليهما الفاطميون خلافتهم ، ومن الصفات التى استنبطها ظافر من هاتين الدعامتين وأعطاها للخلفاء والوزراء ليثبت دعائم الخلافة أولا ، ويؤكد جدارة الخلفاء والوزراء بالمنصب الذى يتقلدونه . وتبقى أمامنا — فى هذا الصدد — دعامة شخصية ، ليست من الدم ولا الدين ، إنما يتحلى بها فرد دون فرد ، فمن تحلى بها صار حقيقا بالحكم ، تلك هى حسن السياسة .

وكثيرا ما أشار ظافر إلى هذه الصفة ، ولكن دون تفصيل أو توضيح قال للأفضل(٢) :

رتب خصصت بها وما صادفتها　　لكن أفادكها الحجى والسؤدد
وسياسة ورياسة ونفاسة　　وتفقد وتسدد وتأيد

فإن زاد على ذلك ذكر أنها سياسة أعجب الملوك بها ، أو ذلت الزمان أو أن ممدوحه نعم الراعى(٣) :

وذلت الزمان لها ، ولولا　　سياستك استمر به الحران
فصار إذا نحوت به مرادا　　فأسبق ما تجاريه الرهان

---

(١) ٣٣ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ١٥٠ .
(٢) ٨٤ .
(٣) ٢٥١ ، ٨٤ ، ٥٦ ، ١٥٩ ، ٢٧٤ .

وإن نعتها أبان أنها تحفظ الدين أو أنها عطوف كالأم فى حنانها (١) :

راضت سياستك البلاد وأهلها فكأنها أم وهم إخوان

وإن حاول أن يبين حقيقتها اكتفى بأنها تستخدم اللين والقوة فتحسن استخدامهما :

وأعطيت السياسة حالتيها بما قضت الشراسة واللیان (٢)

ونستبين من هذا أن ظافرا أطال الوقوف عند الدعامتين السابقتين ، ولم يطله عند هذه الصفة الشخصية . واختلفت حقيقة هذا الوقوف عند كل رجل من رعاته . فجسد فى مدح الخلفاء الآراء المذهبية الواضحة تجسيدا شعريا ، لم يعن فيه بالدفاع عن حق الفاطميين فى الخلافة دون العباسيين ، ولا بتتبع الآراء العويصة والبعيدة التناول فى فلسفتهم التى أداروها حول الأئمة . وإنما عنى بنسبة الفاطميين إلى أبناء البتول ، وما يكسبهم هذا من فخار ، وما يمنحهم من مناقب . واحتاج الحافظ إلى دفاع خاص ، فأحسن الدفاع عنه ، وأجاد القياس ، وإن كنت أخشى أن يكون هذا القياس من ابتكار الخليفة ودعاته وأعوانه ، ألقوه إلى الشعراء ، ليصوغوه نظما .

ووقف عندما يجب للخليفة على رعيته من فرض الطاعة والنصرة أكثر مما وقف عند غيرهما . ولعل الحروب الصليبية هى التى فرضت عليه هذه الوقفة الطويلة عند هذين الركنين ، كما أرغمته على أن يتتبع موقف الخليفة الآمر منها . أما الحافظ فلم تطل حياة الشاعر فى عهده ليبين موقفه منها . وبالرغم أنه أشاد بموقف الآمر ، جرفه التيار الجارف على مشاعر الجماهير وأنطقه معبرا عنه ، وحاثا الخليفة على أن يبادر بتطهير الأرض المقدسة من رجسهم .

أما الوزراء فاشتركوا مع الخلفاء فى هذين الدعامتين ، ولكن الصيغة اختلفت عندهم . فلم يطل الوقوف عند أسرة أحد غير الأفضل ، فأشاد بأبيه كثيرا ، ولكن ما تغنى به من مدائح هذا الوالد لم يكن غير نصرته

(١) ٢٥٠ ، ٢١٨ .
(٢) ٢٥١ ، ٢٦٠ .

للخلافة وإحسانه للرعية . أما الدين فقد تحدث عن نصرة الوزراء له وجهادهم الصليبيين دونه .

ونخرج من هذا بأن الصورة التى رسمها ظافر للخليفة تختلف عن الصورة التى رسمها للوزير اختلافا بينا، وأن الصورة التى رسمها للآمر من الخلفاء غير الصورة التى رسمها للحافظ ؛ وأن الصورة التى رسمها للأفضل غير الصورة التى رسمها للمأمون ، وهما الوزيران اللذان وجه إليهما أكثر مدحه ، وأن القارئ يستطيع أن يستبين الممدوح فى كثير من قصائده دون أن يلصق اسمه عليها . كل ذلك بالرغم من إطلاقه كثيرا من الصفات المتشابهة على ممدوحه .

الصديق

كان ظافر طيب المعاشرة ، لين الجانب ، يود الأصدقاء ، ويرى فيهم « نزهة النفس وثمرة الأنس »(١) ، ويخاطب الصديق (٢) :

أخى ، سيدى ، مولاى ، دعوة من صفا وليس له من رق ودك إعتاق

ويعد الصداقة إحدى لذات العيش ، والحديث العذب بين الخلطاء متعة لا تعدلها متعة ، ولا يشوبها غير مرورها السريع فلا تكاد تحس لها طولا (٣) :

سقى الله أيامى بكم ، إذ زمانها قصير ، وفى اللذات منه سبوغ

والأيام التى يقضيها مع أصدقائه غر ، تتقارب فيها الجسوم ، ويختلط الحديث ، وتتدانى الأفكار ، وتتحد المشاعر . قال يصف أيامه مع أبى الصلت الأندلسى (٤) :

ليالى يدنينا جوار أعادنا من القرب كالصنوين ضمهما ساق
وما بيننا من حسن لفظك روضة بها حسدت منها المسامع أحداق
حديث حديث كلما طال موجز مفيد إلى قلب المحدث سباق

---

(١) ٢٨٦ .
(٢) ١٨٠ .
(٣) ١٦١ .
(٤) ١٨٠ .

وقد ألهمت الصداقة ظافرا مجموعة من الأنواع الأدبية ، إذ جعلته ينظم الشعر الإخوانى ، ويكتب النثر ، ويؤلف المقامة . ومنحته مجموعة أوفر من الأغراض الشعرية ، حين حدت به إلى أن يصف ، ويعاتب، ويعتذر ، ويتشوق ، ويثنى ، ويداعب ، ويدعو ، ويذم . فقد رأيناه يخرج مع الأصدقاء إلى المواضع الأثرية . والرياض والبحيرات والريف للتنزه، فيصف ما يجرى له ولأصدقائه ، وما تقع عليه أبصارهم فتعجب به نفوسهم .

ويحسن أن نقسم ما ألهمته الصداقة من شعر إلى ثلاثة أقسام : شعر الرسائل أو ما كانوا يسمونه المكاتيب ، وشعر الدعوات، وشعر المداعبات ، فهى متمايزة فى شكلها ومضمونها .

ونبدأ بشعر الدعوات لقلة تنوعه ، وأريد به ما نظمه من شعر يستدعى به أصدقاءه إلى طعام ما ، أو يصف طعاما دعى إليه . ولعلى لا أخطىء حين أضيف إليه الشعر الذى وصف فيه أطعمة دون أن يذكر فيها دعوة ما ، أو جماعة تناولوه (١) .

وأكثر ما تحدث عنه من ألوان الطعام الرءوس المغموسة ، والفقاع ، اللذين منح كلا منهما ثلاث مقطوعات ، والقطائف التى منحها مقطوعتين . ثم نظم مقطوعة قصيرة أو طويلة فى كل من سمك الراى ، والملوخية ، والتمر ، والكنافة . وتحدث عن الجوذابة فى المقامة .

ويشترك شعر الدعوات كله فى عنصر واحد متميز ، لايغيب فى أى مقطوعة ، وهو وصف الطعام : يصف أجزاءه ، وطهوه ، وصف محب له ، مشته لأكله ، عارف أن طاهيه لم يترك للتقصير سبيلا . قال فى القطائف (٢) :

جام حوى فى الظرف كل لباب	مستملح منه ومستطاب
فالحسن فيه واضح الأسباب	منقطع الأشكال والأضراب
قطائف لطائف رواب	لم تخش بل صفت على اصطحاب

---

(١) ٩ ، ٥٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ .

(٢) ٩٠ .

في المسك والفستق والجلاب كأنها ألسنة الأحباب
في الشكل والنكهة والرضاب ملمسها كوجنه الكعاب
وطعمهـــا كلذة العتـــاب من بعد صد طال واجتناب
تنزل في الحلق بلا حجاب فهي طعام وهي كالشراب

ويبين هذا الوصف وأمثاله براعة الطباخ المصرى ، وجودة الطعام الذى يصنعه ، حتى اشتهر ذلك فى البلاد الأخرى . فبعث بعض الأمراء — مثل القادر بالله نصر الدولة أحمد بن مروان الكردى صاحب ديار بكر — البعوث من طباخيهم ليتعلموا فنون الطبخ(١) .

ويحتوى شعر الدعوات الحق على دعوة الصديق إلى الطعام (٢) :

يا من صفا لى ظاهرا ونيه ومن يدى بوده غنيه
وقتك نفسى وافد المنيه هلم عندى تحفة سنيه

وأغراه باللحاق بهم ، فوصف له جمال الموضع الذى يتناولون فيه طعامهم الشهى (٣) :

فبادر فنحن بشط الخليج على روضة رقمتها السحب
على حالة تام عنها الهلال فإن لم تكن حاضرا لم نطب

وكشف له عن تشوق رفاقه إليه ، وارتقابهم إياه(٤) :

فبادر إلينا فكل إلى قدومك ملتفت مرتقب
وما قصدنا بك إلا الجمال لأنك روضة أهل الأدب

وأثنى عليه ثناء مختصرا (٥) :

أيا سيدا نال أعلى الرتب وحاز الكمال بأوفى سبب

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨ : ٩٢ .
(٢) ٢٦٤ . (٣) ٥ .
(٤) ٤٦ . (٥) ٥ .

وخلاصة القول إن شعر الدعوات من الشعر الإخوانى الذى يلهم صاحبه مقطوعات قصيرة فى أغلب الأحيان ، وتطول فى أحايين قليلة فتلحق بالقصائد فى عدد الأبيات . ولكنها لا تبلغ مبلغها فى الصنعة الفنية ، لأنها تتناول قضايا عابرة ، وتنظم فى لحظات طارئة . وأجمل ما منحتنا أبيات فى وصف الطعام تضارع ما نظمه الشاعر فى وصف الطبيعة ، وتتحلى بما تحلى به من خصائص ، فتكشف عن اتجاه الشاعر ، وما تقع عليه عينه ، وما تثيره مرئياته من الصور فى مخيلته ، واستجابته لكل جميل فى مجتمعه .

وأحب أن أقسم شعر المكاتبات إلى قسمين : قسم أرجح أنه نظمه مبتدئا ، وآخر أرجح أنه نظمه ردا (أو بعبارتهم : جوابا) على رسالة تسلمها ، وألحق بالقسم الأول مجموعة من المقطوعات لم أجد إلى الترجيح فيها سبيلا أو نظمها عندما فارقه بعض أصدقائه .

ويغلب على هذا الشعر بأقسامه عنصر جلى ، هو تعبير الشاعر عن بقاء مودته واشتداد أسفه ، وتشوقه إلى من يكتب لهم ، وتمنيه رؤيتهم (١) :

أخلاى بالثغر دام الفراق ... ولا زمنى أسف واشتياق
تصبرت عنكم على حالتين ... أسى يتلظى ودمع يراق
وأرغمت قلبى على سلوة ... فغاية مانال منها الطلاق
وأصعب ماحاولته النفوس ... من الأمر تكليف ما لا يطاق
فهل لى إلى العيش ما بينكم ... —كما كنت— مستمسك واعتلاق؟

وكثيرا ماأثنى على صديقه لفضله عليه وعونه إياه فى شدائده (٢) :

يا من إذا لدغ الزما ... ن وجدت من جدواه راق
وإذا خضعت لحادث ... حلت مكارمة وثاق
والله لا خفت الزمـا ... ن ولا احتفلت بما ألاق
مادمت لى عزا أصو ... ل به على الأيام باق

(١) ١٨٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٨٠ . . . الخ
(٢) ١٨١ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ٢٨٦ .

وختم بالدعاء والسلام كما كان يفعل فى قصائد المدح (١) :

لازلت تتخذ السعادة صاحبا   والعز دارا ، والبقاء خليلا
تثنى بما أثنى عليك صحائف   تتلى بألسنة الورى ترتيلا

ولم أجد فى الرسائل التى بعثها ابتداء ماتنفرد به عن رسائل الجواب بينما تنفرد هذه بوصف استقبال الشاعر لرسالة الصديق ، وترحيبه بها ووقعها الجميل فى نفسه . عبر عن ذلك نثرا وشعرا فقال (٢) : « وصل كتاب مولانا الشيخ الأجل ، أطال الله بقاءه . . .

فأحيا فؤادى نشره قبل نشره   ولاحت عقود منه لى ورياض
كأن العيون النجل منه وقد حكى الـ   ـسواد سواد والبياض بياض
حدائق زهر يجتنى السمع زهرها   وبحر معان بالعقول يخاض
وجدت لقلبى منه أنسا وراحة   تذل به أحزانه وتراض
كأن فؤادى كان قبل وجوده   جناح بأحداث الزمان يهاض

فكان موقعه منى موقع الإنسان من الإنسان ، والنفس من النفس وسررت لوروده سرور الغريق ، بمنقذه من الغرق ، والظمآن بمورده عند آخر الرمق ؛ والضال بمرشده بعد الأين والتباس الطرق . . .فأخذت فى لثمه قبل فك ختمه ، حتى خفت أن يخفى بيانه ، ويندرس عنوانه ، ولثمته جهدى ، ولو نطقت تلك السطور لقلن لى حسبا » .

وأفاض فى الحديث عن حسن هذا الكتاب الذى تلقاه ،ونواحى الجمال فى لفظه ومعناه ، والعجز عن الرد عليه(٣) :

جاء الرسول لعبده بكتابه   فيه لطائف لومه وعتابه
فقرأت مودعه ففتح لفظه   معنى كزهر الروض غب سحابه

---

(١) ٢١٦ ، ١٦١ ، ١٨٠ .
(٢) ١٣٩ ، ٩١ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٨٦ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٩٣ .
(٣) ٤٠ ، ٤٢ ، ٩١ ، ١٣٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢١١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ .

أقسمت لو أخفى الرسول مكانه	تسرى النسيم بعرفه فوشى به
الروض فى قرطاسه، والمسك فى	أنفاسه ، والسحر فى آدابه
كالأمن للملهوف من أعدائه	والوصل للمهجور من أحبابه
لفظ لو اجتمع الخليقة كلها	فى واحد أعياه رد جوابه

وأخيرا يأتى الغرض من كتابة الرسالة ، وأكثر ماكان اعتذار عن تقصير فى كتابة ، وكان أحيانا عتابا ؛ ومرة ذما . كتب صديق له يعاتبه (١) :

قل للحبيب الذى طالت قطيعته	ولج فى الهجر مع حبى وإشفاقى
لتقرعن على السن من ندم	إذا تذكرت يوما صفو أخلاقى

فأجابه عن ذلك : « وصلت رقعته — أدام الله رفعته — مضمنة من خطه ولفظه ماكان به قبل اليوم كمال الأنس ؛ وقوام النفس ، مذكرة ودادا قد درس ، وحظا فيه قد تعس . . »

توالى على الغدر منكم وأخلقت	حبائل ودى ، وانقضى منكم وجدى
وقد كنت أغضى جفن عينى على القذى	حفاظا ، وأخفى منكم بعض ماأبدى
إلى أن أفادتنى التجارب والنهى	سبيل التسلى فاستمر بها قصدى
ليهن فؤادى أنه قد سلاكم	وآمن من خوف القطيعة والصد

وتكشف هذه المكاتبات عن جمال الصلة بين ظافر وأصدقائه ، ووثاقتها ، وأنه حمل لهم الود والاعتراف بالجميل بعد أن فارقهم بمدة طويلة . ولكن أحداث الحياة شغلته عن مواصلة الكتابة إليهم : فكثرت منه محاولات الاعتذار عن ذلك . وتكشف عن بذور لما نراه فى كثير من الرسائل من الإلحاح على الترحيب برسائل الأصدقاء ، والمبالغة فى ذلك تعبيرا عن حبهم لأصحابها . وتكشف عن حب ظافر للكلمة الطيبة ، وتذوقه للمعنى الجيد واللفظ العذب ، وكأنما هو روضة من الرياض التى

(١) ٤٠ ، ٤٢ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٣ .

يتردد عليها متنزها معجبا . وتعطينا مجموعة من الرسائل ، التى دون ظافر بعضها بعبارة مغسولة من الفن(١) ؛ وبعضها بعبارة محبرة مصنوعة (٢) .

ويضم الديوان ثلاث مقطوعات فى مداعبة شخص يكنى أبا عامر ، كان كثير النسيان . فاستغل الشاعر هذه الخلة ، فى رسم عدة صور ضاحكة ومداعبة ، مثل قوله(٣) :

أفرط نسيان أبى عـــامر   وزاد حتى جاوز الأبلها
حتى إذا حدثته لفظة   ينساك فى ساعته قبلها
حدثه بالأسرار مسترسلا   وابثثه محظوراتها كلها
ولا تخف نقلا فنسيانه   فى وقتها يمنعه نقلهـــا
لو غاب عن منزله ساعة   ما عرف الدار ولا أهلها

وألحق بهذه المقطوعات ثلاث مقطوعات (٤) أخرى نظمها فى ذم بعض الجلساء الذين لم ترق له صداقتهم ، وود لو أعفى من مجالستهم ، لأن أحدهم كان ثقيل الظل يتعذب به القلب والعين والسمع ، ولأن الثانى — الذى قال فيه مقطوعتين فى ظنى — كان كريه الرائحة . ولا قيمة فنية لهذه المقطوعات .

ولا تبعد مقطوعتان أخريان عن هذا المجال كثيرا . فقد قال إحداهما فى ذم مزين قبيح شكله وصنعته ، وخشنت يده وقست ؛ والثانية فى مدح آخر لطفت صنعته ، وخفت موساه . ولعله قالها من باب المداعبة والممالحة(٥) :

لا أسعد الله مسعودا فصنعته   كوجهه كل قبح منه مختصر
لا يحلق الرأس إلا مرة ، وبها   تغنيه عن عودة ما مده العمر
لأن ألطف لمس من أنامله   سلخ ، وهل بعد سلخ ينبت الشعر ؟
فلو نرى حق رأس فى ضمائره   بفطنة كاد منه المخ ينتثر

(١) ٢٩٣ .
(٢) ١٣٩ .
(٣) ٢٠٥ ، ٢٣٠ ، ٢٦٣ .
(٤) ٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٨٣ .
(٥) ٩٥ ، ٢٢٢ .

الصبي المحبوب

قال أبو الطاهر بن عوف : ظافر الحداد ما عرفنا له قط خربة كمثل الشعراء . ولكن ظافرا الذى برئ من الخربات الخلقية زل فى « خربة » شعرية . فمنذ عرف الشعر العربى الغزل بالمذكر ، وانتشر فيه ، لم يخفت صوت ذلك الغزل ، ولا تضاءل الإعجاب به . بل انتشر كالنار فى الهشيم فلم ينج منه متهتك ولا متصون . وخاض فيه كثير ممن عرف بحسن الخلق وصدق التدين مجاراة لغيره من الشعراء .

وأعتقد أن ظافرا كان من هذا الصنف من الشعراء . وجد الغزل بالمذكر فنا تقليديا شائعا فى عصره ، لو لم يشارك فيه اتهم بالعجز أو وصم بثقل الدم ، فكان له أدنى مشاركة ، ظهرت فى مجموعة قليلة من المقطوعات ، وقليل من النسيب فى مقدمة القصائد .

والصفات التى أعجب بها فى الصبى هى الصفات التى أعجب بها من المرأة ، وشدا بها . فهو رشأ ، كامل الحسن ، فاتن الجمال ، ذو وجه فى بهاء الشمس ، وخد كالورد ، ووجنات فى حمرة النار أخجلت الورد ، وثغر طيب الرائحة ، مفلج الأسنان كالأقاحى ، وطرف ساحر أدعج ، وجفن سقيم ، وقد فى اعتدال الغصن . وردف فى ثقل الكثيب(١) :

وفاتن بالجمال والدعج قامت على عاذلى به حججى
أظهر عذرى عذاره وأعا د الفلج لى حسن ذلك الفلج
كأنما ثغره ونكهته نور الأقاحى فى الشكل والأرج

وقد لقى فى حبه الأليم من العذاب ، ونعم بالقليل من اللذة ، ولكنه لن يكف عن حبه الذى وقع فيه على غرة ، بالرغم من حذره منه ، ويقنع منه بالأوهام ، رضى من رضى ، وسخط من سخط (٢) :

---

(١) ٥٥ .
(٢) ٥٠ .

ولقد سقانى من كئوس غرامه ... أضعاف ما استعذبت من رشفاته
وحياته ، قسما أعظم قدرها ... وكفاك أن أك مقسما بحياته
لأخالفن عواذلى فى حبه ... ولأسخطن الخلق فى مرضاته
ولأقنعن من المنى بخياله ... زورا يمنينى بخلف عداته
يفنى أسير الحب قبل فنائه ... بسقامه ، ويموت قبل مماته
وعذابه عذب ، ولكن لا تنى ... لذاته بالنزر من آفاته
قد كنت أحذره ولكن غرنى ... فأعادنى هدفا لنبل رماته

والشىء الوحيد الذى يجعل المرء يشك فى هذا الغزل ، ويذهب به إلى الغزل بالمذكر هو حديثه عن العذار ، فلا عذار للمرأة . واكتفى أحيانا بأنه عذار جميل ، لا يستطيع من يراه أن يتجنب حبه . ووصفه بأن عينك تقع عليه وتراه ولكن يدك لا تجد له مسا(١) :

له عــذار أثره ظاهر ... للعين ، معدوم على اللمس

فهو لا زال أخضر صغيرا ، ولكنها خضرة قاتلة كخضرة السيف (٢) :

لا ترع طرفك خضرة بدرت به ... فمصارع العشاق بين نباته
مثل الحسام تروق خضرة جوهر ... فى متنه والموت فى جنباته

وعلل وجوده(٣) :

أطلع الحسن من جبينك شمسا ... فوق ورد من وجنتيك أطلا
فكأن العذار خاف على الور ... د جفافا فمد بالشعر ظلا

واستغله فى إيراد الصور المتتابعة كعادته فيما وقف عليه من ظواهر لفتت نظره ، وحازت إعجابه(٤) :

كأن أولاه على خده ... ظل قضيب ظل فى الشمس
أو ألف حررها كاتب ... وهى ترى من ظاهر الطرس
أو كطراز فى شعار وقد ... شف عليه ظاهر اللبس

---

(١) ١٣٤ . ... (٢) ٥٠ .
(٣) ٢٢٠ . ... (٤) ١٣٤ .

ونستبين من هذه الوقفات القليلة والقصيرة أن الشاعر لم يكن منحرفا ولا ذا خربة ، وأنه أسهم فى الغزل بالمذكر قولا لا عملا ، وأنه خلط بين الغزلين المؤنث والمذكر فلم يفرق بينهما .

وأحب أن أضع فى هذا الصنف من الشعر مقطوعات نظمها الشاعر فى الغزل ، ولكننى أعتقد أنه أراد بها المداعبة أكثر من أى شىء آخر . ومثال ذلك الأبيات التى قالها تغزلا بمجدور وبأعرج(١) :

وأعرج عرج عن عشرتى فكدت أن أتلف من أجله
قصر عن وصلى كما قصرت حوادث الأيام من رجله

(١) ٣٨ ، ١٩٣ ، ٢٨٢ .

الفصل الرابع

موقفه من الثقافة

١ ـ العلوم

قال المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين عن ظافر(١) : «كان حدادا بالإسكندرية ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار . . . . واستطاع بشعره أن يجالس العلماء والشعراء، وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته فيزيد بها مداركه وثقافته » .

وقد تلقف من كتبوا عن ظافر هذا القول ، ورددوه قضية مسلمة ، لوجاهته الظاهرة ، واتفاقه مع النظر العقلي . ولكن الديوان ــ الذى صار بين أيدينا ــ يشكك فى هذه القضية ، وينقص من أطرافها كثيرا ، ويضيق نطاقها .

فقد رأيناه يرفع مكانة العقل ، ويعده الأمر الذى يفصل بين البشر وغيرهم من البهائم . واتخذ من العلم مقياسا يبين له قدر كل فرد ، وأعلن أن ذلك هو المقياس الصحيح(٢) :

ولا تحقرن حكمة تستفاد	وخذها ولو من أقل الطغام
فقدر امرئ حسب ما عنده	من العلم لا ما له من وسام
فما للرماح على طولها	مع البعد مثل قصير السهام

(١) فى أدب مصر الفاطمية ١٩٠ .
(٢) ٢٤٠ .

فالعلم لا يخيب بل يأخذ بيد صاحبه من الحضيض ويرتفع به إلى القمة ، أما الجهل فمدمر لما يجد (١) :

كن ابن من شئت واكسب فضل معرفة   يغنيك عن فضل أم كسبه وأب
ولا يغرك إن بارت بضائعه   فالعلم فى سائر الأحوال لم يخب
فالعز بالجهل يجنى سوء عاقبة   والذل بالعلم يجنى حسن منقلب

ولذلك فضل طالب العلم – ولو كان منتقص الفهم – على الصادّ عنه ولو كان على قدر كبير من الذكاء (٢) :

فالطالب الأبله مع ما به   أفضل من ذى فطنة ما طلب
كم ناظر ضل بلا دربة   فداه الأعمى الذى قد درب
وذى ذكاء غره فهمه   فقصرت همته فى الدأب
متكلا أن له فطنة   تنيله العلم متى ما طلب

بل قدم فى شعره بعض النصائح التربوية المتصلة بالتعليم من رفق وتلطف فيه ، وبالعلماء من اعتراف بجهل ما يجهلونه من مسائل (٣) :

وعلم بلطف إذا ما علمت   كراع خبير برعى السوام
وبادر بـ « لم أدر » عند السؤال   إذا ما جهلت بغير احتشام

ورأى فى العلم فضيلة يفخر بها المرء ، فمدح بها رعاته وخاصة الخلفاء الفاطميين الذين يصفهم المذهب الشيعى بعلم لا ينفد ولا يقصر ، ومدح بها من وجدها فيه من أصدقائه ، مثل أبى الصلت الأندلسى (٤) :

يزجيه بحر من علومك زاخر   له كل بحر فائض اللج رقراق
معان كأطواد الشوامخ جزلة   تضمنها عذب من اللفظ غيداق
به حكم مستنبطات غرائب   لأبكارها الغر الفلاسف عشاق
فلو عاش رسطاليس كان له بها   غرام وقلب دائم الفكر تواق
فيا واحد الفضل الذى العلم قوته   وأهلوه مشتاقون شم وذواق

---

(١) ٢٢ .   (٢) ٢٤ .
(٣) ٢٤٠ .   (٤) ١٨٠ .

هذه الآراء التي وجدناها عند ظافر تجعلنا نعتقد أنه كان من الناظرين إلى الثقافة نظرة عالية ، المحبين لها ، الساعين وراءها . ويتأكد هذا الاعتقاد عندما نجده يصف نفسه بالمواظبة على القراءة والكتابة ، قال في مقامته (١) : « أصبحت ذات يوم في منزلي ، وقد كل جناني وبناني ، ولساني وإنساني ، من الدأب في الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، في النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو لفظ أنظمه ، أو خط أرقمه . . » . ونجده يحرص على مجالسة العلماء ، حتى الطارئين على مصر ، ونجد أبا الصلت الأندلسي يثق في ذوقه فيعهد إليه بجمع أشعار المعاصرين له وإرسالها إليه(٢) .

وإذن فالنظر العقلي في أقوال الشاعر يؤدي بنا إلى أنه كان من الشغوفين بالمطالعة ، الطالبين للمعرفة ، المستطلعين إلى الثقافة . وعندما ندرس شعره لا يبقى هذا الرأي نظرا عقليا بل يصير حقيقة ملموسة ، تقوم شواهدها في أرجاء ديوانه ، بارزة الأثر ، بينة الدلالة .

فإذا ما تتبعنا هذه الشواهد مستقصين ، وجمعناها مصنفين ، تيسر لنا أن نقول إن ظافرا كان على معرفة بالعلوم الدينية ، وتاريخ العرب ، وفنونهم ، لاتقل عن معارف غيره من شعراء عصره ، ممن لم يعقه امتهان حرفة عن مواصلة طلب العلم ..

وأبرز ما يبدو من العلوم الدينية في شعره القرآن ، الذي اعتمد عليه اعتمادا واسع النطاق في أفكاره وصوره وألفاظه . وأكثر ما استلهمه منه قصص الأنبياء . وقف منها عند قصة آدم أبي البشر ، وما منحه ربه من تشريف حين أمر بالسجود له ، واستنزال الشيطان له ، وطرده من الجنة ، وقفة أطول من أي وقفة أخرى . فاستوحى قصة السجود في الغزل فقال (٣) :

---

(١) ٢٨٦ .
(٢) ٢٩٣ .
(٣) ١٥٨ .

أوجهك أم قبلة ، فالغصو ... ن من ساجدات ومن ركع
كأنك آدم فى جنـــة ... وكم لك من ساجد طيع
ولما عصت فى السجود الغصون ... فللنار عاقبة المرجع

واستوحى ما يسبغه عليها الفاطميون من تأويل ، إذ يرون أن السجود لآدم إنما كان المراد به حقيقة السجود لله ، مثل السجود للأئمة الذى عيب عليهم ، ودافعوا عنه بأن الساجد للأئمة إنما يتقرب إلى الله بتعظيم أوليائه. استوحاه فى المدح فقال(١) :

أنت المراد بقصد كل قصيدة ... بنيت على الأفهام فى تبجيله
كسجود أملاك السماء لآدم ... وسجودها لله فى تأويله

واستوحى قصص نوح وفلكه والطوفان ، والمسيح وسيره على الماء وإبرائه المرضى ، ويوسف وجماله ، وسليمان والهدهد ، وموسى وعصاه ، وعاد والريح التى أفنتها(٢) .

وكان على صلة بالقصص القرآنى عن غير الأنبياء ، وأفاد منه فى شعره مثل قصة هابيل وقابيل ، والخضر وذى القرنين ، وهاروت وتعليمه أهل بابل السحر ، واتساع ملك فرعون ، وغنى قارون الطائل ، وضخامة إرم . قال ينكر على من عاتبته لجوده(٣) :

يا هذه ، ماذا أفاد بملكه ... فرعون أو بثرائه قارون ؟

واعتمد على كثير من العبارات التى اقتبسها من القرآن ، لتمنح شعره الجو الدينى الخاص بها ، فتحيطه بالمشاعر التى يحس بها المسلم عند سماعه الآيات القرآنية . وأكثر ما فعل ذلك فى قصة الإسراء والمعراج التى اتخذ منها ركيزة لتشريف الخلفاء الفاطميين ومدحهم(٤) :

---

(١) ٢١٢ . وانظر الهمة ١٠٥ .
(٢) ٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ١٠٩ ، ١٨٢ ، ٢٧٤ .
(٣) ٢٦٠ ، ٣٤ ، ٩٠ ، ١٧٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ .
(٤) ٢٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦١ .

فلما انتهى « سدرة المنتهى » مقاما له جل ذاك المقام
« دنا قاب قوسين » من ربه على يقظة لم يشبها منام
« فماكذب القلب ما قد رآه » فهل حجة فى خلاف تقام ؟

وبالغ فى ذلك حتى جعل ذات مرة البيت كله آية قرآنية (١) :

لا تشبه الحمام فى وضعها إلا حميا الخمر فى طبعها
ففيهمـــا منفعـــة جزلة وإثمهـــا أكبر من نفعهـــا

ولكنه وفق أحسن التوفيق عندما استوحى الآيات القرآنية صورا خاصة به ، أو اعتمد عليها فى بناء صورة أخرى ، مثل اعتماده على رجم الجن الذين يحاولون أن يتسمعوا إلى أخبار السماء بالشهب فى مدح الأفضل بقوله(٢) :

إذا ماعتا شيطان أرض وإن نأت
فأقرب شىء منه نار شهابه

غير أن أمثال هذا الاستخدام قليلة ..

كذلك تبدو فى شعره الآراء الفاطمية ، التى اتخذ منها واحدة من القواعد العريضة التى بنى عليها مدحه للخلفاء خاصة . ولست فى حاجة إلى استكشاف هذه القاعدة ، فقد فعلت فى فصول سابقة . ولكننى أحب أن أعيد هنا — للأهمية — أن الآراء التى اعتمد عليها لم تكن بعيدة المتناول ، عميقة الغور ، متوغلة فى التفكير الفلسفى ، وإنما اعتمد على القريب الشائع منها .

ويبدو أن الشاعركان على معرفة ما بالفقه الشيعى . فقد بنى على واحد من مبادئه إحدى أفكاره فى مدح الأفضل وأبيه الذى وصفه كثيرا بإحياء الخلافة بعد موتها ، قال (٣) :

ما حويتم ملككم ظلما ولا دفعت منكم لمن لم يجب

(١) ١٥٦ .
(٢) ٣٥ ، ٢٢٩ .
(٣) ٣٤ .

بل بحق ظاهر برهانه مذ أضاءت شمسه لم تغرب
كل من أحيا مكانا ميتا حازه ملكا بفتوى المذهب

وكثيرا ما استوحى مشاعر الحج ، وما يؤدى فيها من طقوس ، فى مدائحه . ولست أدرى أكان ذلك عن ممارسة أم معرفة نظرية . فإذا كانت الثانية فربما كان مصدر هذه المعرفة الاطلاع وربما كان السماع . قال فى مدح الأفضل (١) :

إذا نوت الآمال للجود حجة فما تجترى إلا الوقوف ببابه
وتستلم الركن اليمانى بداره وتكمل سعيا فى طواف جنابه

ويكشف الشعر عن معرفة ظافر بأطراف من السيرة النبوية . فقد وقف وقفة طويلة على المغازى ، وخاصة بدرا وأحدا وحنينا ، ونصر الملائكة للنبى عليه الصلاة والسلام . كما أطال الوقوف — كما ذكرت — عند الإسراء والمعراج . وأتى بإشارة سريعة إلى نسبه الطاهر ، وإيمان الجن به ، وتكلم الذراع المسمومة التى دست عليه لقتله . وقد أورد ذلك كله لما تضفيه على النبى صلى الله عليه وسلم من شرف ، توسع به الشاعر حتى شمل الفاطميين المنتسبين إليه . قال يمدح الآمر (٢) :

هذا ابن من نطق الذراع لجده
إذ سمه الكفار فى مأكوله
من آمنت جن البلاد به ، وقد
سمعت كلام الله فى تنزيله
مازال ينقله الإله مطهرا عن ظهر مثل ذبيحه وخليله

وفى الديوان إشارات قليلة إلى اتساع ملك الأكاسرة والقياصرة وعظمته أتى بها للعظة (٣) :

لقــد دانت الدنيا لعاد وتبع
ودبر فيها الملك كسرى وقيصر

(١) ص٣ ، ٥٠ ، ٥٦ .
(٢) ٢١٢ .
(٣) ١٢١ ، ٧١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ .

وشادوا القصور المشمخرات فى الورى
يقصر طرف العين عنها فيحسر

وفيه إشارة إلى ايوان كسرى، وإلى عظمة ملك الإسكندر التى تدل عليها عظمة الإسكندرية . ولكن هذه الإشارات لا تكشف عن معرفة بالتاريخ القديم، بل عن معرفة بالأخبار العربية، لأنها جميعا كانت قد اندمجت فى هذه الأخبار وصارت قطعة منها يعرفها العربى معرفته لأخباره . ولعل اقترانها بأخبار عاد والتبابعة يثبت ذلك .

ومن أخبار العرب القديمة، أشار إلى العداوة بين بكر وتغلب ونشوب حرب البسوس بينهما بسبب قتل جساس بن مرة البكرى لكليب بن ربيعة التغلبى، وإلى تشرد الحارث بن مضاض الجرهمى . قال فى غربته عن الإسكندرية (١) :

لعمرى، لقد خلفت منها مواطنا
أبى الدهر أن أعتاض منهن موطنا
أنا ابن مضاض وهى أوطان جرهم
فلا فرق فى طول التفرق بيننا

وينبىء الديوان عن معرفة بالأعلام الذين اشتهروا بين العرب بخلة أو علم . وكان أكثر من أشار إليه منهم قس بن ساعدة الإيادى وسحبان وائل اللذان شهرا بالفصاحة (٢) :

عجزت عنها وعن وصفى، ولو ظهرت
فيما مضى أعجزت قسا وسحبانا

واستشهد من الجاهليين بيعرب فى القدم، وحاتم فى الكرم، وعنترة فى الشجاعة، والزرقاء فى حدة البصر؛ ومن الإسلاميين بعمرو بن معد يكرب فى الشجاعة، والأحنف بن قيس فى الحلم، والحجاج فى الظلم، والغريض ومعبد فى الغناء؛ ومن العباسيين بابن مقلة فى جودة الخط . ولكن

(١) ٢٨٤، ٣٤، ١٣١ .
(٢) ٢٥٢، ٤٩، ٢٦١ .

إشارته إليهم لم تتجاوز — فى الغالب — ذكر الاسم بصدد ما اشتهر به .بل بلغ به الأمر فى قصيدة إلى السرد المجرد لمن ذكرهم ، قال (١) :

يا من تنزه أن يقاس بمن مضى
أين الأعاجم منك والعربان ؟
من أحنف ؟ من حاتم ؟ من يعرب ؟
من عنتر ؟ من قس ؟ من سحبان ؟
من أرسطاطاليس ؟ من إسكندر ؟
من قيصر أم من أنو شروان ؟

ويقودنا اسم أرسطو إلى محاولة التعرف على صلة ظافر بالفلسفة ، فنجد أنه ذكر اسم أرسطو فى موضع آخر ، وأن صديقه أبا الصلت الأندلسى كان من المشتغلين بالفلسفة المؤلفين فيها . ولكننا لا نجد صدى ذلك فى شعر ظافر غير فكرة الجزء الذى لا يتجزأ ولا يمكن إدراكه حتى بالوهم ، وفكرة العرض الذى لا يقوم بنفسه ، الفكرتين اللتين نظمهما فى قوله (٢) :

يا من نصيبى منه قر	ب مثل سرعة عيسه
أسقمتنى فخفيت عن	نظر البصير ولمسه
ورجعت جزءا دق عن	وهم الذكى وحدسه
ولطفت حتى أننى	عرض يقوم بنفسه

ولست أستنتج منهما اتصالا مباشرا بين الرجل والفلسفة ، فربما التقطهما من فم صديقه فاحتفظ بهما لسهولة فهمهما إن أن صاغهما ، وربما التقطهما من التراث الشعرى ، مثل قول أبى نواس المشهور (٣) :

(١) ٢٥٠ .
(٢) ١٣٥ .
(٣) مهلهل بن يموت : سرقات أبى نواس ٩٩ .

تركت مني قليلا من القليل أقلا
كالشيء لا يتجزا أقل في اللفظ من لا

وقول المتنبي المعروف (١) :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل
لولا مخاطبتي إياك لم ترني

الذي علق عليه في التبيان بقوله : « هذا المعنى كثير قد ألمت به الشعراء القدماء والمحدثون » .

ونجد في الديوان صورا وأفكارا مستوحاة من الكواكب والنجوم مما قد يدل على صلة مابين ظافر والفلك . ولا غرابة في ذلك ، إذ وصف أبو الصلت المصريين في عهده فقال (٢) :

« المصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها ، وشغفا بها وسكونا إليها ، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها ... إلا في طوالع يختارونها ونصب يعتمدونها . ولقد شهدت يوما رجلا من الوافدين في أتون الحمام يسأل .. عن ساعة حميدة لقص أظفاره » .

والصور التي أوردها ظافر عن النجوم والكواكب قليلة ، تتحدث عن علو كيوان (زحل) ،وجرى الكواكب في أبراجها ، والتهاب المريخ ، وإحكام ضرب عطارد ، مما يمكن أن يعرفه أي شخص في هذا الجو الذي وصفه أبو الصلت . قال يصف فرسا سريعة ويمدح صاحبها (٣) :

ينصاع كالمريخ في التهابه وأنت فوق ظهره عطارد

وعثرت في الديوان على إشارة واحدة اعتمد فيها على علم النحو ،

---

(١) التبيان في شرح الديوان ٤ : ١٨٦ .
(٢) الرسالة المصرية ٣٩
(٣) ٣٠١ ، ١١ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٢٦١ .

فاتخذ من عدم جواز جر (خفض) الفعل فكرة استخدمها في مدح الأفضل ، فقال (١) :

فقدرك لا يجوز عليه خفض   إلى أن يدخل الأفعال خفض

كذلك أشار ذات مرة إلى « أمثال » أبي عبيد القاسم بن سلام(٢) ، ونظم في أخرى مثلا فقال (٣) :

وقالوا : يعود الماء للنهر بعدما   خلت منه آبار وجفت مشارعه

فقلنا : إلى أن يرجع الماء عائدا   وينبت شطاه تموت ضفادعه

ونخرج من هذه الجولة في شعر ظافر أنه كان يمجد العقل ، ويسمو بالعلم ، ويحترم طالبه ، وأنه كان يحب المطالعة ، ويجالس العلماء ليأخذ عنهم ، وأن صداقته لأبي الصلت أكسبته معرفة بثقافات وعلماء . فتجلى أثر ذلك في نظمه . فأبان عن معرفة واسعة بالقصص القرآني والسيرة النبوية والأخبار العربية والمبادئ الشيعية ، وبتساقط بعض المعلومات الفلسفية والفلكية والنحوية إليه . ولكن هذه المعرفة الواسعة لم تعمق فتشمل الآراء الدقيقة ، والأقوال المتعمقة في علم من العلوم . فقد أتى الرجل بقضايا يهجس في نفسي شك في صحتها . فقد ذكر أن كسرى بعث هدايا إلى بلقيس ملكة سبأ ، في وصفه للرءوس (٤) :

جل مقدارها فأصلح ما كا   نت هدايا كسرى إلى بلقيس

وما سمعت عنه هي هدايا بلقيس إلى سليمان عليه السلام ، وإن كان غير بعيد أن تتحدث الأخبار العربية عن هدايا متبادلة بين كسرى وبلقيس ، فقد كانت المودة تغلب على العلاقات بين فارس واليمن في أغلب الأحيان ،

---

(١) ١٣٨ .
(٢) ٢٨٦ .
(٣) ٢٨٩ .
(٤) ١٣٢ .

أوكذا كان يتصورها العرب قبيل الإسلام وبعده ، نتيجة لمساعدة الفرس أهل اليمن فى طرد الأحباش من بلادهم . »

وذكر أن الكفارهم الذين أهدوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم الشاة المسمومة . ولكن ابن هشام (١) صرح أن التى فعلت ذلك هى زينب بنت الحارث اليهودية بعد تغلب النبى على خيبر . ولعل ظافرا أطلق اسم الكفار على اليهود مجازا أو تعمدا ، وإن كان احتمال خطئه لا يزال قائما .

وأشار خطأ إلى مايدل أن العجاج و الشماخ معروفان بالغزل .

٤ ـ الفنون

عمل الفاطميون منذ تأسيس خلافتهم فى مصر على منافسة العباسيين ، وجعل القاهرة نظيرة بغداد ، إن لم يصلوا بها إلى درجة أعلى . وبالرعاية الدائبة ، والعطاء الغدق ، والتشجيع الجاد ، غرسوا البذور الحضارية فى البلاد ، ونموا ما بزغ منها من نبات ، وأغروا ما فى خارجها على اللجوء إليها . فأوجدوا حركة حضارية محلية لم تر مصر العربية مثيلا لها فى عهد من عهودها .

وتجلت هذه الحركة فى الفنون جميعا ، حتى إننا لنحار أيها بلغ قمة أعلى من زملائه . فقد طوروا الفن المعمارى فى مصر ووصلوا به إلى نماذج مستقلة ، لاتختلط بغيرها من النماذج المشرقية والمغربية ، ولا بالنماذج المصرية فى العهود الأخرى . وشيدوا من المساجد والدور والحمامات والمناظر والبساتين ما جعل القاهرة والفسطاط درة تستولى على القلوب ، وتذهل العقول ، وأحالت المؤرخين شعراء يتغنون بمحاسنها .

فلا جرم أن تسلب الدار التى بناها الوزير الأفضل أو التى أقامها القائد محمد بن أبى شجاع لب ظافر ، وأن تجرى الشعر فياضا غزيرا على لسانه ، يصدر منه مقطوعة بعد أخرى ، لاتحاول أن تصف دارا مما ترى عجزا وقصورا بل تقتصر على التغنى بما أوحى إليها المنظر العام ، والروعة البالغة ، والجمال الأخاذ (٢) :

---

(١) السيرة النبوية ٣ : ٣٥٢ . (٢) ٨٧ .

يادار دارت بك السعود كأنها منك تستفيد
فيك من الحسن كل معنى يقصر عن مثله الوجود
فأنت بعض اقتراح مولى للفضل من كفه ورود

ولاغرابة أن ينظم ما نظم : قصائد متعددة فى الإشادة بمحاسن الحمامات التى أعجب بها ، وذم ما لم يحز إعجابه منها ، غير أنه كان أكثر توفيقا فى وصف الحمامات ، لأنه لم تفسد عليه ذلك رغبة فى مدح .

ومن يستقص الإشارات الواردة فى شعره يجد كثيرا من الرسوم الخاطفة لبرك وأنهار وبساتين أنشئت فى داخل الدور التى تحدث عنها ومدح أصحابها .

وارتبط بفن العمارة فن آخر أو فنان . فقد ألف الفاطميون أن يزينوا حماماتهم خاصة بالنقوش الجميلة . فازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخرى والخزف ، وبلغت درجة عظيمة من الرقى . يشهد بذلك هذه التحف التى تزخر بها متاحف القاهرة وأوربا [1] . ووقف ظافر عند هذه النقوش مشدوها ثم رسمها لنا فى عدة قصائد . فكشف أن الرسوم كانت تنقش على السقف أيضا ، وأن أكثرها تألف من النجوم والكواكب . ونقشت عليه رياض تشتمل على مختلف الزهر [2] :

منـــيرة بشمـــوس مضيئـــة ببـــدور
كأنمـــا سقفها الـــ زهر غب يوم مطير
قد رصعت برخام كنقش بسط الحرير

أما الحمام الكافورى فيدل وصف ظافر له أنه كان روعة ، وأن نقوشه كانت بالغة الجمال والتنوع . فلم يقتصر فيها على النجوم والأزهار بل رسمت معها الفواكه والأثمار ، والطيور المغردة ، والحيوانات الرائعة ؛ وحليت بصورة نادرة فى الفن الإسلامى ، هى صورة القيان . فقد كان رسم البشر غير محبوب عند المسلمين .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٥٩١ .
(٢) ٩٧ .

وعد الفنان المسلم الخط العربي عنصرا رئيسيا من عناصر النقش والزخرفة . فحفر على كثير من الطرف والأدوات ، ونقش على كثير من المنشآت المعمارية . وأراد هذا الفنان أن يوفر كل جوانب الجمال لنقشه فاتخذ من الشعر الجميل مادة يدونها بخط جميل ، على تحفة جميلة .

وكثيرا ما كان شعر ظافر هذه المادة الجميلة ، نقش على مضارب العيدان أكثر من مرة ، وعلى الصوانى والسروج والأعنة والمقاعد (١) . واختير ليكون على جدران الحمام الكافورى ، الذى كان من أجمل حمامات مصر ، وكانت نقوشه التى حفظ لنا ظافر فى شعره نسخة منها من أجمل النقوش التى وصفت لنا .

ولجأ ظافر فى كثير من شعره الذى كتبه لينقش على هذه الطرف إلى مدح صاحب الطرفة وإلى إيراد كلمة عامة عنها . قال فى أبيات كتبت على مضرب عود (٢) :

أنا مفتاح الملاهى والطرب ... هيئتى ظرف وأحوالى عجب
أنا فى مجلس ملك قد حوى ... شخصه حسنا وجودا وأدب

ولجأ فى قليل منها إلى وصف عام ، هو أقرب إلى الثناء والإشادة ، مثل قوله الذى نقش على صينية (٣) :

وروضـــة زاهـــرة من اللجين والذهب
لكنهـــا ما نبتت فى الأصل إلا باللهب
انظـــر إلى صنعتها فكل ما فيها عجب
كأنمـــا عطـــارد أحكم فيها ما ضرب
كأنمـــا ابـــن مقلـــة حـــرر فيها ما كتب
أودعهـــا نقاشهـــا لكل عين ما تحب
فهى كوجه حسن إذا تبدى لمحب
من بعد صد واجتنا ب وافتراق وغضب

---

(١) ١١ ، ١٢ ، ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) ١٢ . (٣) ١١ .

وكشف ظافر فى أبياته الآنفة عن معرفة بواحد من أشهر خطاطى بغداد فى العصر العباسى ، بل من أشهر الخطاطين العرب إطلاقا ، وهو ابن مقلة . واتخذ من الخط ملهما استوحى من جماله وتجويده كثيرا من تشبيهاته مثل قوله فى تشبيه أطراف العذار الأولى على الخد (١) :

أو ألف حررها كاتب وهى ترى من ظاهر الطرس

وكذا فعل فى صناعة النسيج والطرز ، استلهمهما الكثير من الصور ، التى شبه فيها ما أراد بالشرب فى دقته ورقته ، وبالوشى فى زخرفته وتعدد ألوانه ، وخاصة فى وصف الرياض . ولكن أكثر هذه الصور تقليدى نجده عند غيره من شعراء مصر ، وعند غير شعراء مصر فليست وليدة ما عرفت به فى هذه الصناعة وحدها .

وآخر ما نرى فى شعر ظافر من آثار الفنون، فن الغناء ، الذى لانعرف عنه كثيرا فى مصر الفاطمية ، ولكن ما نعرفه من كثرة الاحتفالات ، والإمعان فى اللهو ، والإكثار من الشعر ، مما غلب على الحياة المصرية يدل دلالة أكيدة على حركة فنية فيه لا تقل عن الحركات الأخرى فى بقية الفنون :

وقد عد ظافر الغناء إحدى متع الحياة ، فى دعائه لمن دعا له (٢) :

لازلت سامع مايصفو من النغم ولابسا كل ما يصفو من النعم

ووصف مجالس غناء فأبدع فى رسم المغنية حين قال (٣) :

ومليحة النغمات تحسب عودها طفلا ، وتحسبها عليه مرضعا

أبدا تراه مقمطا فى حجرها حاز المعالى قبل أن يترعرعا

ولربما ضربته ضربا موجعا فسمعته من ضربها متوجعا

---

(١) ١٣٤ .
(٢) ٢٢٥ .
(٣) ١٦٠ .

ولم يتذوق الرجل الغناء العربي وحده بل الغناء أو التراتيل القبطية التى سمعها فى دير القصير (١) :

قم نصطبح عند نقرات النواقيس واشرب على حسن ألحان الشماميس

والأغانى الأعجمية التى ربما سمعها من بعض الشيعة القادمين من فارس (إيران) لزيارة مصر (٢) :

والطير تشدو على الأغصان مطربة كما تغنت بألحان لها العجم

شدو يفيد معانى اللهو محملة لسامعيه بلفظ ليس ينفهم

ومنحنا بعض الأصوات التى كان يغنى بها المغنون المصريون ، مثل قوله (٣) :

فاشرب على وجه الحبيب وغنى :

هذا هواك وهذه آثاره

كما منحنا لحنين استخدموهما فى أغانيهم (٤) :

وقيان تكاد تفصح بالإيـ قاع بين الثقيل والمزموم

وكشف — كما فعل فى الخط — عن معرفة باثنين من أشهر مغنى الحجاز القدماء (٥) :

والطير مطربة كأن حنينها سلب الغريض ومعبد الألحانا

وصفوة القول إن ظافرا وقف عند العمارة والنقش والخط والغناء من الفنون المصرية وقفة طويلة ، متمعنة ، أطلعته على الكثير من أسرار جمالها ، فأحسن نقلها إلى شعره ، وارتبط بأكثر هذه الفنون ارتباط صانعها بها ، إذ كان يقدم لها شعره لينقش أو يدون أو يغنى . فتعرف على جوانب متعددة منها ، استطاع أن يشير إليها فى نظمه . فإذا كان قد صور الكثير من مجالى الجمال فى الطبيعة المصرية ، والكثير من الرجال والمثل والوقائع فى المجتمع المصرى ، فإنه قد منحنا مجموعة من الرسوم المعبرة تعبيرا وافيا عن هذه الفنون ، وإن نقصتها الوفرة التى رأيناها فى الأمور الأولى .

---

(١) ٢٧٢ .

(٢) ٢٣٥ ، ٣٤ ، ٢٨٤ .

(٣) ١٢٤ ، ١٦٠ .

(٤) ٢٢٩ .

(٥) ٢٦١ .

الفصل الخامس

موقفه من صناعة الشعر

١ ـ الموضوعات

إذا التزمنا العناوين الموضوعة على رءوس القصائد فى الديوان ، وجدنا كثيرا من القصائد مهملا لم يوضع له عنوان ما. ووجدنا كثيرا من العناوين غير متناسق ، فالوصف يعطى هذا الاسم أحيانا ، ويسمى تشبيها أحيانا . ووجدنا الموضوع الواحد يوضع تحت عناوين شتى ، فما نظمه فى الحنين إلى الإسكندرية يوضع تارة تحت « قال يذكر ما مضى من زمانه بثغر الإسكندرية » ، وأخرى تحت « قال يمدح بلده الإسكندرية » ، وثالثة تحت « قال فى الثغر » . ويوضع الموضوع مرة تحت عنوان أضيق من أن يسعه ، فيعنون الغزل بقوله : « قال فى ضيق العناق » ، وأخرى تحت عنوان واسع يشمله وغيره ، فيعنون ذم الحمام بقوله : « قال فى الحمام » ، ويعنون التغزل بمجدور بقوله : « قال فى مجدور » ، وثالثة تحت عنوان فيه تفاصيل لاحاجة إليها مثل « قال يمدحه ويهنئه بشهر رجب ويذكر حال النيل فى تلك السنة » ، ورابعة تحت عنوان يهمل الموضوع الذى نظمت القصيدة من أجله ، فتوضع مدحته فى أبى محمد الأسامى تحت التشوق إلى الإسكندرية. كل هذا يجعلنا نهمل هذه العناوين عند البحث عن موضوعات القصائد .

فإذا اتبعنا الطريق التقليدى ، وجدنا أنه نظم الشعر فى المدح ، والغزل ،

والوصف ، والرثاء ، والذم ، والفخر ، والإخوانيات ، والخمر ، والوعظ والنصيحة ، وموضوعات أخرى لم يضع لها القدماء عناوين جامعة . ولذلك آثرت الخطة التى اتبعتها فى الدراسة حتى لا أهمل شيئا من هذه الموضوعات الجزئية ، ولا أضيع فى متاهة منها .

وعلى الرغم من ذلك ، أعالج هنا ثلاثة موضوعات أعتقد أنها جوهر شعر ظافر ، وأن ما عداها يمكن أن ينضم إليها أو يدور فى فلكها ، تلك هى الوصف ، والمدح ، والغزل .

الوصف

ويحتوى الوصف فى تصورى له على ما قاله الشاعر فى الحنين إلى الإسكندرية ، وفى وصف نزهاته مع أصدقائه فيها وفى الفسطاط ، وفى الشيب والخمر والطرف والدور والحمامات ، وبعض الغزل والإخوانيات . فقد كانت القاعدة التى أقام عليها ما قال فى هذه الموضوعات جميعا ، وفى وصف الحبيب من الغزل ، والدعوة إلى الطعام من الإخوانيات ، هى الوصف .

ويتقاسم أوصاف ظافر مشاعر ثلاثة ، هى التى دفعته إلى وصف ماوصف. وأقل هذه المشاعر سلطة على قلبه وفكره ، وأضعفها تأثيرا ، هو الإعجاب المجرد الذى دفعه إلى وصف ماطلب إليه بعض رعاته وخلطائه وصفه من طرف وتحف ودور وبرك . فقد كانت من الجمال بحيث تحوز إعجاب كل ذى ذوق ، لا أكاد أستثنى منها شيئا . ولعله هو الذى دفعه إلى اتخاذ القصور القديمة فى الإسكندرية ، التى تدل على ماكان لها من ماض رائع ، مثالا للعظة . ودفعته الكراهية والضيق إلى ذم من ذم من خلطاء ، وما ذم من دور وحمامات وشيب. وحدا به الحب إلى التعلق بالطبيعة المصرية وتصورها برياضها المثل الأعلى لكل جميل سواء كان مجردا كالعيش الآمن ، والحب المتمتع ؛ أو كان محسوسا كالحديث العذب ، والوجه الحسن ، والمبنى الفاخر ... الخ . وكان الحب المحروم ، الذى عصفت به الأشواق ،

هو الذى أفقده إحساسه بنفسه ، ووعيه بالعالم الخارجى ، وأحياه فى (الإسكندرية) على حين بقى جسمه فى الفسطاط « جثة مطروحة » ؟

وساقه حبه « الصغير » المتغزل إلى أن يبالغ فى أوصاف « الحسام » الذى يحمله فى أسفاره وراء الحبيب ليعينه فى التغلب على العقبات التى تواجهه وفى أوصاف « الليث » الذى برز إليه ليؤخره عن لقاء الحبيب إن لم يمنعه منه فمزقه بضربة واحدة ، ولا سيف حمل ولا أسد لقى .

وكان إعجابه المجرد ، وكرهه ، قصيرى الأمد ، فلم يمنحاه غير مقطوعات أو قصائد هى فى الحق مقطوعات طالت . أما حبه فكان من بعد الغور ، وسعة النطاق ، بحيث كان يغالب تفكيره ، ويغلبه على أمره كثيرا. يريد أن يمدح ، فإذا بالإسكندرية تستولى على القصيدة أو تكاد . ويريد أن يتغزل ، فإذا بالحبيبة تبهت معالمها تدريجيا ، وتبدو معالم أخرى مبهمة ، ثم تتضح فإذا هى الإسكندرية ، صارت الحبيبة التى لا تنافسها حبيبة أخرى. ويريد أن يعاتب صديقا أو يخاطبه فإذا بها تزاحمه وقد تزحمه .

واستولى عليه شوقه إلى الإسكندرية ، وملك عليه أقطار نفسه ، واستبد بتفكيره كله ، وقاده إلى النظم فيه ، فلم تخف قبضته عليه إلا حين فرغ من القصيدة ، فصدرت وقد شغلها الشوق وحده (١) . ولم يبلغ استغراقه فى وصف أى موصوف آخر مبلغه فى الإسكندرية ، فلم يعط أيا منها قصائد كاملة . فإذا ما أفردها بشىء من الشعر كان ذلك بالمقطوعات لا بالقصائد ، فعله فى وصف بعض المشاهد والثمار والأزهار ، وفى ذم الدور ، والحمامات (٢) أما بقية ما وصفه فقد أشرك معه غيره : فالإخوانيات اشترك فيها الدعوة والثناء على المدعو ، والطرف ومدح الدور اشترك فيها مدح صاحبها ، والخمر (٣) جاءت فى قصيدة واحدة من ١٧ بيتا ، ليست فى الديوان ، وزحمها فى

---

(١) ٢٦ ، ٣١ ، ٧١ ، ١٠٨ ؛ ١٠٩ ، ١٣٠ .
(٢) ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٣٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٣) ٢٧٢ .

أبياتها وصف الطبيعة . والحق أننا لانستطيع أن نجعله من أصحاب الخمريات ولا أن نسلكه مع القائلين فيها ، إذ كان لم ينظم فيها غير هذه الأبيات . ولعل شيئا من ذلك لاحظه من وصفه أنه لم تعرف عنه خربة كبقية شعراء عصره .

ولا يعطى كثير من المقطوعات مجالا للدارس للحديث عنها ، إذ أنها لم تتوافر لها — فى الغالب — الأناة التى تكسبها عمقا فى الفكرة ، وغورا فى الشعور ، ونموا فى الشكل . وإنما هى وليدة لحظة خاطفة ، ودفقة حادة من الانفعال، وفكرة طارئة ، وإعجاب سريع ، تجلى تجليا فوريا فى المقطوعة . ولذلك قد نعجب بما رسم الشاعر من مناظر صغيرة إعجابا سريعا وقريبا ، ولكنه لايبقى بقاء الإعجاب الأصيل الذى تثيره القصيدة .

حقا قد تعزز ظواهر والتفاتات نستخلصها من القصائد ، وتحمل من الأعلام مايهدى إلى ناظمها ، ولكنها فى الغالب تقف عند هذا ولا تتعداه .

أما القصيدة فقد يظن ظان أنها مجموعة من المقطوعات أخضعها الشاعر لوزن واحد وقافية مشتركة ، فهى مجموعة من الرسوم الجزئية وضع بعضها إلى جانب بعض . ولكن هذا الظن غير صحيح . فإن الإطار الذى وجب على الشاعر أن يضع قصيدته كلها برسومها الجزئية فيه ، يحتم عليه أشياء أخرى مختلفة كل الاختلاف . فلابد أن يخلق مجموعة من العلاقات تربط بين هذه الرسوم الجزئية كيلا تبقى منعزلة منفصلة تحت إطارها . ولابد أن يعيد النظر إلى كل واحد منها على حدة ، يشذب من أطرافه ، ويهذب من معالمه ، حتى تتلاقى أطراف الرسوم جميعا، وتتوافق معالمها، وتعطى إيحاء واحدا عاما .

وإذ يضطر الشاعر إلى ذلك، يضطر معه إلى التعمق وراء مشاعره جميعا، يغترف من واحد بعد آخر ، والإبعاد وراء أفكاره وما تثيره ، يعتمد على واحد بعد ثان ، وحث ملكاته وقدراته كلها أن تعطيه عطاء ثرا ، فينمى مواهبه تنمية تجد آثارها بارزة فى قصائده .

فنحن إذا أهملنا المقطوعات هنا — بعد أن استخلصنا منها ماتحدثنا عنه في فصول سابقة —كنا في ذلك متعمدين ، لأنها تعوق سيرنا ، وتحيد بنا إلى أزقة تبعدنا عن دربنا . وإذن فوقفتنا هنا عند ما قاله ظافر من شعر تشوقا إلى الإسكندرية خاصة .

وتتألف قصيدة التشوق عنده من عنصرين واضحين ، لاتخلو منهما واحدة من قصائده الخالصة للتشوق أوأبياته التي خصصها له في مدائحه وغزله . حقا قد يطيل في واحدة منها عن عنصر ، فيضطر إلى تقصير الآخر ، ولكنه لايكاد يهمل واحدا منهما إهمالا تاما . هذان العنصران هما : حياته في الفسطاط ، وحياته في الإسكندرية . وأريد حياته الشعورية لا الواقعية . فهو في الفسطاط بائس ، حزين ، بعيد عن الأصدقاء والأحباب والأهل ومواطن الجمال والمتعة ، قد فقد شبابه ، وأضر به حبه الثابت لمسقط رأسه ، ولوعة حنينه إلى الإسكندرية ، يتمنى العودة إليها ويدعو الله أن يمكنه منها . وقدكان في الإسكندرية شاباً ناعم البال ، موفور الحظ ، يحوطه كل جميل وكل متعة .

فينظر إلى الفسطاط من خلال الظلمات التي غشاها بها حبه للإسكندرية وحنينه إليها فلا يستطيع أن ينفذ منها إلى ضوء أوأمل أوجمال . وينظر إلى الإسكندرية من خلال أطياف الحب ، ورؤى الشوق ، وأحلام الحرمان ، فلا يرى إلا سحرا وفتنة ورواء .

وتضيق الصورة العامة الفسيحة الجنبات للإسكندرية حتى تستحيل إلى صورة الخليج ثم تضيق فلا يبقى منها غير ذلك الحبيب الرائع في رياض الخليج ، ويفقد الشاعركل تمييز بين الإسكندرية والخليج ثم بينهما وبين الحبيب فيتغزل في الإسكندرية والخليج تغزله فيه . ويغدق كل صفات الحسن على بلدته حتى إذا كاد يفرغ من قصيدته ، وخفت وطأة انفعالاته ، وأخذ يفيق إلى نفسه ؛ فطن أحيانا أنه كان يصوغ واحدة من قصائد المدح فختمها كما ألف أن يختم قصائده بسلام أودعاء(١) :

---

(١) ٢٧ ، ٨٥ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٥٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٨٤ .

كل هذا جعل من قصائده فى الحنين إلى الإسكندرية أروع ما نظم . فقد نمى فيها قدراته جميعا ، وأبرز خصائصه الفنية كلها ، وأصدرها مفعمة بأعمق مشاعره وأزخرها ، وألبسها أعذب حلله وأحلاها .

ولم يظلم ظافر الفسطاط فى جميع شعره ، بل منحها قصائد لاتتشوق إلى بلدته وتعجب بطبيعة الفسطاط ومواطن الجمال فيها ، وتحسن وصفها وخاصة جزيرة الروضة وبركة الحبش ، وأرض البعل . ولكنها لاتبلغ فى الروعة مبلغ رسومه الإسكندرية ، إذ تفقد حبه المحروم ، وشوقه العارم ، وإن لم تفقد يده الصناع ، وعينه النافذة ، ومخيلته اللاقطة ، وإعجابه المحب ، وعبارته المغردة .

وبالرغم من ذلك ، نستطيع أن نقول إن ظافرا وصف الطبيعة المصرية عامة والإسكندرية خاصة فأحسن وصفها ودققه . فلقد وفر لما رسم الشمول والجزئية ، والواقع والخيال ، وأشرك فيه الحواس جميعا . فمنحنا رسوما جزئية ، وتفاصيل دقيقة ، ومشاهد مفردة ، فى مقطوعات . ومنحنا الرسوم العامة ، التى تصور الشكل واللون والرائحة والحركة والصوت . ولم يبعد عن الواقع فى رسمه حتى التقى مع ماذكره المؤرخون والجغرافيون والرحالة . واعتمد على الخيال فأثارت كل صورة واقعة أمامه صورة أخرى أو أكثر فى مخيلته ، استوحاها من إيحاء الصورة الواقعة فى أكثر الأحيان ، ومن ألوانها كثيرا ، ومن أصواتها أحيانا ، ومن رائحتها أحيانا أخرى . فجاء كثير من صوره انطباعيا يعطى التأثير الانفعالى أكثر مما يعطى شكلا معينا .

وطبيعى أنه اعتمد فى أكثر صوره على بصره الحاد النافذ اللاقط . ولكنه فى كثير منها اعتمد على شمه ، الذى كان سريع الاستجابة إلى الرائحة الطيبة ، وعلى سمعه الذى كان يرتاح إلى صوت السواقى والضفادع والطيور لوجودها فى الرياض التى أحبها ، وعلى ذوقه ولمسه قليلا . فأعطانا من الصور ماتتلقاه بحواسنا جميعا ، وكأنما هو شىء مجسد أمامنا ، وخاصة فى وصف الثمـار (1) .

وإذن ، فظافر شاعر الوصف ، ابن الطبيعة المصرية .

---

(1) ١٩٥ .

كانت الخلافة الفاطمية دولة « دعوة » خاصة ، بثوها قبل أن تقوم دعوتهم ، وبعد أن قامت ، فى البلاد التى خضعت لهم ، والتى لم تقع تحت سيطرتهم ، حتى قال المعز لدين الله أول خلفائهم فى مصر فى رسالته إلى الحسن بن أحمد القرمطى (١) : « فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة . . . بتصاريف اللغات ، واختلاف الألسن » .

ومثل هذه الدولة تعنى عناية كبيرة بكل ما ييسر قبول « الدعوة » وانتشارها . فتعين الدعاة وتقربهم إليها، وترفع مكانتهم وتغدق عليهم العطاء ، وتشيد مواضع تلقى الدعوة ، وتهيىء الاجتماعات ، وتكثر منها . وذلك يدعو إلى بناء المساجد حيث تنشر الدعوة ، وإلى الإكثار من المواسم والاحتفالات حيث ينتشر الناس ، وإلى رعاية الشعر ليكون الأداة الحبيبة فى نقـــل « الدعوة » .

ومثل هذه الظروف تنفق سوق المدح ، وتجعله بضاعة مزجاة ، يقبل عليها الرفيع والوضيع مشتريا ، ويقبل عليها كل من وجد فى لسانه فصاحة ، وبخيلته انطلاقا ، وإيقاعه ائتلافا وعذوبة .

ومثل هذه الصفات توافرت لظافر الحداد ، فاستجاب للظروف ، واستفاد من الدولة . واتصل صغيرا بكبراء بلدته ثم كبيرا بكبراء موطنه ، وصار اللسان الناطق بفضائلهم ، الشادى بمآثرهم .

وبلغ نضجه الفنى ، ومطمحه الشخصى ، فى علاقته بالوزير الأفضل ثم بالخليفة الآمر ، فمنحهما أجمل ما نظم ، وأرفع ما قال ، وأسمى ما مدح .

وكى يصل إلى هذه البغية ، قطع شوطا طويلا وشاقا ، كد فيه ليعيش هو وأبناؤه ويرفع من مستواه فى الحياة ، وكافح ليشغل مكانا بين الشعراء

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢٦٠ .

ويرفع من مستواه الفني . وسجل ديوانه أهم مراحل هذا الصراع ، وأبرز علائمه . حقاً ضاع أكثر ما نظم من شعر في صباه في الإسكندرية أو ضيعه هو عن عمد . ولكن بقي منه ما قد يكفي ويدل . وأين الشاعر الذي لم يسخط على أكثر شعر صباه ولم يمحه أو يمزقه أو يحرقه ؟ أو لم يضع هذا الشعر من ذاكرة سامعيه ؟ بل إن الذي بقي من شعر المدح في ديوانه أكثر مما بقي من أي موضوع آخر . فإلى جانب ما نظمه بغرض المدح أصلا ، بث شيئا من المدح في شعر الطرف والدور والحمامات والرثاء . وأحب أن أضيف إليه ما ضمنه إخوانياته من ثناء على من بعث إليه رسائله ، أو دعواته .

وإذا كان قد نظم الأنواع الأخيرة في مقطوعات ، فقد نظم المدح أيضا في مقطوعات أحيانا قليلة ، وفي قصائد في أكثر الأحيان . وإذا كان قد خلط المدح بموضوعات أخرى في هذه المقطوعات ، فقط خلط المدح بالنسيب في كثير من القصائد وبعض المقطوعات . بل جاءت بعض المقطوعات أشبه ما تكون بما سماه أبو تمام الاستطراد . فقد كانت أبياتها كلها في الغزل ، وانتهزت مناسبة ما لتخلص منه في البيت أو البيتين الأخيرين إلى المدح (١) .

وغلب الغزل والتشوق إلى الإسكندرية على بعض القصائد فلم يتخلص الشاعر منه إلى المدح إلا في أبيات قلائل في آخرها(٢) . ولكن الغزل والمدح توازنا في أكثر القصائد . ثم أخلى مدائحه في الآمر ، وبعض ممدوحيه الآخرين من الغزل إطلاقاً .

وكان في ذهن ظافر تصور خاص لقصيدة المدح . فهي تبدأ بالنسيب ، وتتخلص منه إلى الثناء على الممدوح ، ووصف العلاقة بينه وبين الشاعر ، وتنتهي بالدعاء أو السلام . أما النسيب فقد أعلن هو نفسه أنه يحتذي في البدء به القدماء من العرب ، الذين ابتكروا الشعر ، ووضعوا قواعده المحكمة . ولسنا في حاجة إلى الحديث عنه لأنه له موضعه الخاص .

---

(١) ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٧٥ .
(٢) ٧٦ .

وأما العلاقة بينه وبين الممدوح فقد استهدف من الحديث عنها إغراءه ليعطيه نواله . وسلك من أجل هذا الهدف أحد سبل ثلاثة : أولها الإفاضة في الحديث عن فضل الممدوح عليه . فقد قصده فلم يخيب ظنه ، ووهبه أضعاف ما رجا منه ، وحقق آماله ، قال للأفضل (١):

حتى مدحت أجل من وطيء الحصى فأفادني أضعاف ما أنا راج

وأثاره من الدهر ، وأمنه من الحوادث ، وصد عنه الدهر والليالي ، أو بشرته الأمور أنه فاعل ، قال للقائد أبي عبد الله بن أبي شجاع وأخيه (٢):

فحسب الليالي ما لها في مطمح فقد ضمني للقائدين جناب

فأسعده ، وأفرح أحبابه ، وأكمد أعداءه ، وأكثر حساده ، قال لأبي البركات بن عثمان (٣) :

ودعوت همته هناك فلم يخب ظني لما أبديت من دعواته
ورجعت قد ظفرت يداي بجاهه وبقربه وبوده وصلاته
ولقيت ما سر الصديق وساء من عادى فأخزاه عقيب شماته

الثاني أن يتحدث عن نفسه ، وما أحس به من فرح ، وما ناله من شرف ، حين أنعم عليه الممدوح باللقاء الذي سعى وراءه أمدا ، قال ذلك للخلفاء خاصة(٤) :

هذا مقام كنت أجهد دائبا في نيله ، وأجد في تحصيله
حتى وقفت أمام دستك منشدا ما أنت أعلم سامع بمقوله
فلأفخرن به لأكمد حاسدي حتى يموت بغيظه وغليله

---

(١) ٥٦ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) ٤٧ ، ٧٧ ، ٢٢٥ ، ٢٥٠ .
(٣) ٥٥ ، ٧٧ ، ١٠٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٤) ٢١٢ ، ٧٩ .

ووصف نفسه بأنه خادم الممدوح ، وشاعره ، الذى قدم له أجمل الشعر وأذيعه . قال للأفضل(١) :

فأصبحت فيها خادم الأفضل الذى زحمت ملوك الأرض تحت ركابه
جلوت عليه كل عذراء ما ارتضت ببعل إلى أن هرولت بحجابه
جهدت فما غاليت فى مدحه بها ولكننى غاليت فى مدحها به

الثالث أن يشكو له ظلم الزمان إياه ، واختصاص الدهر له بالنكبات ، وافتقاره ، وجوع أولاده ، مما رأينا أمثلة سابقة له .

وألف ظافر أن يختم مدائحه بختام معين يكاد لا يحيد عنه ، هو الدعاء للممدوح أن يطول به العمر ، فى عز سابغ ، ونعمة ممدودة ، وسرور عميم ، يسبغ من فضله على الناس(٢) :

فلا زالت الأقدار تجرى بأمره تصاريفها والحادثات جنود
ولا زال محسودا لعين فإنه علا مرتقى لم يرق فيه حسود
فسيح مجال العز يصحب عمره بقاء على مر الزمان جديد

فإذا كان قد نظم القصيدة بمناسبة عيد من الأعياد أضاف إلى الدعاء التهنئة به(٣) :

فتهن هذا العيد فهو مهنأ بورود زاخر فضلك العجاج
لولا لقاؤك ما تحمل كلفة فى السير بين مهامه وفجاج
لينال فى عرفات وجهك وقفة يغدو بها من جملة الحجاج
فلنا بوجهك كل يوم مثله عيدان عند توجه ومعاج
لا تعدم الأيام ظلك إنه عون اللهيف وملجأ المحتاج

وربما أضاف الصلاة والسلام فى مدح الآمر(٤) :

صلاة الله ما جرت الليالى عليك ختامها طيب السلام

وقل أن يختم بغير ذلك(٥) .

(١) ٣٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٣١ . (٢) ٧٧ .
(٣) ٥٦ . (٤) ٢٣٦ - ٧ . (٥) ٢٥٢ .

ذلك هو الإطار العام لقصيدة المدح عند ظافر ، وتلك هي الخطوط العريضة التي تكون معالمها . فلا نكاد نخطئها في واحدة منها . أما عنصر المدح فقد اعتمد فيه على عدة أسس ، اعتمد فيه على الصفات التي تحلى بها الممدوح فعلا ، والصفات التي رفعها المجتمع المصري للحاكم المثالي ، والصفات التي أبرزها التراث العربي للممدوح منذ زمن بعيد ، والصفات التي تصورها هو نفسه حلية للراعي المثالي . واعتمد في نظمه مدائحه على عدة صور فكرية ولفظية ، استقى بعضها من الواقع الجاري أمامه ، وبعضها من التراث القديم ، وبعضها من مناسبات أحاطت بالقصيدة أو بالممدوح . فأكثر القصائد التي عرفنا مناسبتها نظمت في الأعياد . وقد اشتهر عن الفاطميين حبهم للأعياد ، وإكثارهم منها ، ومبالغتهم في الاحتفال بها . قال المقريزي (١) : « وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم ، وهي : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد على ابن أبي طالب رضي الله عنه ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين عليهما السلام ، ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان ، وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف وموسم فتح الخليج ، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس العدس ، وأيام الركوبات » .

ومن يقرأ ماقاله المؤرخون في وصف ما كانوا يفعلونه في هذه الأيام ، ويرتدونه ، ويوزعونه من الهبات ، ويقيمونه من الأسمطة ، يدرك العناية التي قابلوها بها ، والاحتفال الذي خصوها به ، والبهاء والجمال والروعة

(١) الخطط ٢ : ٣٨٤ .

التى أسبغوها عليها . ويرى الشعراء بين الفئات التى تحتفل بهذه الأعياد ، وتؤدى دورا مرسوما ، لاغناء عنه ، فى قصور الخلفاء والوزراء .فيتلقون الجزيل من العطاء جزاء وفاقا (١) .

والأعياد التى نظم فيها ظافر بعض شعره : أول العام ، وأول رجب، وأول شعبان ، وأول رمضان ، وعيدا الفطر والنحر ، وأعياد أخرى لم نستبن حقيقتها ، وأرجح أنها الفطر أو الأضحى .

ونستبين من شعره أيضا أن الأقاليم كانت تحتفل بهذه الأعياد ،فيشترك فيها كبار القوم كما يشترك الخليفة ورجاله فى العاصمة . فقد نظم قصيدة يهنىء فيها ابن حديد — قاضى الإسكندرية — برمضان ، قال فيها (٢) :

شهر الصيام بك المهنا إذ كان يشبه منك فنا
ما سار حولا كاملا إلا ليسرق منك معنى
وينـال منك كما نـنـا ل ويستفيد كما استفدنا
فرأى محلك من محـ ل هلاله أعلى وأسنى

ولم يقدم ظافر مدائحه إلى رعاته فى الأعياد العامة وحدها بل انتهز بعض المناسبات الخاصة بهم لتقديم قصائده بين الطرف التى يقدمها مخالطوهم . وأهم هذه المناسبات الخاصة التى كان لها صدى بعيد فى شعره : زواج المرتضى بن الأفضل ، فقد نظم فيه ثلاث قصائد ، وبناء الأفضل لداره ، والمأمون لداره ، فقد نظم فى كل منها عدة مقطوعات . وحداه ذلك إلى الفخر بما قدم فى العرس ، فقال (٣) :

وعرس الفخر فى العرس الذى عظمت
أوصافه وجـرت لى فيه أفراس
من كل قافية ذلت صعوبتها
لخاطرى وهى بالألباب مشماس

---

(١) الخطط ٢ ، ٣٢٨ . محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ١٢٦ .
(٢) ٢٥٣ . (٣) ١٣١ .

ضمنتها مدح شاهنشاه فهو بها
در حوته من الديباج أكياس

واقتصر على نظم قصيدة فى غير ذلك من المناسبات الخاصة ، مثل شفاء الآمر ، أو تولى الحافظ الخلافة، أو تقلد المأمون والأكمل الوزارة .

والتقط فى بعض الأحيان فرصا عارضة ، سنحت فى بعض مجالسه فى قصور الخلفاء والوزراء ، فنظم أبياتا فى مدحهم . إذ يطلب إليه أبيات تنقش على حمام ، أو تدون على الطرف مثل مضارب عود أوسرج أو غيرهما ، أو تصف بعض المشاهد ، فيفعل ويلحقها المدح .

ولا زالت أمامى مناسبتان غريبتان . فقد أنجب الخليفة الآمر ولدا ، فنظم ظافر قصيدة يهنىء فيها الوزير –لا الخليفة– بهذا الحادث ، ويمدحه . ولعل تفسير ذلك أن الشاعر عد هذا الحدث مناسبة عامة ، إلى جانب أن الوزير كان يشارك فى أمثال هذا الاحتفال مشاركة كبيرة .

وتوفى المظفر أخو الأفضل فرثاه ظافر . ولكنه لم يخلص قصيدته للرثاء وللمرثى ، بل ضمنها مدحا كثيرا للأفضل . وذلك أمر غير مستساغ ، ولكنهم كثيرا مافعلوه .

وألف ظافر أن يشير فى قصيدته إلى المناسبة التى نظمها فيها ، وأن يستوحيها بعض الصور يستغلها فى المدح . فديوانه يضم أربع قصائد نظمها فى احتفالات رمضان ، فذكر ذلك علانية فى مستهل ثلاث منها (١). وفى آخر ثلاث أيضا (٢) . .

فالتزم فى المطالع تقديم التهنئة إلى شهر رمضان لأنه سيسعد بطلعة الممدوح التى غاب عنها سنة كاملة (٣) :

هناك الفخر ياشهر الصيام بقرب الآمر الملك الهمام
فحسبك منه منزلة ومجـدا زيارة مرة فى كل عـام

---

(١) ٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ .
(٢) ١٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ .
(٣) ٢٣٦ .

وعقد مقارنات بين رمضان وممدوحيه ، ظهر عليها تأثير السن والنضج . فبينما رأى ممدوحه فى قصائده الأولى أعلى مكانة من هلال رمضان ، ورأى رمضان جديرا بالتهنئة حين أشبه أحد فنون الممدوح ، ورآه يدأب على السير سنة كاملة ليبلغه فيسأله إحدى مواهبه كما نسألك ، أويسرق منه أحد معانيه ، بينما كان الأمر كذلك فى قصائده الأولى رأى الممدوح ورمضان فيما بعد يتمتعان بصفات مشتركة ، فكل منهما لاشبيه له ، وكل منهما يجمعه التفرد العظيم . فرمضان ينفرد بليلة قدره عن الليالى ، وهو ينفرد بقدره عن الرجال . ورأى الممدوح هو الذى نصر الإسلام حين أراد به أعداؤه من الصليبيين تقويضا ، وهو الذى وطد بذلك أركانه وفرائضه من صوم وغير صوم (١) :

لليلة قــدرك الغراء تحكى	طريقة قــدره بين الأنام
وكل جل عن شــبه ومثل	وفاق عن المطاول والمسامى
هو السبب الذى لولاه فينــا	لما عرف الحلال من الحرام

والتزم فى إشاراته الختامية التهنئة أيضا بحلول شهر رمضان ، ووصفه بأنه شبيه بالممدوح فى المكانة . ثم زاد على ذلك أن رمضان جاء مبشرا بسعد الممدوح (٢) :

ليهنك شهر الصوم وهو مبشر	بسعد بدت منه إليك الطلائع
ففضلك فينا فضله فى شهوره	فكل لكل مشبه ومضارع

وأنه سر برؤياه (٣) :

كسرور شهر الصوم إذ قابلته	وتأسف ولى به شــعبان

إذ رأى روض الفضل عنده مزدهرا ، فصام شكرا لله (٤) :

إذا صمت فرضا ،صام شكرا لأنه	رآك وروض الفضل عندك يانع

---

(١) ٢٣٦ .
(٢) ١٥٠ ، ٢٥٠ .
(٣) ٢٥٠ .
(٤) ١٥٠ .

ولا ينفرد رمضان بين المناسبات بهذه الظاهرة ، بل نجدها فى غير رمضان من الشهور ، وغيره من الأعياد ، وبشير إليها ويستلهمها الصور . ولكن رمضان ينفرد بتكرر الاستلهام فى مفتتح القصائد وختامها ، أما غيره من المناسبات فاكتفى بتمثلها فى الختام وحده .

كذلك لا ينفرد رمضان بما ألهمه للشاعر من صور ، فكثير منها مشترك بينه وبين المناسبات الأخرى . فهى أولى بالتهنئة والفخر ، إذ تشرفت بالقرب من الممدوح وخاصة الخلفاء ، وحظيت برؤية وجوههم ، وتقبيل أيديهم ، وسماع ألفاظهم ، بعد أن أضناها الشوق (١) :

ليهنك عيد جاء شوقا لنظرة	إليك له من أجلها سنة يغدو
يفيد بها منك الذى جل قدره	فضائل شتى ماله غيرها وكد
فيبصر وجها كل نور شعاعه	ويلثم كفا كل جود لها زند

وقد جاءت مبشرة بالسعادة والنصر ، تستجدى الممدوح النظرة ، وهى ذات مكانة عظيمة ، ولكنها لا تقتنى من الفضل إلا بعض ماله ، وتفخر ببعض الشبه بينها وبينه (٢) :

ويعلم أن العيد وجهك دائما	بمصر ولكن ناب بعض منابه
وأن له من عظم قدرك فى الورى	ومن نحرك الأعداء بعض مشابه

واستوحى من اجتماع رجب ورمضان ، وهى الشهور المعظمة ، صورة تقرب بينها وبين الأفضل وإخوته ، قال عن رجب (٣) :

فهو أولى أن يهنى بك إذ	نال ما شرفته من كثب
هو مع تلويه فى العام كما	أنت ما بين ابن أم وأب
أشهر خصت بفضل ظاهر	هو من فضلك مثل القضب
ولها فخر على أمثالها	وهو لا شك لفضل موجب

والفكرة البارزة فى أكثر الصور التى رسمها الشاعر لهذه المواسم هى التشرف برؤية الممدوح – وهو الخليفة فى الغالب – بعد غيبة عام ، وتعكس

---

(١) ٨٣ .

(٢) ٣٥ ، ٣٣ .

(٣) ٣٤ .

هذه الصورة شعور ظافر نفسه لأن الخلفاء الفاطميين كانوا يحتجبون عن رعيتهم، ولا يبرزون إلا فى المواسم ، ويعدون رؤيتهم حظوة كبيرة ، ومنة عظمى.

واتبع ظافر المنهج نفسه فى قصائده الأخرى . فقد استوحى زواج المرتضى بن الأفضل مثلا ، وما أقيم من أفراح ، وما نثر من هبات ، صورا استخدمها فى مدح الوزير وابنه . فقد انتهز الفرصة السانحة ، ومدح الابن ، إذ رأى فيه ثمرة طيبة وطبيعية للأسرة الجيوشية (١) :

يا دوحة الرتب العليا لقد لحظت ... منك العيون كمالا ليس فى الشجر
كرمت أصلا وفرعا ثم جئت بما ... زكا وأينع واحلولى من الثمر
من كل قرم جيوشى النجار غدا ... فى كعبة الفخر مثل الركن والحجر

وبذلك صدقت فراسة الأب فى ابنه (٢) :

فأتى بما اقتضت الفراسة فعله ... فتنافست فى فضله الأفكار

وما كان فى ذلك شك ، ففراسة الأفضل لا تخيب (٣) :

فراسة لك فيه غير خائبة ... وخاطر فى فنون الفضل هجاس

واستلهم من الأفراح صورة غطت أيام الأفضل كلها ، فإن ما فعله فى زواج ابنه ليس بالبدع الغريب ، لأن المتصلين به يعيشون فى بحبوحة عيش ، وفنون من المسرات ، بحيث يعدون أيامه كلها أفراحا (٤):

أيام ملكك أعياد وأعراس ... فيها المسرات أنواع وأجناس

ولعله وسع مجال السرور ، ومهد سبله ، وفتح أبوابه ، وركزه فى كل قلب ، وبرأه من كل شائبة (٥) :

فتحت للناس أبواب السرور به ... فالعرس فى كل قلب غير مختصر
لله ملك وإملاك قد اقترنا ... إلى السعادة فى أمن من الغير

---

(١) ١١٣ . (٢) ١١٤ .
(٣) ١٣١ . (٤) ١٣١ .
(٥) ١١٣ ، ١١٤ .

وتمثل ما نثر من أموال فى الفرح نجوما ، فلو زادها ما بقيت فى السماء نجوم ، ولأظلمت الدنيا بعده (١) :

نثرت للناس من عين ومن ورق　　فيه فلم يبق من لم يحظ بالبدر
فلو أردت مزيدا فى النثار له　　لم يبق فى الجو نجم غير منتثر

والختام الطبيعى لمثل هذه المناسبة دعاء بطول العمر ، يرى فيه الوزير أبناء لابنه ، يشبون ويكبرون ويشغلون المناصب العالية ، ويصبرون سادة ، يؤيدون سلطانه ويؤازرونه(٢) :

الله يبقى فى بقائك عمره　　ما دام للفلك الأثير مدار
حتى يشد بنوك ملكك مثله　　ويشده أبناؤه الأبرار

وكذا فعل فى بقية المناسبات ، بل فعل فى مناسبات اقترنت بنظم القصيدة دون أن تكون السبب فيه . فقد تأخر فيضان النيل فى إحدى السنين حتى جزع الناس ثم جاء مبشرا بخير عميم ، فاستخدم الشاعر ذلك الحدث فى مدحته التى قدمها للأفضل بمناسبة رجب ، وقال (٣) :

أين ماء النيل من كفك إذ　　أخجل البحر وودق السحب
ولهذا كان فى العام له　　وقفة من خجل أو رهب
ثم حاكى من أياديك ندى　　فانتحى الأرض يجرى مغرب
فهو لولا خيفة تزجره　　منك أودى فيضه بالسحب

واتخذ ظافر من أسماء ممدوحيه أيضا مصدرا لإلهامه ، فقد استقى منها كثيرا من أفكاره وصوره التى مدحهم بها . وأبرز ما تتجلى هذه الظاهرة فى « الأفضل » ، الذى اعتمد على اسمه ، وأكثر من الإشادة « بفضله » إكثارا بينا (٤) :

وفضلك مثل الشمس نور ورفعة　　وحاشاه بل أعلى وأسنى وأسير

---

(١) ١١٣ .　　(٢) ١١٤ .
(٣) ٣٤ ، ٣٣ .　　(٤) ١٢١ .

ولكن قد يظن ظان أن هذه الإشارات غير متعمدة ، إذ أن الشاعر أورد أمثالها فى مدح غير الأفضل . ولكن التعمد يظهر جليا فى مثل قوله (١) :

كسا الفضل فضلا حين أضحى سميه ومت إلى أفعاله بانتسابه

ويتجلى الاستلهام القريب فى مثل قوله (٢) :

يا أفضل الناس أفعالا وتسمية وأعدل الخلق نفسا حرة وأبا

ولكنه فى صور أخرى يتخذ من الاسم مادة خامة ، ويحاول أن يشكل منها كل ما استطاع من صور ، قريبة أو بعيدة ، يتجشم من أجلها كثيرا من العناء . فالأفضل قد استكمل الفضل (٣) :

عن الأفضل المستكمل الفضل هل حوى فضائله من قبله ملك وصفا

واتخذ منه عقدا يتحلى به (٤) :

وعقد الفضل منظوم اللآلى لديها لا يفك ولا يفض

وأغرق فى استلهامه حتى اختلط عليه الاسم والمسمى ، ولم يعد قادرا على التمييز بينهما . فقد توهم الأفضل واحد الفضل بل بكره ، بل هو الفضل نفسه (٥) :

إذا قيل : أين الفضل أو كيف شخصه ؟
أشارت بلا شك إليك الأصابع

واتخذ من ألقاب المأمون عقدا ، نظم فيه لقبا بعد لقب ، وفصل بينها بما أوحت إليه من أفكار وصور ، ثم حلاه بها جميعا ، فقال (٦) :

فاشتقت الألقاب فيك لأنها وصف جميل فى صفات توجد
فدعتك « بالمأمون » وهى جبلة مما يثبتها لديك المولد

---

(١) ٣٥ .
(٢) ٣٣ ، ١١٣ ، ١٣١ ،
(٣) ١٦٦ .
(٤) ١٣٨ ..
(٥) ١٠٠ ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٦) ٨٤ ..

« تاج الخلافة » وهو تاج فضائل

تقضى الجواهر دونه والعسجد

« فخر الصنائع » أى فخر صبغه أبدا على طول المدى يتجدد

وإذا « وجيه الملك » قيل فإنه وجه له من كل فضل مسعد

نعم « الذخيرة » أنت للأمر الذى

ينحو أمير المؤمنين ويقصد

يزهى بك التشريف والخلع التى جلت ، وجوهر طرفها المتوقد

وقد ظهرت ظاهرة التلاعب باسم الممدوح فى شعر ظافر منذ عهد مبكر : فقد استخدمها فى مدحه الأمير السعيد ، والى الإسكندرية ، إذ قال له (١) :

واستنبط السعد من مدح السعيد تجد

بحرا يمدك لا يفنى مدى الأبد

واستمرت معه إلى القصائد الأخيرة فى شعره ، إذ اعتمد عليها فى مدح الخليفة « الحافظ لدين الله » ، الذى قال فى أول قصيدة له (٢):

يا حافظا للدين حفظ حياطة بسياسة ما شوهدت من قبلها

وقال فى الثانية ، وهى آخر قصيدة نعرف تاريخها فى الديوان (٣) :

الحافظ الدين ، الذى غمر الورى

عدلا ، وعم جميعهم إحسانا

وقد استفدنا من هذه الظاهرة فى التعرف على الممدوحين فى كثير من قصائده التى لم تذكرهم نسخ ديوانه ، وخاصة ابن نجيب الدولة ، الذى لم توجه له إلا قصيدة واحدة .

---

(١) ٧٦ .

(٢) ٢١٨ .

(٣) ٢٦١ .

ولكن الشاعر لم يخص هذه الظاهرة بموضوع معين من قصيدته ؛ فإذا كنا رأيناه يستغل الأعياد والمواسم فى ختام قصائده ، فإن استغلال الأسماء يأتى فى مواضع متفرقة منها ، فالشاعر لم يلتزم فيها ما التزمه فى سابقتها .

واستقى ظافر كثيرا من مدحه من الواقع الجارى ، فأخذ منه صفات البأس والعدل والهيبة ، وما تنشره من أمن ، وما تؤدى إليه من طيب عيش ، تلك الصفات التى تحلى بها كثير من الوزراء والكبراء وكان المجتمع المصرى ينعم بها فعلا ، حتى تبين لنا التوافق بين ما نظمه الشاعر وما دونه المتحدثون عن مصر فى ذلك العهد ، وحتى اختلفت مدائحه فى الرجال لاختلاف المناصب التى شغلوها ، والصفات التى حملوها فعلا . بل اختلف مدحه فى قصائده ومقطوعاته فى الدور والطرف عن مدحه فى إخوانياته . فمدح الإخوانيات أحق باسم الثناء وأقرب إلى الشكر ، ويتحدث عن الفضل وسعة الصدر ، والمعانى الجزلة والألفاظ العذبة ، والحديث الطلى ، وهى صفات تخالف ما رأيناه فى مدح الرعاة .

واستقى من التراث صفات الجود والشجاعة ، وكثيرا من الصفات العامة ، والصور الجزئية الأخرى . أتى بها كما عثر عليها آونة ، وأجرى فيها ما استطاع من تغيير أخرى . وكان أدنى ما فعل أن خاط لهذه الصور رداء أو أردية اختارها من لفظه ، ونسجها بنفسه ، فأخرجها حاملة خصائصه . ولم يفعل ذلك أحيانا ، واتخذها دعامة ليفرع منها صورا أخرى أو يستوحيها صورا تتفق معها فى الدلالة الكبرى وتختلف بعض اختلاف فى التكوين .

واستقى فى مدح الخلفاء خاصة من مبادئ المذهب الفاطمى ؛ فعمد إلى الواضح القريب من هذه المبادئ ، واستلهمه الصور التى منحها لممدوحيه ؛

وصفوة القول إن ماراعاه ظافر فى تصميم قصيدة المدح من استهلال بالغزل ، وانتقال إلى المدح ، واختتام بالدعاء و التهنئة والسلام ؛ وما التزمه من عناصر تكون نسيج مدحه ، وما اعتمد عليه من مصادر استقى منها صفاته ، كل ذلك أعطى قصيدته محتوى محددا ، وشكلا بارزا ، يجعل القارئ الفطن يتعرف عليها بين نظرائها من قصائد المدح السابقة عليها والمعاصرة لها . ويجعلنا هذا نضع كثيرا من مقطوعاته الطويلة فى الإخوانيات، وقصيدته فى الرثاء تحت باب المدح ، لأنه صممها تصميم قصائد المدح . ولا يفرد المرثية عنها إلا الحديث القصير عن الفقيد ، وما سببه فقده من ألم ، ونصحه الأفضل بالصبر .

فلا عجب إذن أن أقول إن قصيدة المدح عند ظافر وليدة قريحة الشاعر المصرى ، والمجتمع المصرى ، أحسنت التعبير عنهما . ويسوقنا هذا إلى القول بأن المدح عند ظافر من أجود الفنون التى نظم فيها لصدقه ودلالته وتفرده .

الغزل

يسمو ظافر بالغزل فيجعله جوهر الشعر وينبوعه ، يصدر عنه ويغترف من فرائده ، فيمده فيه بما لا يمده فى فن آخر من فنونه (1) :

والشعر تلقين شيطان الغرام فلا يملى غرائبه إلا لمن نسبا

وأن الشاعر الذى يكتوى بنار الحب ، وتحرقه جمرات البعاد ، فيعصر الشوق فؤاده – كما عصر فؤاده هو حنينه إلى الإسكندرية – يدرك من المعانى والصور ، عند التعبير عن حبه ، ما لا يدرك هو نفسه فى غير الغزل من فنون الشعر :

كم فكرة أنتجت معنى لملتهب بالشوق لو رامه فى غيره عزبا

وأن العرب أوتوا من الحكمة ما عرف بين الأمم ، وأنك لا تحتاج إلى مشقة فى البحث عن حكمتهم هذه ، فقد أودعوها شعرهم ، واستلهموها

(1) ٣٣ .

فى نظمه وتشكيله . فالواجب على الشاعر الحديث الذى يريد لنفسه المجد ، والشعره الخلود ، أن يحتذيهم مضمونا وشكلا :

وحكمة العرب الماضين كامنة   فى الشعر فليقفُ مَن يعنى به العربا

وقد أدرك العرب — بعد تجارب طويلة — أن أجمل الشعر ما كان غزلا مقدما بين يدى مديح ، أى غزلا غير مقصود لذاته ، ولا للتعبير عما يحمل من مشاعر ، حسب ، وإنما المقصود منه استدراج المستمع أو القارئ إلى أبيات المدح بسبب شغفه به :

الحب مذ كان معنى يصحب الأدبا   فإن تغزلت فى مدح فلا عجبا
وأحسن الشعر ما أضحى تغزله   إلى المدائح فى إنشاده سببا

هذا هو التصور الذى خلص به ظافر من قراءة الشعر القديم ، وهو تصور لا ينفرد به بل يشترك معه فيه أكثر شعراء العربية . ولكن يهمنا أنه تمثل هذا التصور فى نظم شعره ، لأنه كان واعيا له كل الوعى ، فرسب فى وجدانه ، وبسط سلطانه عليه . فتأثر به واعيا كثيرا وغير واع كثيرا ، وعن قصد كثيرا وعن غير قصد كثيرا أيضا .

فاستهل كثيرا من مدائحه بالغزل . ولكننا نلاحظ — فى هذا الصدد — أنه تجنب هذا التقليد تجنبا تاما فى مدحه للخليفة الآمر ، فلم يبدأ أيا من قصائده فيه به (١) . أما الحافظ فلم يتغزل فى قصيدته الأولى فيه (٢) ، وهى التى هنأه فيها بالسلطة ، ودافع عن استيلائه عليها . وقدم بين يدى الثانية مقدمة غزلية أطال فيها الحديث عن شيبه ، الذى حرمه متع الشباب(٣) . ولم يلتزم تقليدا معينا فى مدحه للأفضل والمأمون ، فكان أحيانا يتغزل (٤) ،

---

(١) ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٧٠ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ – ٧ .
(٢) ٢١٨ .
(٣) ٢٦١ .
(٤) ٣٣ – ٥ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ .

وأحيانا لا يفعل (١) . ولعل تعليل هذه الظاهرة أنه كلما وثق علاقته بممدوحه أو وجد مجالا للقول مثل الاحتفال بالعرس ابتعد عن الصورة التقليدية واجتنب المقدمة الغزلية .

ونلاحظ أيضا أنه لم يقدم للقصائد وحدها بالغزل ، بل قدم لبعض المقطوعات. وذلك أمر غريب يكشف عن مدى سيطرة الصورة التقليدية عليه . وقد اتبعه فى مقطوعات مدح فيها الأفضل . وحين نمعن النظر فيها، نتبين أن الشاعر لم ينظم غزلها إلا ليمهد السبيل للوصول إلى المدح ، أو — حسب ما ألفوه من قول قديما — ليحسن التخلص إلى المدح ، ونحس أن الغزل عارض غير مقصود (٢) :

هل الموت إلا دون ما أنا وارد	وإن كنت أستحلى بكم ما أكابد
وإنى ليعرونى غرام تذيبنى	حرارته والماء بالقر جامد
وأعطش حتى لا أفيق من الظما	وقد طفحت مما بكيت الموارد
أيحسب فيك اللوم أنى سمعته	إذن بخلت كفى بما أنا واجد
وأنكرت فضل الأفضل الملك الذى	يداه لأجياد الملوك قلائد

ويعجب المرء لماذا يتغزل الشاعر فى مقطوعة ، وذلك أمر غير محتم ، ثم يجاهد ليحسن التخلص من هذا الغزل إلى المدح . ويخيل إلى أن الشاعر لم يكن ينظم هذه المقطوعات تلبية لطلب من الأفضل ، أو تطوعا منه ليقدمها إليه ، بل كان يفعل ذلك ليحبرها ويجودها ثم يحتفظ بها إلى حين الحاجة إليها ، فيدخلها فى قصيدة طويلة يريد أن ينشدها أمام ممدوحه . فقد كان الشعراء — وظافر منهم كما نرى فى أكثر قصائده — يجهدون أنفسهم فى « حسن التخلص » ويخشون الإخفاق فيه ، إذ عدوه من معالم الحسن فى القصائد ، ومن المزالق الخطيرة التى يتردى فيها الشعراء .

(١) ١١٣ — ٤ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٢) ٧٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٥٢ .

ونسى ظافر نفسه فى بعض قصائده إذ استهواه ما يقول من غزل ، فغفل عن كونه مقدمة لغرض آخر هو المدح ، واستطرد فيه إلى أن تقطعت أنفاسه ، فانتبه إلى أنه لم يمدح بعد ، فأتى بأبيات قلائل فى المدح كما فعل فى قصيدة الأمير السعيد (١) .

ونستبين من هذا أن غزل ظافر ارتبط بالمدح فصار مقدمة طبيعية له ، كما استبنا فيما مضى أنه ارتبط بوصف الطبيعة فصار أحد مجالى الحسن فيها ، ينثره بين مناظر الجمال التى تمتع بها فى أحضانها ، وأنه ارتبط بتشوقه إلى الإسكندرية ، فصار إحدى ذكرياتها المحببة التى تلح على ذهن الشاعر فى الفسطاط ، وتتردد فيما رسمه من صور . ولكن ديوانه يبين لنا أيضا أن الغزل جاء عنده فى بعض الأحيان دون أن يرتبط بأمر آخر ، فمنحه الشاعر قصائد ومقطوعات كاملة ، لم يشرك معه فيها غيره (٢) .

ولم يقف ظافر العرب فى هذا الموضع الذى وضع فيه الغزل وحده ، بل قفاهم فى الموقف الذى اتخذه من الحبيبة . فقد كان فى أكثر قصائده المحب العربى المعروف به المحب الذى يقبل على المرأة بعواطف صادقة ، ويمنحها قلبا وفيا ، ويسعى وراءها دائبا ، فلا يلقى فى حبه غير الحرمان . فإن بادلته عاطفة بعاطفة ، فلابد من فراق وشيك ، يؤدى به إلى الحرمان . فيقاسى فى الحالين من الآلام ما يفقده قلبه وعقله ، وصحته وصبره ، فهو بادى السقم ، دائم البكاء ، طويل السهر .

و « قفاهم » فى الصورة التى تخيل المرأة التى أحبها عليها ، فهى هيفاء ، معتدلة القد ، ممتلئة الردف ، مشرقة الوجه ، فاترة العينين ، وضيئة الأسنان ، عذبة الريق ، وردية الخد ، سوداء الشعر طويلته .

كل هذه الصور التى رسمها لنفسه محبا ، وللمرأة محبوبة ، لم يستلهمها من تجربته الخاصة معها ، وإنما من التراث الشعرى العربى الذى أراد أن يقفوه . فاحتذاه احتذاء صادقا فى تصويره لنفسه ، واحتذاء قريبا فى تصويره

---

(١) ٧٦ .

(٢) ١٠ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٦ .

للمرأة . غير أنه فى تصويره لها ، غلب عليه نهجه الخاص فى التصوير ، الذى يكاد يلتزم إيراد الصورة التى يرسمها مقرونة بصورة أخرى أو أكثر ، تشبهها شكلا أو لونا أو إيحاء . فجاءت صوره للمرأة أقرب إلى الصور التأثيرية التى لا تلتزم حدود الواقع المنظور ، وتزوده بالواقع المحسوس ، والواقع الانفعالى . فبعدت صورة المرأة بعض البعد عن الصور التقليدية ، وإن انبعثت من دلالاتها نفسها .

ورسم ظافر لحبه صورا أخرى تغاير صورة الحرمان السابقة ، وتبين تبادل الطرفين العواطف والمتع . ولكننا سرعان ما نتبين أن هذه الصورة أيضا ليست من ابتكاره ، بل قفا فيها جماعة من شعراء العرب القدماء أيضا ، بل أستطيع أن أقول قفا فيها شاعرا واحدا له أتباعه فى الأدب العربى ، ذلك هو عمر بن أبى ربيعة ، شاعر الحجاز فى العهد الأموى .

فتلك المغامرة الغرامية التى خرج فيها يجوب الصحراء ، ويعتسف الليل ، حتى بلغ حيا من بنى أسد ، فتسلل فى السكون ، حتى ولج خباء فتاة نائمة ، فلثمها فتنبهت ، ولبث حبه إلى أن قرب الصبح فتفرقا ، تلك المغامرة التى رسمها فى قوله(١) :

كم مهمه جبت من أجل الهوى فرقا يكبو بجيفته الساعى من الرعد

وليلة مثل عين الظبى داجية عسفتها والنجوم الطالع لم تقد

كأن أنجمها فى الليل زاهرة دراهم والثريا كف منتقد

ولى يمين يمين الموت ماثلة فى صورة السيف لم تنقص ولم تزد

ماضى الغرارين لا تدعى ضريبته ... بالعود لو أنه ألقى على أحد

راوى الجوانب ظمآن الحشا فعلت ... فيه يد القين فعل الأم بالولد

كأنما النمل دبت فوق صفحته ... فغادرت أثرا كالسر فى جلد

حتى تأملت حيا عز ساكنه ... تحفه أسد غاب من بنى أسد

---

(١) ٧٦ .

فجئت أخفى خطاء لو وطئت بها ... فى جانب الخلد مما خفت لم يجد
حتى لمت فتاة الحى فانتبهت ... ترنو إلى بعينى جؤذر شرد
فسلمت وهى ولهى من مخافتها ... حيرانة تمزج الترحيب بالحرد
فظلت ألثمها طورا وأشعرها ... فعل الهوى بى وقد مالت على عضدى
وقلت للقلب لما خاف بادرة : ... ذا مورد عز أن تعتاضه فرد
فودعتنى وقالت وهى باكية : ... إنى أخاف عليك الموت إن تعد
وسرت والليل قد ولت عساكره ... والدهر يأكل كفيه من الحسد

والمغامرة التى صورها فى قصيدته التى مطلعها (١):

لعل زمانى بالعذيب يعود ... فيقرب قرب أويصد صدود

هاتان المغامرتان من استيحاء مغامرات عمر بن أبى ربيعة التى صورها فى شعره عامة وفى رائيته خاصة ، الرائية التى مطلعها(٢):

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

فلا يفصل بينه وبين حبيبته مهامه، وأسد ،وخيام، ولاوجود فى حياته لأكثر هذا الذى وصفه فى قصيدتيه .

ولم يقتصر ظافر فى اقتفائه العرب على الموضع الذى وضع فيه الغزل ، والاتجاه العام الذى جعل حبه يسير فيه ، والصور التى جعلها لأطراف هذه العلاقة ، بل اقتفاهم فى كثير من التفاصيل التى لا وجود لها فى حياته فى الإسكندرية والفسطاط مثل بعض ما رأينا فى قصيدتيه السابقتين .

فالفراق أمر جائز أن يقع بين المحبين فى البدو وفى المدن . ولكن بعيد أن يكون فى إحدى المدينتين اللتين عاش فيهما ظافر ،بالصورة التى رسمها فى قوله(٣) :

لمن الشموس غربن فى الأحداج ... وطلعن بين الوشى والديباج
من كل رائقة الجمال كدمية ... فى مرمر أو صورة من عاج

(١) ٧٧ .
(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٢٠ .
(٣) ٥٦ .

حفت بهن ذوابل ومناصل | ومشت بهن رواتك ونواج
تطفو وترسب فى السراب كأنها | سفن مشرعة على أمواج
ساروا ولم أوذن بوشك فراقهم | إلا إشارة ناعب شحاج

وليس بعيدا أن يتجشم المحب المدنى بعض الأخطار فى سبيل أن يلقى حبيبته ، ولكن البعيد أن يضطر إلى مواجهة الأسود الكاسرة ، ومنازلتها ، وإلى أن يصطحب سيفه وإلا كان الهلاك مصيره ، كما قال(١) :

فبادر عدوى من بنى الغاب أهرت | عظيم القرا عبل الذراع عنود
أخو حنق غص الفلا بزئيره | له وثبة فى سيره ووئيد
فألجمته عضب الغرارين كاسرا | هو الموت لولا أن يقال حديد
إذا مجه الغمد استنار كأنه | شهاب له بعد الهدوء وقود
فشتت من شطريه شملا بضربة | لها عادة لا تبتدى فتعود
وسرت وصنوى حافز من صبابة | يسوق اعتزامى تارة ويقود

وأخيرا ينسى الشاعر نفسه، وكل شىء حوله، فى غمرة هذا «الاقتفاء» ، ويعيش فى دنيا القدماء ، ويمارس حياتهم ، ويحيى أفكارهم وتصوراتهم : فينظر إلى دار حبيبته التى هجرته فيرى فيها طللا أقفر ، بعد أن كانت تسكنها الحور . ويرى نفسه مضطرا إلى الوقوف عليها مع الشعراء الواقفين، وإلى الاستجارة بالدمع فيها مع المستجيرين(٢) :

سائل الدار إن سألت خبيرا | واستجر بالدموع تدع مجيرا
وتعوذ بالذكر من سنة الغد | ر ، ولا غرو أن تكون ذكورا
أفهمتنى على قحول رباها | فكأنى قرأت منه سطورا
دم عينى بالسفح حل لدار | لا يرى أهلها دما محظورا

وبالرغم من ذلك ، لا أدعى أن غزل ظافر خال من كل ابتكار ، مغسول من كل علائم شخصية صاحبه، خاو من شواهد الجودة والعذوبة.

---

(١) ٧٧ .
(٢) ٣٠٥ .

فقد رأينا مجموعة من الصور ابتكرها فى تصويره للمرأة خاصة ، وهى – إن كانت قليلة – ذات بهاء ورونق يطغيان على أكثر صوره التقليدية الأخرى. ورأيناه فى أكثر صوره للمرأة وقليل من صوره لنفسه يسلك منهجه التأثرى الخاص ، الذى يقرن كل صورة بشبيهتها فى اللون والإيحاء كثيرا ، وفى الشكل أحيانا . فطبع ذلك النهج هذه الصور بطابعه الشخصى . ورأينا ذلك الطابع يتجلى فى القصائد التى خلط فيها بين الإسكندرية والطبيعة والحبيب ، فجعلها شيئا واحدا ، لايستطيع أن يفصل بينها .

وقد أحس الشاعر نفسه أنه يدور فى فلك مجموعة محدودة من الصور التى رسمها للمرأة ولنفسه . فأراد أن يعوض ذلك فلجأ إلى الافتنان فى الصور اللفظية التى كسا بها هذه الصور . فوردت عنده الصورة الواحدة فى أردية لا حصر لها . وقد توصل إلى هذا التنوع بالتنوع الذى تعمده فى بناء عباراته . فالألفاظ التى استخدمها فى هذه الصور واحدة لاتتغير ، ولكن البناء اللغوى متنوع كل التنوع حتى أنه يهب شيئا من تنوعه لهذه الصور فيظنها رائيها متنوعة متغايرة .

كذلك أراد الشاعر أن يحطم حصار الرقابة المحكم حوله ، أو يخفف منه . فعمد فى بعض شعره إلى شىء من التلوين فى تصوير حبه . فاعتمد على السرد القصصى فى التعبير عن بعض وقائعه التى احتذى فيها نهج ابن أبى ربيعة(١). فكشف عن بعض المقدرة والبراعة والظرف ، نفتقدها فى أكثر قصائده الأخرى. وأدخل حوارا قصيرا فى بعض مقطوعاته وقصائده ، اتصل معظمها بما بدا فى شعره من شيب ونفور الحبيبة منه ، وأقلها بتبذيره المال أو صدود حبيبه عنه(٢):

وبيضاء العوارض قابلتها شبيهتها السمية من مشيبى
فظلت لا ترد الطرف عنها تلاحظها ملاحظة المريب

(١) ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨ .
(٢) ١٥ ، ١٤ ، ٧٣ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ .

وقالت لى: أشيت؟ فقلت: كلا ... ولكن هذه زبد الخطوب
وهجرك آكد الأسباب فيها ... فموجبها ذنوبك لا ذنوبى
فقالت لى: هجوتك لا لعيب ... فكيف على الكثير من العيوب

والحق أن غزل ظافر فيه عذوبة ألفاظه وحلاوة أنغامه، ولمسات من ريشته الصناع، وصوره الانطباعية. ولكنه – بعد ذلك – لا يبلغ فى مجال التصوير ما بلغه وصف الطبيعة، ولا فى الدلالة على شخصه ومجتمعه ما بلغه مدحه. فقد غلب عليه التقليد أكثر من الإبداع، واللفظية أكثر من الانفعالية، والاحتذاء أكثر من الصدق، فتخلف وراء هذين الفنين كثيراً.

٢– المعانى والصور

ليس من المستطاع أن يتحدث الدارس عن واحد من الموضوعات التى خاض فيها أحد الشعراء دون أن يتعرض للأفكار التى اعتمد عليها فى هذا الموضوع، والمعانى التى أوردها. فإذا ما أراد أن يتعرض لهذا الجانب من الصناعة الشعرية – وذلك أمر محتم – جاء كثير من قوله معاداً.

وخشية من ذلك، أعتمد فى حديثى هنا على الإيجاز ما استطعت، وإبراز المعالم الكبيرة التى قد تفرق بين ظافر وغيره من الشعراء، وأعنى خاصة بالاتجاهات الذهنية التى غلبت عليه عندما أراد لأفكاره تدوينا.

فقد تحدثت كثيرا فيما مضى عن المصادر التى استقى ظافر منها أفكاره ومعانيه وصوره، وتبين لنا أنه استقى بعضها من الواقع الجارى أمامه، والمجتمع الذى عاش فيه مثال ذلك اعتماده فى المدح على أن مصر يكاد يكون قطرا غير ممطر، وتوليده الصور من هذه الظاهرة المناخية. قال للآمر(١):

أغنت هباتك قطر مصر عن الحيا ... جودا، وأغنى نيلها عن نيله

ومثاله مجموعة الأفكار الشعبية التى كان يتداولها المصريون عن بعض آثار الإسكندرية وأقام عليها ما رأينا من صور.

(١) ٢١٢.

واستقى بعضها من مصادر ثقافته التى استطعنا أن نلم ببعضها ، و نتعرف على مجاله وحدوده . ولكن بعضها الآخر لاسبيل إلى الاهتداء اليقينى إليه ، لأنه دخل فى نسيج شعره ، حتى صار قطعة لايمكن تمييزها عنه ، ولاسبيل إلى التعرف إلى أصله تبعا لذلك . ومن أمثلة هذا النوع وصفه المشهور للهرمين الأكبر والأوسط (١) :

كعماريتين على رحبل بمحبوبين بينهما رقيب

فقد سبقه إليه المقدسى حين قال فى أحسن التقاسيم (٢) : « الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا ، من حجارة ، شبه عماريتين . . » . فهل اطلع ظافر على كتاب المقدسى أم أخذ كلاهما التشبيه عن مصدر آخر ؟ وهل المصدر الآخر قول مدون فى كتاب أو قول شائع بين الألسنة — كان — فى مصر ؟ .

واستقى كثيرا من أفكاره من التراث الشعرى القديم . وقد تبين لنا أنه كان على صلة واسعة به ، تركت آثارا متنوعة فى شعره . أقربها وأوضحها أسماء الشعراء الذين ذكرهم فى شعره ، مثل امرىء القيس وابن هانى والعجاج والشماخ وابن دريد . وقريب منها فى الوضوح الأبيات التى أخذها من غيره تضمينا ، وأشار إليها صراحة فى التمهيد لها ، كما فعل فى بيت المتنبى التالى ، قال (٣) :

كقول أخى ممارسة وفهم يروقك فى مقالته الصواب :
« وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانيه العذاب »

واعتمد فى أفكاره على أبيات معينة من شاعر واحد ، فاحتذاها أو بنى عليها ، كما نستبين معالم بيت المتنبى المشهور وراء قوله يصف شعره (٤) :

فقد سمعتها الصم من كل أخرس وأبصرها فى حندس الظلم الخلد

وبنى على بيت نصيب المشهور قوله فى مدح الأفضل (٥) :

ولو سكتوا قامت معاليك شاعرا فصيحا له بين الأنام نشيد

---

(١) ٤ . (٢) ٢١٠ .
(٣) ٤٢ . (٤) ٨٣ .
(٥) ٧٧ .

واعتمد فى كثير من معانيه على الشائع فى التراث العربى عامة ، كما تبين لنا فى مدحه وغزله خاصة . وأضيف إلى ذلك أسماء الأماكن الغرامية التقليدية التى أكثر من ذكرها ، مثل قوله (١) :

فألقى لدى علجات العذيب سبيلا أو الأربع الأرتع
لرامة والرمـل من عالج وزمزم والسفح من لعلع
معاهد عهد الهوى بينهن لدى مستقر ومستودع

بل بلغ به الأمر أن احتذى اتجاها فنيا معروفا ، هو اتجاه عمر بن أبى ربيعة ، فى بعض قصائده .

وقد وصفت صلته بالتراث القديم بالاتساع ، ولكن ذلك مع الشعراء المشهورين ، فإذا بعد عنهم تعرض للخطأ . فقد ضرب المثل بغزل العجاج والشماخ فى قوله (٢) :

فلأنظمن بحبهن قصائدا تزرى على العجاج والشماخ

والرجلان بريئان أويكادان من الغزل المثالى ، فأحدهما راجز ، والثانى شهر بوصف الحمار .

ولم يكن الرجل يقف عند ما جمعه من معان وصور معجبا ، ويضعها فى شعره راضيا بل كان يخضعها لصنعة قاسية . فكان يشذ بها فيقص من أطرافها ، ويلتقط منها أشياء ويطرح أخرى ، ويتخذها مرة قاعدة لبناء آخر ، وأخرى ملهما لصورة مقاربة ، وثالثة أصلا لصورة فرعية ، ورابعة جسما يفتن فى الرداء اللفظى الذى يكسوه إياه .

فإذا ما تم له الجمع والتوليد للمعانى والصور وعزم على التنسيق بينها ووضعها فى إطارها ، تناهبته اتجاهاته الذهنية التى تخضع هذه المواد لعملية أخرى تغير كثيرا من معالمها وتضع طابع ظافرعليها . وأبرز ما نستبين فى شعر ظافر عامة ، وفى وصفه خاصة التشبيه . فظافر يكاد لا يعطى معنى من معانيه غير مقرون بصورة مماثلة له ، أو ذائب فى أخرى

(١) ١٥٨ .
(٢) ٦٣ .

المجد بها بل كثيرا ما لا يكتفى بالصورة الواحدة ويعطى صورا متعددة بعضها وراء بعض ، ويقول (١) :

وحمرة الشمس فى الغدير وقد مرت عليه ريح الصبا تعبق
كأنه صدر فضة قصرت حافته وهو مذهب محرق
كليرهم حط فوق سندسة أدق فيه النقاش ما زوق
كأنه والنبات يحصره عين بها هدب جفنها محدق
كالبدر فى زرقة السماء وقد حفته فيها النجوم بالمشرق
صفا كودى وعبرتى ، وحكى قلبى بتمويجه كما يخفق

وكثيرا ما يحاول أن يجعل الصور يكمل بعضها بعضا لتعطى إيحاء واحدا ، هو الذى يريده ، مثل قوله فى وصف الحجرة الصغيرة التى بات فيها مع جماعة كبيرة ، فضاقت بهم وضاقوا بها (٢) :

وحجرة من عدد القبور بت بها للقدر الضرورى
فى ليلة مسرفة الحرور كأرؤس الخرفان فى التنور
مطبق مطين مسجور بعوضها يكسر كالنسور
أو كالبزاة الشهب والصقور تفعل فى الأوجه والظهور
فعل رماح الخط فى النحور أصواتها فى الحالك الديجور
تشبه ما صاح من الناعور فلم نزل فى الويل والثبور

وأحيانا يبعد بصورته فى الوهم حتى يشخصها ، فيجعل من وسوسة الغصون مناجاة أحبة ، ومن الفحم على الجمر غدائر شعر أسود على وجنات حمر ، ومن الكانون رجلا يمر بمراحل العمر ، ويلقى الحب والجفاء (٣) :

لقد جمع الكانون نورا وظلمة وجالسنا فى هيئة الرجل الحكل
ودبت سلاف النار فى قار فحمه كما دب نور الشمس فى طرف الظل

(١) ١٨٢ .
(٢) ١٠٢ .
(٣) ١٩٤ .

وكنا نفديه وفيه شبيبة   ونختصه بالقرب منا وبالوصل

إلى أن علا شيب الرماد قذاله   وأصبح شيخا فى المزاج وفى الشكل

هجرناه هجر الغانيات ضرورة   فصار لدينا لا يمر ولا يحلى

وصور ظافر انطباعية ، راعى فيها وقعها فى نفسه ، والشعور الذى أثارته ، أكثر مما راعى أى شىء آخر ، سواء كان هذا الوقع لشكلها أو لونها أو صوتها أو رائحتها . ولذلك كانت هذه الصور أقرب إلى التجريد من التسجيل ، وإلى الإيحاء بما تريد من إعطائه .

والظاهرة الأخرى التى نستبينها فى وضوح الطباق ، الذى أكثر منه الشاعر إكثاره من الجناس أو أشد . وقد فعل فيه الشاعر ما فعله فى الجناس ، إذ نثره فى شعره كله ، فجاء قليلا متباعدا يكاد يخفى عن العين ويلتقطه الذهن بعد لأى . ولكنه أكثر منه فى قصائد معينة ، فتجلى فى وضوح يصدم السمع والذهن فى الموضع بعد الموضع ، كما نرى فى قصيدته ٢٦٠ ، التى قال فيها :

كم قدر ما أخفى الهوى وأصون   والدمع يعرب ، والسقام يبين

وإذا الفتى عبث الغرام بقلبه   فالصبر شك ، والغرام يقين

سلمى لما صحبتك فى الوغى   فإذا التمستك بالسلو تخون

يارب لائمة شجاها أننى   سمح بمالى والزمان ضنين

قالت : فإن الفقر هون ، قلت : لم   يهن الكريم بل اللئيم يهون

وتتجلى فى شعره ظاهرة أخرى تكشف عن جانب من شخصيته ، تلك هي ميله إلى الفكاهة والسخرية ، وخاصة فى مداعباته لأصدقائه وذمه للدور والحمامات . فإنه اعتمد فى هذا الذم على الصور خفيفة الظل التى رسمها لها ، وتكشف عن روح حلوة ، وقدرة على الرسم الساخر ، مثل قوله (١) :

---

(١) ١٩١ .

وبيت دعيت له ثم لم ... أجد لى على الكون فيه فكاكا
فزاد بنا فيه فرط الزحا ... م والحر حتى اشتهينا الهلاكا
أمنا براغيثه أن تضر ... ر ولوحاولت،ا أطاقت حراكا
فلو دخلت بيننا ذرة ... تشقق حائطه عند ذاكا

ومن أجل هذا الجانب الفكه فى شخصيته وصفه نصر الفزارى (١) : « أنه كان من ظرفاء الشعراء وفصحاء الأدباء ».

وآخر ما تجب الإشارة إليه من التفاتاته الذهنية اتجاهه الإخبارى فى بعض معانيه ، إذ حاول أن يضعها فى صورة سرد قصصى ، واتجاهه الحوارى فى بعض غزلياته . وواضح كما استبان لنا آنفاً أنه تأثر فى هذين الاتجاهين بالغزل العمرى ..

٤ ــ اللغة

السلامة

أحب أن أفرق ــ فى الحديث عن لغة ظافر ــ بين جانبين فرق بينهما القدماء تفرقة واضحة وفاصلة ، أريد جانب السلامة ، وجانب الجمال . أما السلامة اللغوية فقد عابها من كتبوا عن الرجل ، وسلبوها عنه . إذ أورد العماد الأصفهانى ــ وهو أول من كتب عن ظافر ــ مأخذين على لغته ــ واستدل بهما على أنه كان لحنة ..

وتقبل من جاء بعد العماد دعواه قضية مسلمة ، بل حاول بعضهم تبريرها . قال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين (٢) : « نسى العماد أن الشاعر مصرى ، وقد ذكرنا فى كتاب أدب مصر الإسلامية صورا من اللحن الذى وقع فيه كتاب مصر وشعراؤها . وقلنا : إن المصريين لايراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم فى البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد .. » .

---

(١) الخريدة ٢ : ٣ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ١٩٢ ــ ٣ .

والآن – وديوان ظافر بين أيدينا– تستحق القضية منا وقفة أطول، نحاول أن نتبين حقيقتها وأبعادها ،ولو عند ظافر وحده . وأبدأ بالمأخذين اللذين التقطهما العماد وأمثالهما . قال (١) :

« فأجبتها ما عازنى نيل الغنى لكن مطالبة الحميد تعوز

فى هذا البيت لحن ، قال : عازنى ، والصحيح أعوزنى ، وتعوز ، وهذا يدل على أنه لحنة .

ما خاب من هضم التفضل ماله كرما ووافر عرضه محروز

وهذا أيضا صوابه محرز . » وواضح من هذا النقد أن العماد اتهم ظافراً باستعمال صيغ غير مستعملة فى اللغة . وقد اتبع فى (عاز) رأى أبى منصور الأزهرى ، غير أن الخليل قال فى العين: « إذا لم تجد الشىء قلت : عازنى » وتقبله ابن سيده ، ونقله عنه اللسان والتاج . وكذلك قال الفيروز أبادى فى قاموسه عن الكلمة الثانية : « حرزه : حفظه ، أو هو إبدال والأصل حرسه » . وتوقف اللسان فيها غير أنه روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم اجعلنا فى حرز حارز . وعقب عليه ابن الأثير قائلا : لعله لغة ، مما يعزز قول ظافر . فلا وجه للدعوى أن الصيغتين غير مستعملتين فى اللغة ، وإنما كل ما يمكن القول عنهما إنهما غير اللغة المشهورة فيهما .

وبرغم ذلك ، لا أستطيع أن أبرئ ظافرا من تهمة استعمال صيغ غير واردة فى المعاجم اللغوية ، مثل اعتجاب بمعنى عجب وزهو ، وتنعد مطاوع عد ، وصيغ خطأها اللغويون مثل انفهم التى أعلن الفيروزأبادى أنها لحن(٢) ، قال :

وكيف يكال البحر أم كيف توزن الـ
ـجبال، وهل تحصى الرمال وتنعد ؟

---

(١) الخريدة ٢ ، ١٤ .
(٢) ٨٣ : ٥٥ : ٣٥ : ٥٧ ، ٤٥ ٣٠ ، ٢٣٥ : ١٣ .

ولكنني لا أقفز إلى النتيجة الأولى بل أذهب إلى الثانية وهي استعمال صيغ غير مشهورة. فما زالت المعاجم عندنا لا تحوي كل ما استخدمه العرب الفصحاء من صيغ. أضف إلى ذلك أنه لا يعيب ظافرا كثيرا أن يستخدم صيغا لم تستخدم قبله إذا جرت على القواعد العربية السليمة، وخاصة أنه لم يعش في عصر الاستشهاد اللغوي. ولعلنا نلاحظ في صيغتي تنعّـ وتنفهم صيغة المطاوعة الشائعة في مصر الآن.

كذلك اضطرب ظافر في التأنيث والتذكير، حتى في الكلمة الواحدة أحيانا. فقد أتى بكلمة (الحمام) مذكرة أحيانا ومؤنثة أخرى (١)، والمعروف فيها التذكير؛ قيل في التاج: «تذكره العرب.. قال شيخنا: نقل الشهاب عن ابن الخباز أن الحمام مؤنث وغلطوه وقالوا: التأنيث غير مسموع، قلت: وذكر ابن بري تأنيثه في بيت زعم الجوهري أنه يصف حماما، وهو قوله:

فإذا دخلت سمعت فيها رجة ... لغط المعاول في بيوت هداد»

واستخدم (الكف) مذكرة على خلاف المعروف، في قوله (٢):

أين ماء النيل من كفك إذ ... أخجل البحر وودق السحب؟

قيل في التاج: «قال شيخنا: هو مؤنثة وتذكيرها غلط غير معروف وإن جوزه بعض تأولا. وقال بعض: هي لغة قليلة. فالصواب أنه لا يعرف، وما ورد حملوه على التأويل». فالكلمتان إذن - على أعدل الآراء - استعملتا استعمالا غير مشهور، أو يحتاج إلى تأويل.

واعتمد أيضا على ما سماه اللغويون التذكير والتأنيث على المعنى، فأنث الملك لأنه عنى به الوزارة أو السلطة، وقال (٣):

ما حويتم ملككم ظلما، ولا ... دفعت منكم لمن لم يجب

(١) ٩٦، ٩٧، ١٧٦، ٢٢٣ - ٤، ٢٢٩ - ٣٠، ٢٤٤.

(٢) ٣٤ : ٤٨.

(٣) ٣٤ : [illegible]

وأنث الفعل مع جمع المذكر السلم حملا له على جمع التكسير ، في قوله (١) :

يا عروة فازت المستمسكون بها أنت الشفيع ، وأنت المرشد الهادى

ولا يجيزه النحويون . قال الأشمونى (٢) : « حق كل جمع أن يجوز فيه الوجهان (التذكير على تأويله بالجمع والتأنيث على تأويله بالجماعة) إلا أن سلامة نظم الواحد فى جمع التصحيح أوجبت التذكير فى نحو قام الزيدون ، والتأنيث فى نحو قامت الهندات . وخالف الكوفيون فجوزوا فيهما الوجهين ، ووافقهم فى الثانى أبو على الفارسى ، واحتجوا بقوله : « آمنت به بنو إسرائيل » .

وشذ فى بعض القواعد النحوية المشهورة . فكثيرا ما عدل عن نصب المنقوص بالفتحة الظاهرة ، مثل قوله (٣) :

وبادرة للشيب بادرت قصها لأرفع بادى خيطها وهو ينزل

ولكننى لا أستطيع أن أصمه بالخطأ فى ذلك فهى لغة أو ضرورة حسنة أو (سنة شيعية) . قال الأشمونى (٤) : « من العرب من يسكن الياء فى النصب أيضا ، قال الشاعر :

ولو أن واش باليمامة داره وداري بأعلى حضر موت اهتدى ليا

قال أبو العباس المبرد وهو من أحسن ضرورات الشعر ، لأنه حمل حالة النصب على حالتي الرفع والجر » . وعلق الصبان عليه بقوله : « الأصح جوازه فى السعة بدليل قراءة جعفر الصادق « من أوسط ما تطعمون أهاليكم » بسكون الياء » .

ولم ينصب الفعل المعتل الآخر الواقع بعد (أن) المصدرية بفتحة ظاهرة كما تقتضى اللغة المشهورة ، مثل قوله (٥) :

رفقا بجسمك لا يذوب فإننى أخشى بأن يجفو عليه لإذه

---

(١) ٧٩ : ١٣ . (٢) ٢ : ٥٤ .
(٣) ١٩٩ : ١ ، ٢٣٥ : ١٣ ، ٢٤٥ : ٩ .
(٤) ١ : ١٠٠ .
(٥) ٩٠ : ٩ ، ٣٤ : ٤٥ ، ٢٣٥ : ٣٨ .

ولكن ذلك ليس خطأ مطلقا ، قال الأشمونى (١) : « بعض العرب أهمل (أن) حملا على (ما) أختها . . كقراءة ابن محيصن (لمن أراد أن يتم الرضاعة) . . . هذا مذهب البصريين ، وأما الكوفيون فهى عندهم مخففة من الثقيلة » .

ولم يجزم جواب الشرط المضارع ، فقال (٢) :

وإن كان ذا زهد يقولون : أبله   وليس له حزم ، وما فيه طائل

ولكن تلك لغة معروفة فصيحة ، عبر عنها ابن مالك بقوله : « وبعد ماض رفعك الجزا حسن » وشرحه الأشمونى بقوله (٣) : « رفعه عند سيبويه على تقدير تقديمه ، وكون الجواب محذوفا . وذهب الكوفيون والمبرد إلى أنه على تقدير الفاء . وذهب قوم إلى أنه ليس على التقديم والتأخير ولا على حذف الفاء ، بل لما لم يظهر لأداة الشرط تأثير فى فعل الشرط لكونه ماضيا ضعفت عن العمل فى الجواب » .

واتبع فى الشرط أيضا قاعدة اختلف فيها ، إذ أتى بفعل الشرط مضارعا وجوابه ماضيا فى مثل قوله (٤) :

وإن يقنع المسكين قالوا : لعلة   وذلة نفس قد حوتها الرذائل

وقد قال الأشمونى عن مثل هذا الاستعمال (٥) : « قليل ، وخصه الجمهور بالضرورة ، ومذهب الفراء والمصنف جوازه فى الاختيار ، وهو الصحيح لما رواه البخارى من قوله عليه الصلاة والسلام : من يقم ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ؛ وقوله :

من يكدنى بسيىء كنت منه   كالشجا بين حلقه والوريد

. . . وأورد له الناظم فى توضيحه عشرة شواهد شعرية » . وأظن أن هذا العدد من الشواهد كاف لإبطال أى نزاع .

---

(١) ٣ : ٢٨٦ .
(٢) ٣١٠ : ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ .
(٣) ٤ : ٢١٧ .
(٤) ٣١٠ : ١٧ ، ١٨ .
(٥) ٤ : ١٦ .

وألحق نون الوقاية باسم الفاعل فقال (١) :

يا مسقنى غصص الغرام بصده لما تأهب للمسير وودعا

ولكن ذلك ليس خطأ وإنما هو شاذ . قال الأشمونى (٢) : « وقعت نون الوقاية (شذوذا) قبل ياء النفس مع الاسم المعرب فى قوله صلى الله عليه وسلم لليهود : فهل أنتم صادقونى ، وقول الشاعر :

وليس يعيينى وفى الناس ممتع صديق إذا أعيا على صديق

. . . للتنبيه على أصل متروك ، وذلك لأن الأصل أن تصحب نون الوقاية الأسماء المعربة المضافة إلى ياء المتكلم لتقيها خفاء الإعراب . فلما منعوها ذلك نبهوا عليه فى بعض الأسماء المعربة المشابهة للفعل » .

وأتى أحيانا بما يجب أن يكون حالا مرفوعا ، مثل قوله (٣) :

حلا فهو مثل الشهد فى فم ذائق يلذ وفى أثنائه السم ناقع

الذى احتذى فيه قول النابغة الذبيانى ، الذى أنكره عليه ابن أبى إسحاق(٤) :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

ووجهه سيبويه(٥) على إلغاء الجار والمجرور ، وجعل (ناقع) خبرا للسم ، وإعراب الجملة حالا .

وخفف ألفاظا مشددة ، لا عن خطأ بل ضرورة من أجل إقامة الشعر ، وهى من الضرورات المقبولة(٦) . قال(٧) :

وسيول تفيض بالحار والبا رد لكنها بغير غيوم

---

(١) ١٦٠ : ٤ .
(٢) ١ : ١٢٦ .
(٣) ١٥٥ : ٣٠ ، ٧٦ ، ٧ ، ٢٧٥ : ٣ .
(٤) ديوان النابغة الذبيانى ٤٦ . ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٥ .
(٥) الكتاب ١ : ٢٦١ .
(٦) مصطفى الصاوى : الورد الصافى ٥١ .
(٧) ٢٢٩ : ٦ .

فخفف راء الحار لإقامة الوزن . وقال (١) :

وبث على البحر الأساطيل جحفلا بأكثر من نينانه ودوابه

فخفف باء دوابه لإرداف القافية ، شأن القصيدة كلها . .

ونستبين من المسائل الماضية أن ظافرا لم يقع فى خطأ نحوى بين ، ومجمع عليه ، بحيث يتعذر تخريجه . ولكنه اتبع لغات غير مشهورة ، وآراء كوفية وأقوالا مؤولة فى كل ما جاء به ، وضرورة عروضية . فلسنا نستطيع أن نتهمه باللحن الصراح ، ولكن يجب أن نقول إنه لم يتبع القواعد التى اصطلح عليها النحاة ، وجعلوا منها اللغة التى أوجبوا على المتأخرين السير عليها .

وإذا صح لنا أن نؤول المواضع الماضية أو نجد لها وجها من العربية مشهورا أو غير مشهور ، فإنه يتبقّى أمامنا بعض المسائل التى لم أجد لها وجها : فقد تباين استعمال (لا سيما) عنده تباينا كبيرا ، إذ أتى بها على اللغة المشهورة فيها (لاسيّما) بتشديد الياء ، وعلى لغة غير مشهورة بتخفيف الياء ، ثم حذف (لا) منها كما يستعملها بعض المحدثين . قال(٢) :

فى زمان الأفضل المحيي الورى سيما فيه فنون الأدب

ولكن النحويين لم يذكروا هذا الاستعمال . قال الأشمونى : « تشديد يائه ودخول (لا) عليه ، ودخول الواو على (لا) واجب . قال ثعلب : من استعمله على خلاف ما جاء فى قوله : « ولا سيما يوم بدارة جلجل » فهو مخطىء . وذكر غيره أنه قد يخفف وقد تحذف الواو .. »

ونخرج من هذه الجولة بأن ظافرا وقع فى خطأ أجمع النحاة على منعه فى بعض استعمالات (لا سيما) ، وإن كانت هذه الاستعمالات — فيما يبدو

---

(١) ٣٥ : ٤٨ .

(٢) ٣٤ : ٣٦ .

– شاركه فيها معاصروه ، ثم بقيت إلى يومنا هذا يستعملها الناس ، ويمنعها النحاة . وأتى بصيغ غير واردة فى المعاجم ، منها ما انفرد به مثل اعتجاب أو لم يتابعه الناس عليها ، و منها ما شاركه فيها غيره فأمدوها بأسباب الحياة مثل صيغ انفعل . ثم أتى بصيغ ، واتبع قواعد ، غير التى رضى عنها البصريون أو المتشددون ، وإن وجد غيرهم لها سندا فى القراءات والأحاديث والشعر ، أو وجدوا لها وجها من التخريج أو من التأويل . فالحكم بأن الرجل كان لحنة ، استنتاجا من كونه حدادا فى نشأته ، أو اعتمادا على أن المصريين عامة لم يراعوا المبادئ النحوية ، حكم فيه تعميم يظلمه ويظلم المصريين . وإنما يجب أن نعيد النظر فى تصور « السلامة اللغوية » ، فى العصور المختلفة .

الجمـــال

تختلف نظرة القدماء إلى الجانب الجمالى فى لغة ظافر اختلافا كبيرا عن نظرتهم إلى جانب السلامة . فبينا قدحوا فى سلامتها أشادوا بجمالها . وإذا كانوا قد اشتطوا بعض الشطط فى نظرتهم الأولى ، فإنهم أنصفوا كل الإنصاف فى نظرتهم الثانية . فالواضح أن الشاعر كان يختار ألفاظه اختيارا دقيقا ، ويخضع الألفاظ التى ينتقيها لاختبار صارم ، لا تصبر عليه إلا الألفاظ السهلة العذبة التى تسيل رقة وحلاوة. قد يفتقد القارىء فى بعض شعره الأصالة فى أفكاره ، والجدة فى صوره ، والحدة فى مشاعره ، ولكنه لا يفتقد الألفاظ المختارة أبدا ، تلك الألفاظ التى تغطى عذوبتها كثيرا على ما يفتقر إليه شعره ، وتسمو به عن المكانة التى قد يضعه إليها التقليد . ولذلك قال العمرى عنه(1) : « تدفق عذب الموارد ، وتحقق أنه لم يضرب فى حديد بارد » .

(1) مسالك الأبصار ٩ / ١ / ١٥٣ .

وقد ترك ظافر فى بعض شعره — وخاصة ما احتذى فيه القدماء احتذاء تاما — السهولة ، وترك فى بعض مدائحه الرقة ، واستعاض عنها بالجزالة . ولكنه فى الحالين أو فى أحواله كلها لم يتخل عن العذوبة . ولذلك قال العماد عنه (١) : « حداد لو أنصف لسمى جوهريا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلىء حريا » .

وعندما فرغ ظافر من انتقاء ألفاظه أكب على تركيبها فى عبارة ، وفر لها الشروط التى طلبها فى الألفاظ من سهولة ورقة وعذوبة ، وأضاف إليها الموسيقية المكتملة . حقا كانت ألفاظه ذات جرس رقيق ، ولكن الصوت المفرد غير الصوت المركب لأن الموسيقى تنسيق بين الأصوات المفردة فى لحن شامل منغوم ومعبر . وكذا فعل ظافر ، التقط المفردات السهلة الرقيقة العذبة ، وجاهد فى التنسيق بينها فى عبارة تعطى لحنا رقيقا عذبا لا تخطىء أذن أنغامه . وقد أدى ذلك إلى أمر غريب ، أن القصائد والمقطوعات التى اختارها القدماء من شعره كان الجانب الموسيقى أبرز فيها من الأصالة والقدرة التعبيرية والوفرة الانفعالية . فقد كانوا مع العماد فى تصوره لظافر « يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر . . . أهدى بروى شعره الروى للقلوب الصادية ريا ، فيا له ناظما فصيحا مفلقا جريا » .

ويجد كل دارس لموسيقى شاعر ما قدرا وافرا من الموسيقى فى شعره ، تحس به أذنه ، ويلذ لقلبه ، ولكنه لا يستطيع أن يمسك به أو يتعرف عناصره فيشرحه بمشرطه . ذلك القدر يأتى — فى اعتقادى — من طريقة تركيب الألفاظ فى عبارات لها ذلك الجرس المحسوس ، والوقع العذب . فهو اللحن الأساسى الذى اهتدى إليه الشاعر بالتنسيق بين أصوات مفرداته اللغوية .

ولكن الدارس يجد أيضا (زخارف) و (زوائد) إلى جانب اللحن ، تدعمه وتمده بنغمات مفردة ، وتحليه هنا وهناك . هذه الزخارف — بخلاف

(١) الخريدة ٢ : ٣ .

اللحن الرئيسي – يمكن وضع اليد عليها وفحصها ووصفها . ونبدأ منها بما اتصل بالألفاظ المفردة ، وهو الجناس . فالأديب يلجأ إليه ليقرن بين لفظين لهما رنين واحد أو متقارب لزيادة حدة الصوت .. والجناس التام ذو الرنين الواحد نادر عنده ، نكاد لا نجد منه شيئا ، مثل قوله (١) :

عجبا لأهلك كيف أهلك بينهم وأموت لم يشعر بقتلى شاعر

ألفه من اسم وفعل . وأتى منه بما لم يختلف الصوت فيه إلا بحركة وسكون ، مثل قوله(٢) :

حتى تأملت حيا عز ساكنه تحفه أسد غاب من بنى أسد

أما الجناس الناقص فكثير ، أتى منه باللفظين لا يختلفان إلا فى حرف واحد(٣) :

له قلم يستخدم السيف والقنا وتغنى وتفنى قطرة من لعابه

وباللفظين يزيد أحدهما على الآخر حرفا ، مثل (٤) :

إن الهوى لهو الهوان وإنما اختصروه تخفيفا فزال النون

للسيف والقلم النحيف بكفه فعل يكون به منى ومنون

ولكننا يجب أن نحترس فنقول إن الجناس لم يكن كثيرا عنده ، بل نثره فى شعره ، فجاءت منه أشياء هنا وهناك ، غير أنه اعتمد عليه اعتمادا تاما فى الموشحين وأقامهما عليه ، مثل قوله (٥) :

ثغر لاح يستأسر الأرواح لما فاح ما الخمر؟ ما التفاح

أجـــانى ذا التائه الجانى
أنســـانى نظرة إنسانى
أفنـــانى؟ طير بأفنـــانى
أحيـــانى ى بعض أحيانى

(١) ٢٧٠ : ٢ .
(٢) ٧٦ : ٢٠ .
(٣) ٣٥ : ٥٢ .
(٤) ٢٦٠ : ٣٣،٧ .
(٥) ٢٦٨ .

وأكثر منه في النثر ، وخاصة مقامته ، مثل قوله (١) : « وقد كل جناني وبناني ، ولساني وإنساني . . . فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، وشفيق شفيق .. فكانوا كسهام النبع ، إذا سددها النزع . . . » ..

وفي بعض القوافي ذات الردف ، مهد لها بألفاظ ممدودة ، ليتجانس مدها مع مد القافية ، نرى ذلك بوضوح مثلا في القصيدة ٤٥ ، التي قال فيها :

فمشر الأربعين إذا بدا لي ... تأهبت الشبيبة للذهاب
فقد نال المحامد والمعالي ... بجد واجتهاد واكتساب
له بالسيف والقلم افتخار ... تعاظم في الكتيبة والكتاب

فأكثر من الألفاظ الممدودة بالألف والياء قبل القافية ، كما أكثر من الألفاظ الممدودة بالألف والياء والواو في القصيدة ٢٦٠ مثلا :

كم قدر ما أخفي الهوى وأصون ... والدمع يعرب والسقام يبين
هي مصرع الألباب تخدع ذا النهى ... فيروح وهو رهينها المفتون
نظر الإمام له بعين حقيقة ... لم ترمها بين الشكوك ظنون

وحاول أن يبني بعض عباراته بناء واحدا ، بحيث تعطي رنينا واحدا متكررا فترة زمنية فالتزم الجار والمجرور في قوله(٢) :

يا ساحل الثغر ، كم لي فيك من أرب ... ومن سرور ، ومن عهد ، ومن طرب؟

وفي قوله (٣) :

تريك ليلا على صبح ، على غصن ... على كثيب ، كموج البحر مطرد

أو إيراد لفظة مفردة بعد أخرى في مثل قوله (٤) :

ودار وإخوان وأهل وجيرة ... وأمن وأمر نافذ وشباب

---

(١) ٢٨٦ .
(٢) ٢٨ : ١ .
(٣) ٧٦ : ٨ .
(٤) ٣١ : ٥ .

أو مفعولين متجاورين يختم العبارة بهما فى مثل قوله (١) :

من كل من جعل النقا كفلاله ... والغصن قدا ، والملاحة برقعا

أو مفعولين أولهما ضمير فى مثل قوله (٢) :

وما طائر قص الزمان جناحه ... وأعدمه وكرا ، وأفقده إلفا

أومبتدأ وخبر فى مثل قوله (٣) :

حيث النسيم عليل ، والكثيب ند ... والروض حال ، وعقد الطل منتظم

وارتفع بهذا العمل حتى قطع البيت إلى عبارات داخلية قصيرة ، عالية الرنين ، تعطى إيقاعا سريعا دافقا . نرى ذلك بسيطا فى مثل قوله (٤) :

تبيت من أجلها العنقاء خائفة ... والعصم فى النيق ، والآساد فى الأجم

والفتخ فى الجو ، والنينان فى لجج ... والشهب فى أفقها ، والجن فى الظلم

ويصل إلى أعلى رنين له فى مثل قوله (٥)

يعطى إذا بخلوا ، يدرى اذا جهلوا ... يأوى إذا رفضوا ، يبنى إذا هدموا

وقوله (٦) :

كالبدر لما أن بدا ، كالظبى لما ... أن رنا ، كالغصن لما أن سعى

ويقابل هذا التقطيع الداخلى للأبيات ما نلاحظه فى نثره من التزام للفواصل القصيرة المسجوعة ، التى تعطى أعلى قدر من الرنين ، وأحلاه من الإيقاع ، مثل قوله (٧) : « فلما كشف ما حجب ، وقرئ ما كتب ، وفهم القوم القريض ، وما فيه من التصريح والتعريض ، استفزهم الضحك والطرب ، واستهزهم العجب والعجب ، واستعادوا السطل ، واستجادوا الأكل » . وأضاف إليه السجع الملتزم فى العبارتين المتتاليتين

---

(١) ١٥١ : ٤ .
(٢) ١٧٢ : ٤ .
(٣) ٢٣٥ : ١١ .
(٤) ٢٣٢ : ٣٦ - ٧ .
(٥) ٢٣٥ ، ٢٤ .
(٦) ١٥١ : ٦ .
(٧) ٢٨٦ .

كثيرا ، وفى العبارات المتعددة قليلا ، والتقليب الاشتقاقى للألفاظ ، مثل قوله : « فأى منة قلد ، وأى سرور جدد ، وأى لوعة برد ، وأى شوق أخمد ، وأى نعمة أورد ... والنفس لا تتنفس ، والروح لاترتاح ، والقلب يقلب ، والكبد تكابد ، والعينان عينان .. »

ويدل هذا على مقدار الجهد الذى بذله ظافر جريا وراء التنغيم الذى أراد أن يوفره لأدبه : شعره ونثره ، حتى أصدره عذبا رائقا ، لا تشوبه شائبة .

وإذا التفتنا إلى الإطار العام الذى وضع فيه هذه الأنغام ، لاحظنا أنه احتفظ بالأوزان الطويلة التقليدية . فأكثر البحور استعمالا عنده الطويل والبسيط والكامل . ولكننا نلاحظ أيضا أنه أكثر من مجزوء الكامل ، وأكثر من الأوزان المتوسطة الطول مثل السريع والمنسرح والمتقارب ، التى تكاد تنافس الكامل فى الكثرة . وكأنما أعطى ظافر كلا من الأوزان الطويلة والمتوسطة حظها المتقارب . فبعد به ذلك عن التقليدية وعن الخفة التى تغلب على بعض المحدثين .

خاتمة

موقف الناس منه

طال بنا السير مع ظافر بن قاسم الحداد الإسكندرى نسأله عن موقفه من كل شيء وقعت عليه عيناه ، وقد آن للرجل أن يصمت ، وأن نسأل غيره عن موقفه منه .

ويتجلى لنا حين نتتبع أقوال النقاد والمؤرخين للأدب أنه خلف انطباعا طيبا فيمن اتصلوا به ، مخالطين له أو مطالعين لشعره . فقد لقى من الثناء عليه ما بقى حيا أبدا .

وبدأ بهذا الثناء الجميل الذى اتصل بالرجل حيا ، وأخذ شعره من فمه طريا . فقد التقى العماد الأصفهانى فى سنة ٥٥٥ هـ بالشريف أحمد بن حيدرة الحسينى الزيدى ، فروى له بعض ما أنشده ظافر لنفسه ثم قال عنه(١) : « وهو . . غريب النظم والنثر » . ولابد أنه أراد بالغرابة هنا الجودة لأن شعر ظافر الذى فى ديوانه خال من الغرابة المعروفة فى اللفظ والمعنى والصور ، وما بين أيدينا من نثره لا يعطينا مجالا لحكم صادق عليه . ولكننا إذا قسنا ما ضاع على ما بقى قلنا أن نثره خال من الغرابة أيضا . ولعل غموض هذا الحكم أبعده عن الدوران على ألسنة الناس .

والتقى العماد أيضا فى سنة ٥٦٠ هـ بأبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزارى ، فروى له بعض شعره وأثنى عليه قائلا (٢) : « كان من ظرفاء الشعراء وفصحاء الأدباء ، انتهت به الحال إلى أن صار من شعراء مصر . وله ديوان مشهور ، وبالجودة له مشهود » .

(١) الخريدة ٢ : ١ .   (٢) الخريدة ٢ : ٣ .

ويضع هذا القول أيدينا على عبارتين هامتين : أولاهما التى تذكر أن له ديوانا مشهورا ، والثانية التى تحكم على شعره بالجودة . فإننا نجدهما نصا أو معنى عند كل من تحدث عن ظافر بعد ذلك . ويضع بين أيدينا أيضا حكما قد يدل على أخلاق الرجل أكثر من دلالته على أدبه ، ذلك هو الحكم بكونه من ظرفاء الشعراء . ولذلك لم يرد عند غير العماد .

واجتمع العماد فى سنة ٥٧٠ ﻫ فى دمشق بأفاضل دولة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، كالقاضى الفاضل ونجم الدين بن مصال ، فرآهم يثنون عليه(١) . فعمم القول ولم يحدد جانبا خاصا للثناء .

واتصل الحافظ السلفى المتوفى فى ٥٧٦ ﻫ بظافر ، واتصل بينهما اللقاء والمكاتبة فى الإسكندرية والقاهرة ، وبعث ظافر بعض مقطعاته وقصائده للرجل مكتوبة بخطه ، ودون هو نفسه بعضها عنه ، ولذلك جعله فى معجمه أحد من روى عنهم . وحكم عليه بأنه (٢) « كان من مفلقى شعراء ديار مصر » . وقول الحافظ أول حكم ارتفع بظافر من مستوى الجودة الذى منحه الفزارى إياه إلى مستوى الفحولة .

وقد يتوقف متوقف فى حكم السلفى ولا يتقبله لأنه حكم أدبى صادر عن عالم بالدين لا خبير بالأدب . ولكننا لا نلبث أن نجد مؤرخ الأدب فى هذه الفترة — أعنى العماد — يدعم هذا الحكم ويعززه ، فيقول فى تقديمه للرجل (٣) : « ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى ، والله له غافر . حداد ، لو أنصف لسمى جوهريا ، وكان باعتزائه الى نظم اللآلىء حريا ، أهدى بروى شعره الروى للقلوب الصادية ريا ، فياله ناظما فصيحا مفلقا جريا » .

---

(١) الخريدة ٢ : ٣ — ٤ .
(٢) معجمه ١ : ٩٩ .
(٣) الخريدة ٢ : ٣ .

فأكد حكم السلفى ، وأضاف اليه الفصاحة . وعلله بجمال اللفظ ، ورقة العبارة وسلاسها ، وعذوبة الموسيقى . فكشف عن جوانب الجمال التى أعجب بها من شعر الرجل . وقد لقى هذا القول الرضا من المتأخرين، فاقتصروا على إيراده أو المبالغة فيه ، حتى يصبح ظافر : « فصيحا فاضلا بليغا ، وشعره فى غاية الحسن » عند ابن تغرى بردى (١) .

والإضافة الوحيدة التى نجدها عند القدماء بعد ذلك هى ماقاله المقريزى فى المقفى(٢) : « شاعر مجيد ، مستعذب النظم ، موصوف بالفهم » . فلم يقتصر على الإشادة بألفاظ الرجل وعبارته كما فعل السابقون عليه ، بل أشاد بمعانيه التى تدل على « الفهم » ، وأراد بذلك الذكاء والخبرة والثقافة .

أما ما أورده العمرى فى مسالكه عنه فليس أكثر من معزوفة خاوية ، إذ قال(٣) : « تدفق عذب الموارد ، وتحقق أنه لم يضرب فى حديد بارد . تضرم فطنة مثل لهيب موقده ، وقلوب حسده . وأتى بما لايقدر عليه صناع ، ولا يتأتى عليه من قاسى الحديد امتناع . وابتسم به من الثغر بوارق سيوفه التى طبعها ، وسوارق أيامه التى نق طبعها » .

وانقضى زمن طويل ، وأتى عصر نعيش فيه ، ويرى أصحابه أنهم أقدر على الدراسة الأدبية ، وأدق منهجا ، وأنفذ بصرا ، وأحسن تسلحا بمعارف متنوعة ، تقوم آراءهم وتبعدها عن الخطأ والهوى . ودرس ظافر دارسون فنال من إعجابهم مانال من إعجاب السالفين أوأكثر . وأكتفى باثنين درساه دراسة خاصة ، أقدم منهما فى الحديث عبد العليم القبانى صاحب كتاب « مع الشعراء أصحاب الحرف » . وأقف عند أقوال ثلاثة له .

قال عن شعره (٤) : « شعر فيه ذكاء وصناعة ، وفيه تظرف أبناء البلد » . أما الشطر الأول فهو ماقاله المقريزى قبلا ، لايزيد عنه إلا هذه الإشارة إلى (الصناعة) التى لم يوضح ما أراد بها . فإذا كان قصد إلى الجناس والطباق فقد أصاب .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧٦ . (٢) ٢٠ .
(٣) مسالك الأبصار ٩ / ١ / ١٥٣ . (٤) ٢٠ .

وقال : «يتبع ظافر النهج الذى اتبعه شعراء هذه العصور ، فيمدح مثل ما مدحوا . . ونعود إلى قصيدته فى السيد القاضى — بعد ذلك — فنجد أن ظافرا لم يستطع الخروج عن المعانى المألوفة لدى شعراء عصره» .

فإذا كان قد أراد بهذا القول قصيدته فى القاضى ابن حديد وحدها ، فربما اتفقنا معه وأضفنا أن الرجل قد قالها فى شبابه ، فهى من شعره الأول الذى لايدل على كبير نضج . أما إذا كان قد أراد شعره كله ، ومدحه جميعه ، لم نتفق معه ، لأن قصيدة المدح اختلفت فى عصر ظافر عنها فى العصور السابقة ، ولأن قصيدة المدح عند ظافر ذات تصميم محكم ، وبناء خاص ، ومحتوى محدد ، واضح الإبانة عن ناظمه .

وأختم بقوله الذى حاول أن يضع فيه ظافرا بين زملائه من الشعراء ، فقال (١) : «بلغ به شعره إلى أن يكون على رأس شعراء الإسكندرية فى العصر الفاطمى» . فأتفق معه ، غير أننى أحب أن أحدد الفترة التى شغل فيها هذه المكانة بأواخر القرن الخامس وأوائل السادس ، وأقول إنه حكم مؤقت قد تكشف الذخائر المحبوسة عن دواوين أخرى تغير منه .

أما الكاتب الثانى فهو المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، الذى خرج من دراسة ماكان بين يديه من شعر ظافر بآراء جديرة بالوقوف طويلا عندها . قال (٢) : «كان على موهبة لنظم الشعر ، وأن شعره طبيعى لاتكلف فيه ، وأنه كان يرتجل الشعر ببديهته ... فمن هذه الأبيات وغيرها مما حفظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره سهل طبيعى ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة» .

ويتضمن هذا القول حكمين : أولهما أن ظافرا كان يرتجل الشعر ، وذلك حكم لاريب فيه . فقد دل الديوان والأخبار أنه ارتجل كثيرا من الشعر فى نزهاته ، وفى وصف الطرف والمشاهد التى رآها أو طلب إليه

---

(١) ٣٢ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ١٩١-٢ .

النظم فيها ، وخلط الوصف بالمدح . ولكن ظافرا له — بطبيعة الحال — شعر لم يرتجله ، فقد طالت بعض قصائده ، حتى زادت على خمسين بيتا .

والحكم الثانى خاص بالصناعة . وقد أبان الديوان فى جلاء أن ظافرا كان يكد فى صناعة شعره : مختارا لألفاظه وعباراته وجمله ، وجامعا لمعانيه وصوره ، ومولدا ومستلهما وموفرا لما ينظم الموسيقى العذبة . وأبان أنه شارك شعراء عصره فى الميل إلى الصنعة ، فوفر قدرا من الجناس والطباق لشعره . ولكنه استطاع أن يحذق صناعته فيخفى صنعته ، فلا تفطن إليها الأذهان إلا بعد أن يشيع فى النفوس وقعها اللذيذ . ومن هنا جاء الحكم بأن شعره طبيعى غير متكلف . فالحق أنه شعر تكلف له صاحبه جهدا مضاعفا حتى أخرجه (غير متكلف) . فهو أشبه بشعر البحترى ، الذى عد رأسا للمذهب الطبيعى فى الشعر فى مقابل مذهب الصنعة الذى رأسه أبو تمام ، على ما يزخر به شعر البحترى من جناس وطباق .

وقال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين (١) : « يعد عهد الأفضل بن بدر الجمالى من أزهى العصور الأدبية التى شاهدتها مصر الإسلامية » ثم قال (٢) : « على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة الشعراء ، وتفوقهم جميعا فى هذا الفن . . . وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب فى مصاف أكبر شعراء عصره » .

فإذا جمعنا بين هذه الأقوال ، خرجنا بأن النقاد يرون فى ظافر واحدا من أكبر شعراء عصره ، وأن الدكتور محمد كامل حسين يعده أعظم شاعر فى مصر الإسلامية . ولست أشك أن الدواوين القليلة التى وصلت إلينا من الأدب المصرى تؤدى إلى هذه النتيجة التى أعلنها ، أو — إن شئنا الاعتدال — النتيجة التى وصل إليها النقاد . فالفرق بينهما ضئيل بحيث لا يمكن أن ينقطع النزاع فيه .

---

(١) ١٧٩ .
(٢) ١٩٠ .

وإذن فهذا العامل الإسكندرى قد طرح عنه أدران حرفته ، واتخذ له « صناعة » أخرى ماكان أحد يظن أنه يفلح فيها . ولكنه ثابر على تزويد نفسه بكل ما تحتاج إليه هذه الصناعة الجديدة من أدوات. وحين استكمل أدواته ، جمع بين ثيابه روحا صافيا ، وذوقا مرهفا ، وشعورا دافقا ، وأذنا موسيقية ، وعقلا واعيا ، وبصرا نافذا ، وخيالا مجنحا . فاستطاع أن يمنحنا من الشعر أرقه لفظا ، وأعذبه عبارة ، وأحلاه نغمة ، وأكثره صورا . واستطاع أن يحلق فى أعلى الأجواء عندما نظم شعره فى الموضوع الذى هيىء له ،وتحرر فيه من القيود :وصف الطبيعة الإسكندرية خاصة، والمصرية عامة . وكان ابن عصره ، الممثل له أحسن التمثيل فى مدحه . فلا عجب أن سما به من سما إلى المكانة التى أهله لها شعره .

المـراجع

ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — المطبعة المنيرية بالقاهرة

أحمد النجار — الإنتاج الأدبى فى مدينة الإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى — القاهرة ١٣٨٣/١٩٦٤

الإدريسى — نزهة المشتاق — قسم صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس — ليدن ١٨٦٤

الأشمونى — شرحه على ألفية ابن مالك — دار إحياء الكتب العربية

البلوى يوسف بن محمد ألف با — المطبعة الوهبية ١٢٨٧ هـ

ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — دار الكتب المصرية ١٣٥٣/١٩٣٥

التهامى أبو الحسن — ديوانه — مطبعة الأهرام بالإسكندرية ١٨٩٣

ابن جبير — رحلته — دار مصر للطباعة

ابن الجوزى — المنتظم — طبع حيدر آباد

ابن حجة الحموى — خزانة الأدب — المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٤

ابن حجر — رفع الإصر عن قضاة مصر — المطبعة الأميرية ببولاق

ابن أبى حجلة — سكردان السلطان — المطبعة الميمنية بمصر

حسن إبراهيم حسن — تاريخ الدولة الفاطمية — مصر ١٩٥٨

ابن حوقل	صورة الأرض – ليدن ١٩٣٨
ابن خرداذبه	المسالك والممالك – ليدن ١٨٨٩
ابن خلكان	وفيات الأعيان – المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠
الدواداري أبو بكر ابن عبد الله	كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية) القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١
الذهبي	العبر فى خبر من غبر – الكويت ١٩٦٣
ابن رسته	الأعلاق النفيسة – ليدن ١٨٩٢
سبط ابن الجوزى	مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان – حيدر آباد ١٣٧٠/١٩٥١
السلفى	معجمه – مصور بدار الكتب المصرية
سيبويه	الكتاب – طبع بولاق
السيوطى	حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة – مطبعة إدارة الوطن بمصر ١٢٩٩
	رصف اللآل فى وصف الهلال – الجوائب – قسطنطينية ١٣٠٢
	الشهاب الثاقب فى ذم الخليل والصاحب – مطبعة الترقى بدمشق ١٣٦٨
الشابشتى	الديارات – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٥١
الشيال	الإسكندرية – دار المعارف بمصر
	مجموعة الوثائق الفاطمية – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨
أبو صالح الأرمنى	تاريخه – طبع أوربا
أبو الصلت الأندلسى	الرسالة المصرية – نوادر المخطوطات – لجنة التأليف والترجمة والنشر

العاملي محمد بن حسن المخلاة ــ المطبعة الميمنية بمصر

ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ــ ليدن ١٩٢٠

عبد الرحمن الشافعي قطر الغيث المسجم (على هامش نفحات الأزهار للنابلسي)

عبد العليم القباني مع الشعراء أصحاب الحرف ــ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بمصر ١٩٦٧

عبد اللطيف البغدادي الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ــ مطبعة وادي النيل ١٢٨٦

عبدالله خورشيد البري القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ــ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧

أبو عبيد القاسم بن سلام الأمثال ــ الجوائب ــ قسطنطينية ١٣٠٢

العسكري جمهرة الأمثال ــ بمباي ١٣٠٦

د . عطيه مصطفى مشرفة نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ــ دار الفكر العربي ــ الطبعة الثانية

العكبري التبيان في شرح الديوان ــ طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر

علي بن منجب الإشارة إلى من نال الوزارة ــ مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٤

العماد الأصفهاني جريدة القصر وجريدة العصر ــ قسم شعراء مصر ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٥١/١٣٧٠

عمر بن حبيب نسيم الصبا ــ مخطوط بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم ٤٤٤

المؤلف	الكتاب
عمر بن أبي ربيعة	ديوانه — دار صادر وبيروت — لبنان ١٩٦١/١٣٨٠
العمرى	مسالك الأبصار — مصور بدار الكتب المصرية
ابن الفقيه	مختصر البلدان — ليدن ١٨٨٥
القاضى النعمان بن محمد المغربى	الهمة فى آداب اتباع الأئمة — دار الفكر العربى
ابن قتيبة	الشعر والشعراء — دار المعارف بمصر ١٩٦٧/١٣٨٧
ابن القلانسى	تاريخه المعروف بذيل تاريخ دمشق — مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٩٠٨
كشاجم	ديوانه — المطبعة الأنسية ببيروت
محمد بن عبد الله آل عبد القادر	مختارات آل عبد القادر — المكتب الإسلامى ١٩٦٤
د. محمد كامل حسين	فى أدب مصر الفاطمية — دار الفكر العربى بمصر نظرية المثل والممثول وأثرها فى شعر مصر الفاطمية — مطبعة الفكرة بالقاهرة
المعز لدين الله	رسالته إلى الحسن بن أحمد القرمطى (اتعاظ الحنفا للمقريزى)
المقدسى	أحسن التقاسيم — ليدن ١٩٠٦ (الطبعة الثانية)
المقريزى	١ — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا — دار الفكر العربى ١٩٤٨/١٣٦٧
	٢ — إغاثة الأمة بكشف الغمة — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠/١٣٥٩

٣ ــ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ــ عالم الكتب ــ القاهرة ١٩٦١

٤ ــ الخطط المقريزية ــ مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤ ــ ١٣٢٦

٥ ــ المقفى ــ مصور بدار الكتب المصرية

المقرى ــ نفح الطيب ــ طبع أوربا

ابن منظور ــ نثار الأزهار فى الليل والنهار ــ مطبعة الجوائب ١٢٩٨

مهلهل بن يموت ــ سرقات أبى نواس ــ دار الفكر العربى بمصر

ابن ميسر ــ أخبار مصر ــ الجزء الثانى ــ مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩١٩

ناصر خسرو علوى ــ سفرنامه ــ ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤/١٩٤٥

النواجى ــ حلبة الكميت ــ طبع بولاق ١٢٧٦

النويرى ــ نهاية الأرب ــ طبع دار الكتب المصرية

ابن هشام ــ السيرة النبوية ــ طبع مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

ابن وكيع ــ ديوانه ــ مكتبة مصر

ابن الوزير ــ عنوان المرقصات والمطربات ــ مطبعة جمعية المعارف ١٢٨٦

وهب بن منبه ــ التيجان فى ملوك حمير ــ طبع حيدر آباد

ياقوت ــ معجم الأدباء ــ طبع دار المأمون .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٩٠/١٩٧٥